S H A K E R   N A B U L S I

فكر سياسة

POLITICS

# شاكر النابلسيّ

# سجون بلا قضبان

## يحدث في العالم العربيّ الآن



سجون بلا قضبان

يحدث في العالم العربي الآن

**سجون بلا قضبان : يحدث في العالم العربيّ الآن / فكر - سياسة**
شاكر النابلسي / مؤلّف من الأردنّ يقيم في أمريكا
**الطبعة الأولى ، 2007**




**المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**
**المركز الرئيسي :**
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
**التوزيع في الأردن :**
**دار الفارس للنشر والتوزيع**
عمّان ، ص. ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
لوحة الغلاف : **ڤيسلاف روزوشا / بولندة**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذ الطباعيّ : **مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان**


ISBN 978-9953-36-986-0

شاكر النابلسي

---

# سجون بلا قضبان

## يحدث في العالم العربي الآن





## الإهداء

إلى
من هم داخل هذه السجون وخارجها



# المحتويات

# المقدمة

ü يعيش العالم العربي، منذ أكثر من اثني عشر قرنا؛ أي منذ بدء العصر الأموي إلى الآن، في سجن كبير بلا قضبان. فغياب هامش الحرية الكبير، واختفاء الديمقراطية والتعددية السياسية والفكرية، حول العالم العربي منذ القدم إلى سجن كبير، ولكن بلا قضبان.

الحال كما في الماضي، وربما أكثر سوءا

واليوم لم يتغير حال العربي كثيرا عما كان عليه في السابق. فنرى أن المحن السياسية والثقافية، التي كانت تنزل بالعالم العربي قبل قرون عدة وخلال قرون عدة، هي المحن ذاتها التي تنزل اليوم بنا، مع اختلاف الظروف واختلاف الأسماء. أما مسبباتها وتداعياتها فهي نفسها، وكأن العالم العربي قد عزل نفسه عن كل مجريات هذا العصر، وعاش داخل قوقعة من الصدف، لا يخرج منها، ولا يرى العالم من حوله. وقد حولته هذه القوقعة إلى شعب محتل، يكاد يكون هو الشعب المحتل الوحيد في القرن الحادي والعشرين. وحولته هذه القوقعة إلى شعب أمي لا يقرأ، وإن قرأ لا يفهم. وقد أعلنت المنظمة العربية للثقافة والعلوم والتربية (الألسكو) تقريرها لعام 2005، فتبين أن هناك أكثر من سبعين مليون أمي في العالم

العربي، وهو ضعف عدد الأميين في العالم أجمع، وأن نسبة الأمية في بعض الدول الكبيرة كمصر مثلا، تزيد على ستين بالمائة، وأن مصر لم تستطع أن تخفف من هذه النسبة طيلة السنوات الماضية، في حين أن بلدا صغيرا وفقيرا لا يتجاوز عدد سكانه الأربعة ملايين في أمريكا اللاتينية مثل كوستاريكا، لا تتجاوز فيه نسبة الأمية أكثر من ثلاثة بالمائة.

## اضمحلال التعليم والثقافة

كذلك، فإنه نتيجة لتقوقع العالم العربي، وسيطرة المؤسسة الدينية على مقدراته وتحكمها بمناهجه الدراسية، أضحت المعاهد والجامعات العربية في أسفل قائمة أفضل أربعمائة جامعة في العالم. بل لم تكن هناك جامعة عربية ضمن هذه القائمة. ولو استعرضنا صناعتنا، وعلومنا، وزراعتنا، وثقافتنا عموما، لوجدنا أننا ما زلنا في قائمة الدول والشعوب الأكثر تخلفا في العالم، رغم ما لدينا من إمكانات جغرافية، وثروات طبيعية وبشرية، لتحقيق أفضل معدلات التنمية في العالم. وقد يقول البعض من الغلاة المتطرفين إن الدين هو الذي أغلق علينا هذه القوقعة، وحفظنا داخلها. لكن هذا القول يجافي الحقيقة. فالدين الإسلامي وجد في دول إسلامية معاصرة لنا كماليزيا وتركيا وتونس وغيرها، ورغم ذلك لم يحدث هذا الانغلاق الذي أحدثه في العالم العربي. المشكلة الحقيقية في العالم العربي تكمن ليس في الدين، وانما في دعاة الدين، ورجال الدين. مشكلة العالم العربي السياسية والثقافية هي إسلام الفقهاء، وليس إسلام القرآن الكريم. وكما قلنا، فإسلام القرآن كان مصدر إلهام للتقدم والازدهار في دول عربية وإسلامية معاصرة لنا، استطاعت أن تبايع الإسلام بالعقل، وأن يبايع الإسلام عقلها. ولو أننا بايعنا الإسلام بصدق وأمانة وشجاعة، لما كنا الآن رهائن للخوف، والضعف، والتخلف.

يتضح في هذا الكتاب، كم هي قاسية ومظلمة ومهلكة هذه السجون التي نعيش فيها في العالم العربي، والتي نطلق عليها جزافا أوطانا. وهو ما نسمعه جزئيا وعلى استحياء، من بعض المسؤولين أحيانا وعفويا. فحنيف حسن، وزير التربية والتعليم الإماراتي، يقول بصراحة لتليفزيون "العربيـة" (2007/1/18)، بأن مدارس بلاده أصبحت "سجونا منفرة". ولو كان لدى المسؤولين العرب الآخرين الشجاعة الكافية، لاعترفوا أن العالم العربي كله وليس مدارسه فقط، قد أصبح سجونا بلا قضبان، من خلال قضبان السياسة الغليظة والمحكمة في العالم العربي، ومن خلال قضبان الإسلامويين، وظهور تأثير إسلام الفقهاء الذين يكيلون بعدة مكاييل وليس بمكيالين فقط، وخاصة فيما يتعلق بقضية مهمة وشاغلة، وهي قضية الإرهاب، ومن خلال سجون المثقفين المعنوية المتمثلة بمحن المفكرين الليبراليين مع الفكر الديني، ومع الإرهاب الذي هددهم بالقتل إذا لم يكفوا عن التفكير والكتابة كما تم مع سيد القمني.

## محن المثقفين

لم تكن محنة سيد القمني مع الإرهابيين هي الوحيدة في الماضي القريب. فقد كانت هناك محن أخرى تعرض لها مجموعة من المثقفين الليبراليين.

فنقرأ في هذا الكتاب محنة حسن حنفي مع فقهاء السلطان، ومحنة جمال البنا مع الشجاعة، ومحنة العفيف الأخضر، ورجاء بن سلامة مع الأصولية. كما يستعرض هذا الكتاب، فكر المفكر السعودي الليبرالي إبراهيم البليهـي، وهـو الامتداد الفكري، والمواصلة الثقافية الليبرالية لفكر المفكر السعودي الراحل عبد اللـه القصيمي، الذي ما زال سجين الفكر الأصولي المتشدد حيا وميتا، وما زال فكره وتراثه وراء قضبان غليظة من المحرمات الموبقات الملعنات.

ولا يفوت هذا الكتاب، أن ينوه بأن المثقفين كسيد قطب، قد أقاموا هم أنفسهم أيضا سجونا للمثقفين، عندما نادوا بصراع الحضارات، ومعاداة الآخر، وتكفيره، وإعلان الحرب ضده، وهو صراع جهالات في واقع الأمر، كما سبق وقال الراحل إدوارد سعيد. وبذا أصبح بعض المثقفين العرب، هم السجناء والسجانين في الوقت ذاته، من خلال ما قالوه وكتبوه من فكر السجون التكفيري الحاقد، والمكبوت، والمقموع، الذي وضع جزءا كبيرا من المجتمع العربي وراء القضبان(1).

شاكر النابلسي
يناير 2007

(1) من الملاحظ، أن معظم الفكر التكفيري المدمر الذي كتبه سيد قطب من خلال كتبه المختلفة المشهورة، تمت كتابته في ظلام سجون عبد الناصر، وفي جو من الحقد والكبت والعداء الشديد للآخر، والذي انتهى بإعدام سيد قطب عام 1966 كما أن معظم الفكر التكفيري الذي صدر عن جماعة الإخوان المسلمين والجماعات الإسلاموية التي خرجت من عباءة الإخوان المسلمين، تمت كتابته في السجون السياسية في مختلف الدول العربية. وهو الفكر الطليق الآن في معظمه، والذي وضع قسما كبيرا من المجتمع العربي وراء قضبان الأصولية المتشددة، ورهن المستقبل العربي لماض بعيد، لم يعد قائما بمجتمعاته وتحدياته.

قضبان السياسة

أبناء المستقبل

* يقول المفكر المغربي الليبرالي عبد الـلـه العروي: إذا كانت الدعوة الليبراليـة؛ أي الفكر النقدي العلمي على الطريقة الغربية، قد أخفقت في الماضي، فإن ذلك لا يعني أنه ينبغي أن نتخلى عنها. على العكس ينبغي أن نواصل معركة التحرر الفكرية مرة أخرى حتى لو فشلنا مائة مرة. وما لم يستوعب الفكر العربي مكاسب العقل الحديث من عقلانية وموضوعية ونزعة إنسانية، فإنه سيظل متخلفا ولن تحل أي مشكلة في العالم العربي أو الإسلامي. ويضيف على هذا القول المفكر الليبرالي السوري هاشم صالح بقوله: إن الدعوة إلى الليبرالية لا تعني العودة إلى الوراء، أو إلى عصر مضى وانقضى، كما يتوهم بعضهم، إنما تعني استدراك ما عجزنا عن تحقيقه سابقا واللحاق بركب الأمم المتقدمة إذا أمكن.

جدل فكري

ثار جدل فكري كبير في عامي 2004، و2005 حول مجموعة من المثقفين والمفكرين العلمانيين والحداثيين، الذين أطلق عليهم "الليبراليون

الجدد". وكان مثار هذا الجدل بالدرجة الأولى موقف الليبراليين الجدد من كارثة 11 سبتمبر 2001، والكفاح المسلح، والتعليم الديني الظلامي، والحملات الإرهابية المسلحة في العالم العربي، وتحرير العراق في 2003، ومشروع "الشرق الأوسط الكبير"، والإصلاح السياسي العربي، والانتخابات العربية تحت حراب الاحتلال.. الخ. في حين أن المثقفين "القومويين"، و"الإسلامويين" الذين كتبوا وخطبوا عبر الفضائيات والمؤتمرات القومية والدينية، وراهنوا على فشل التجربة الديمقراطية في العراق، واستمرار الكفاح المسلح كطريق وحيد للتحرير الفلسطيني من البحر إلى النهر، ووقفوا إلى جانب الإرهاب الدموي الذي كان يقترف جرائمه تحت مظلة "المقاومة"، والذين راهنوا على أن لا انتخابات شرعية ونزيهة وشفافة تحت حراب الاحتلال، ونسوا ما جرى في اليابان وكوريا الجنوبية وألمانيا وأيطاليا.. الخ. كل هؤلاء لا يستطيعون الآن أن ينظروا في المرآة كي يروا كيف اسودت وجههم، وخابت آمالهم، وتبخرت أحلامهم، وباتوا بلا ظهراء ولا قراء، بعد أن تحقق على أرض الواقع خلاف ما كتبوه على صفحات الجرائد، وقالوه على شاشات الفضائيات.

ومن خلال ذلك، وكما نشأت الليبرالية العالمية في أصولها كتيار فكري وسياسي وعقيدة تناهض السلطات، وتناهض الأنظمة التي تقف في وجه العطاء الفردي والحرية الفردية. وكذلك كانت الليبرالية العربية الجديدة. فجيل الليبراليين الذي جاء في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين رمي بتهم شتى، وكذلك رمي الجيل الذي جاء بعدهم في النصف الأول من القرن العشرين. ويبرر عبد اللـه العروي هذا الموقف، بأنه ناشئ عن أن الغرب الحالي يبدو في آن واحد استغلالا اقتصاديا وهيمنة سياسية ومنهاجا فكريا وسلوكا أخلاقيا. والمثقفون العرب الذين ينتهجون سلوكه ويستعملون منطقه، يعتبرون متحالفين معه. وزاد في رسوخ هذا

الارتباط في الأذهان ما أولته البحوث الاجتماعية الغربية حول الدول المتخلفة من اهتمام بتحديث النخبة وتقيدها بقيم الموضوعية العلمية والليبرالية السياسية كأقرب وسيلة لدفع المجتمع في طريق التطور. فبدا داعية التحديث في الداخل، وكأنه يرجع صدى دعوة أنصار النظام الإمبريالي. وبطبيعة الحال يلجأ المثقفون الذين يرفضون هذه القيم إلى مغايرة الفريق السابق بتبني المناهج التقليدية التي وجدت قبل الغزو الأوروبي والتي استعملت لمحاربته. (عبد اللـه العروي، العرب والفكر التاريخي، ص 7).

مجمل الفكر الليبرالي الجديد

إن أفضل ما يلخص به الفكر الليبرالي العربي الجديد هو أنه فكر في مجمله يقوم بإحياء قيم الحرية العربية لدى الإنسان. ولهذا يقف الفكر الليبرالي العربي الجديد ضد الحكم المطلق، وضد الاستبداد، وضد الخنوع للدولة واستعبادها، وليس ضد الدولة. وأن الفكر الليبرالي الجديد ليس مبنيا على حقيقة واحدة خالدة وعابرة للتاريخ. حقائق الليبراليين الجدد لا تعرف دفعة واحدة، وانما تعرف بالتدريج وفي وجوه متعددة ومتغايرة على حد تعبير عبد اللـه العروي. وهي دائما تحتمل المراجعة الشاملة المتكررة.

لقد نادى الليبراليون الجدد بثورة ثقافية من حيث أن الثقافة هي التعبير الواعي عن واقع المجتمع، والذي بغيره لن يتم إصلاح سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي. وبدأت أولى خطوات هذه الثورة بالمناداة والتشديد على ضرورة إصلاح التعليم الديني الظلامي وأهميته، وإصلاح التعليم العربي بشكل عام، وإلحاقه بالتعليم الحديث عند الدول الغربية. كما كانت أولى هذه الخطوات المناداة بقيام حركة نقد ذاتي، وقيام ثورة ثقافية على المفاهيم القائمة الآن في العالم العربي.

## اتهامات لليبراليين

لقد اتهم الليبراليون الجدد بأنهم ضد الثوابت والأصالة، التي هي ظاهرة ثابتة في التاريخ، وأن الأصالة التي ينادي بها السلفيون الآن، هي المحافظة على التقليد الحاضر ضد "الأفكار المستوردة" و"الغزو الفكري والروحي" و"الإسلام الأمريكي" و"ديمقراطية الاحتلال" و"الحرية المحمولة على رؤوس الصواريخ الأمريكية".. الخ، وأن الليبراليين هم دعاة كل هذا. وهي كلها دعوات لا تتعدى أن تكون من نسج الخيال النخبوي السلفي، ومن تخيلات النخب المحافظة، ومن امتزاج المقدس بالمدنس، واختلاط أوراق الحداثة والقدامة، والأصالة والمعاصرة.

كما اتهم الليبراليون بأنهم يعملون على نشر الحداثة الغربية في المجتمعات العربية. وهي تهمة لا ينكرها الليبراليون الجدد، من حيث أن الحداثة حالة عقلية، تعبر عن نفسها حسيا في التمدن، وارتفاع نسبة التعليم، وانتشار وسائل الإعلام، والمشاركة السياسية، وغير ذلك من مؤشرات، ما هي في حقيقتها غير تعبير حسي عن موقف عقلي معين تجاه الإنسان والمجتمع والطبيعة. وحجر الزاوية في هذا الموقف، أو هذه الحالة العقلية، هو الإنسان، وإمكانية تغيير الأشياء، كما يقول تركي الحمد (دراسات أيديولوجية في الحالة العربية، ص 62).

## مهمة المثقف العضوي الليبرالي

إن مهمة المثقف العربي العضوي الحداثي والليبرالي الجديد، تخليص مجتمعه من الارتهان للماضي إلى الرهان على المستقبل، وإخراجه من هذا الماضي البائس، ونقله إلى مستوى العصر. فالبؤس العربي متأت من العيش في بؤس الماضي، وفي بؤس المجتمع التقليدي. وتغيير المجتمع بشكل جذري وواقعي، هو ما يمكن أن يخرج المجتمع العربي من التخلف

إلى التقدم، ومن عالم الأحلام والخيالات إلى عالم الواقع والرهانات، ومن المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث. فإذا كان المجتمع التقليدي يتصف بأنه ذو قيم ضيقة، وخاصة، وموروثة مسبقا، ووظائفه الاجتماعية غير متخصصة، وتسيطر عليه وعلى قراراته العاطفة، فإن المجتمع الحديث، الذي يسعى الليبراليون الجدد إلى إقامته، يعتمد على قيم كونية، نابعة من العصر الذي يعيش فيه. وهي قيم فردية لا جماعية، كما هي الحال في المجتمع التقليدي، وبأن قراراته عقلانية واقعية، وعواطفه حيادية غير منحازة.

من هو الكاتب الليبرالي؟

الكاتب الليبرالي، هو كاتب الحقيقة، أيا كانت هذه الحقيقة، سواء كانت عند العرب أو العجم، عند الشرق أو عند الغرب، عند الكرد أو عند الآشوريين، عند اليهود أو عند البوذيين، عند المسلمين أو عند المسيحيين، عند أبيه أو عند أمه.

الكاتب الليبرالي، ليس هو مطرب الحفل الساهر، ولا يسعى إلى تصفيق الجمهور، وتلقي باقات زهورهم، بقدر ما يسعى إلى كشف الحقيقة المرة لهم، حتى ولو رجموه بالحجارة، وبصقوا عليه، وشتموه، ورموه بأقذع الصفات السوقية، كما نقرأ في ردود بعض القراء في بعض الأحيان.

الكاتب الليبرالي، هو الذي يفاجئ القوم النائمين، الساهين، المخدرين بحشيش الشعارات، بما يجب أن يسمعوه، لا بما يريدون أن يسمعوه، لذا فهو كاتب مكروه، وقبيح، ومنبوذ، وغير شعبوي.

إن الكاتب الليبرالي، هو الذي يثير الشكوك دائما، ويحفر حول الحقائق، ويغضب أكثر مما يفرح، ويثير أكثر مما يبعث على السكينة، ويقلق أكثر مما يريح.

الكاتب الليبرالي، لا يطمع بتصفيق الجمهور، ولا بباقات ورودهم، ولا بقبلاتهم، ولكن غاية مناه، أن تصل رسالته إليهم، وتفعل فعلها فيهم. تحرق خشبهم القديم المسوس، وتذري في الهواء قشهم العتيق، وتنفض من رؤوسهم بيوت العنكبوت، وتخرجهم من الكهوف المظلمة الباردة.

الكاتب الليبرالي ليس سياسيا

الكاتب الليبرالي، ليس سياسيا في كلامه وفي أقواله، يداري، ويجاري، ويواري. يزوغ من الحقيقة كما يزوغ السياسيون، ويراوغ كما يراوغ السياسيون، ويعممون الكلام، ويطلونه بطبقة من العسل السام.

السياسيون يقولون عن الأعور، إنه يبصر بعين واحدة فقط، أما الكاتب الليبرالي فيقول للأعور: أعور.

الكاتب الليبرالي، ليس مسؤولا حكوميا، لكي يحذر، ويحتاط، و(يحاسب) ، ويأخذ في كلامه خاطر فلان أو علان من المسؤولين الآخرين في الدول الأخرى، خوفا على العلاقات الديبلوماسية من أن تنقطع.

علاقات الكاتب الليبرالي مع الحقيقة فقط، ومن أجل الحقيقة فقط. وليضرب الآخرون رؤوسهم في الحائط. فلا نزل القطر

وليس نجما

الكاتب الليبرالي، ليس نجما تلفزيونيا لامعا عند العرب، وليس كاتبا مرموقا في الصحف الذهبية، وليس محدثا شعبويا فوق المنابر الجماهيرية وفي المنتديات، ولا تطلب الحسناوات توقيعه على الألبومات، وليس راعيا لقطعان الأغنام والأنعام.

الكاتب الليبرالي في العالم العربي، ضد التيار العام، ضد الأغلبية. طويل اللسان في الحق على أي كان، ومحامي الشيطان، ومنغص الأبدان، ولا يكتب بأجر أو إحسان، وهو في نهاية المطاف ملعون، ومنبوذ، ومرفوض، ومغضوب عليه من الناس والسلطان، وهو من الضالين آمين.
والكاتب الليبرالي يدرك كل هذا، ويعرف نتيجة ما يكتب مسبقا، ورغم هذا فهو يكتب، ويكتب، ويكتب. ولا يهمه قارئ اليوم، بقدر ما يهمه قارئ الغد، الذي هو وحده سيكتشف الحقيقة، بعد أن تطفأ الحرائق، وتسكت المدافع، وتهدأ المعارك، ويزول ضجيجها وغبارها، وتطوى أعلامها، وتحلل حساباتها، ويكتب تاريخها. أفكار الكاتب الليبرالي قنبلة موقوتة، لن تنفجر اليوم، ولكنها ستنفجر في الغد حتما. وهي حبات البذار المطمورة في الأرض، والتي لا تنبت وتزهر إلا في الطقس المناسب. ولكن لا بد لها أن تنبت وتزهر.

جمهور الكاتب الليبرالي
قلنا أكثر من مرة، إن الكاتب الليبرالي ليس من أصحاب الأرصدة الجماهيرية الكبيرة في مثل هذا الشارع العربي، الذي تجمعه طبلة وتفرقه عصا، كما قال عنه منذ 14 قرنا السياسي الداهية عمرو بن العاص. بل يكاد يكون الكاتب الليبرالي هو أقل الكتاب في الصحافة العربية امتلاكا لرصيد متواضع جدا من القراء. والسبب الرئيس في ذلك، أن الكاتب العربي لا يطرب الجمهور المعتاد على الطرب السياسي، المنبعث من التخت الشرقي السياسي التقليدي، بمشاركة "الصهبجية" من الزعماء السياسيين، والكتاب السياسيين الشعبويين.

نصائح القراء

في تعليقات بعض القراء على مقالات الكتاب الليبراليين الآخرين، يتنطح بعض القراء لتقديم نصيحة "أخوية" لنا، بأن نكف عن مهاجمة "حزب الله"، و "حماس"، و "الإخوان المسلمين" وغيرها من الأحزاب السياسية الدينية، حفاظا على رصيدنا الجماهيري، ولكي لا ينقص رصيدنا لدى القراء، ويصبح صفرا أحمر.

وللعلم، فنحن لا نهاجم هؤلاء بقدر ما نكشف حقيقته. وكشف الحقيقة في الجمهور الذي خرج بعد هزيمة 1967 يقول لعبد الناصر وهو القائد المهزوم: أح .. أح .. لا تتنح ، هو شيء مؤلم وقاس، ولا يحتمل، وهو الجمهو الذي خرج يبكي ويلطم عندما تم شنق الطاغية صدام حسين. كما أن نقد هؤلاء، وكشف تاريخ ما نسيه الرأس العربي لجمهور يقول لحسن نصر الله: نحن فداء صرمايتك، وهو نصر الله الذي نكب لبنان بما يزيد على 15 مليار دولار، حسب تقرير البرنامج الائتماني للأمم المتحدة، وأضاع الأرض التي كسبها في عام 2000، وأعاد الاحتلال الاسرائيلي لجنوب لبنان، كما كان عليه الوضع قبل عام 2000، وهدم أكثر من 15 ألف بيت، وقتل أكثر من ألف لبناني، وأكثر من عشرة آلاف جريح، لكي يحرر الأسير سمير قنطار، الذي أصبح أغلى سجين في العالم، إذ إن يحيى سكاف السجين الثاني ليس لبنانيا، وانما هو فلسطيني من مواليد جنين. واسرائيل أنكرت أنه مسجون لديها. ولم يعثر عليه الصليب الأحمر في السجون الإسرائيلية حتى الآن. وسمير نسر السجين الثالث الذي يطالب به حزب الله ليس لبنانيا، وانما هو اسرائيلي الجنسية، ومن أم يهودية، ومتهم بالتجسس لحساب حزب الله .. هذا الجمهور الذي يصيح بأعلى صوته، بأنه فداء صرماية نصر الله ليس جمهور أي كاتب ليبرالي، في أية وسيلة إعلامية عربية.

الصفر الجماهيري

فهل عندما نقول بأن سمير قنطار أغلى سجين في العالم، وكلف لبنان نتيجة حماقة حزب اللـه، كل هذه الكوارث نكون قد كفرنا بالجمهور، وأصبح رصيدنا الجماهيري صفرا.

فليكن كذلك.

فنحن لا نريد جمهورا استبدل رأسه بطبل فارغ.

إن صفرنا الجماهيري ككتاب ليبراليين، أفضل لنا في بنوك الفكر والعقل، من ضخامة رصيد من هم فداء لصرماية حسن نصر.

فلتبق هذه الصرماية تصفق رقاب هؤلاء وأقفيتهم، إلى أن تأتي النكبة التالية.

الكاتب الليبرالي يحزنه جدا ويخجله جدا، بل ويرفض أن يقرأه جمهور من خلال ثقوب صرماية نصر اللـه، كما يقرأ للآخرين من كتاب الزفة.

في الشدائد، يضيع رصيد الكاتب الليبرالي، ويصبح ربما صفرا.. لماذا؟

لأن الكاتب الليبرالي لا يكذب أهله في الشدائد، ولا يصور لهم ما يريدون أن يروه، وإنما ما يجب أن يروه.

في المصائب، الكاتب الليبرالي يغرد عادة خارج السرب، ليس من أجل التميز، وليس من أجل الانفراد، وليس من أجل المخالفة، ولكن من أجل إضاءة الحقيقة التي عادة ما تكون مريرة، في مهرجانات الطبول والمزامير.

في الكوارث، الكاتب الليبرالي ينادي ببقاء الوطن، وذهاب "القائد" المسؤول عن الهزيمة. في حين أن الجمهور الذي ينادي بفداء نفسه من أجل صرماية القائد، يفضل أن يذهب الوطن، ويبقى القائد.

ألم يخسر القائد عبد الناصر الوطن في سيناء، وبقي هو القائد؟
ألم يخسر القائد حافظ الأسد الوطن في الجولان، وبقي هو القائد؟

ألم يخسر القائد حسن نصر الـلـه جنوب لبنان الآن، وعاد الاحتلال الإسرائيلي لما كان عليه قبل عام 2000، إضافة إلى خسارة 15مليار دولار، كما قال تقرير الأمم المتحدة، و15 ألف بيت مهدم، وألف قتيل، وعشرة آلاف جريح ومليون مشرد، وظل هو القائد الذي تفتدى صرمايته بالأرواح والدماء؟

ضرورة النقد الذاتي

في الصواعق، الكاتب الليبرالي يطالب بالنقد الذاتي، وحساب النفس المسؤولة عن وقوع الكارثة، مهما كانت، ومهما كبرت، ومهما علت.

فالأمم لا تنتصر إلا عندما تنتقد ذاتها نقدا عميقا، وصريحا، وشجاعا.

أنظروا ماذا يتم في اسرائيل الآن، من نقد ذاتي مرير، ننتشي به، ونفرح ونهلل له، نتيجة لحرب 12 تموز/ يوليو، أو ما نطلق علية "حرب سمير قنطار" السجين الذهبي، الذي يساوي الآن أكثر من وزنه ذهبا (15 مليار دولار، إضافة إلى تكاليف أخرى)؟

إقرأوا ماذا تم في إسرائيل من نقد ذاتي قاس بعد حرب يوم الغفران 1973، والتقصير الإسرائيلي الذي حصل وقتها، والذي نعتبره اعترافا من إسرائيل بهزيمتها، وتأملوا الرؤوس الإسرائيلية الكبيرة التي طارت نتيجة لهذه الأخطاء، بينما رؤوسنا المسؤولة عن أخطائنا كبرت، وتضخمت، وعلت، وبقيت مقدسة مرفوعة، تمطرها القبلات؟

قاموسنا وقاموسهم

القاموس السياسي العربي الحالي بحاجة إلى تقويم وتنقيح، بل إلى حرق، وطباعته طباعة جديدة.

فما هو "نقد" في القاموس السياسي الغربي، هو في القاموس السياسي العربي "هجوم".

وما هو "كشف للحقيقة" في القاموس السياسي الغربي، هو في القاموس العربي "عمالة".

وما هو "الرأي الآخر" في القاموس السياسي الغربي، هو في القاموس العربي "خروج على الإجماع".

وما هو "مقدس" في القاموس السياسي العربي، فهو في القاموس الغربي "يخضع للنقاش".

وما هو "ثابت" في القاموس السياسي العربي، فهو في القاموس الغربي "متغير".

وما هو "مسكوت عنه" في القاموس السياسي العربي، هو في القاموس الغربي "مكشوف عنه".

وما هو "نكبة ونكسة" في القاموس السياسي العربي، هو في القاموس الغربي "هزيمة صريحة".

وما هو "انتصار الأيديولوجيا" في القاموس السياسي العربي، هو في القاموس الغربي "انتصار الأوطان".

وما هو "الجهاد عشق الموت" في القاموس السياسي العربي، هو في القاموس الغربي "الجهاد عشق الحياة".

وما هو "الدين في خدمة الحكام" في القاموس السياسي العربي، هو في القاموس الغربي "الدين في خدمة الناس".

سبب تخلف العرب

لم يصل العرب حتى الآن إلى مرحلة النقد الذاتي للعقل العربي. وهذا هو السبب الرئيس وراء أن العرب ما زالوا متخلفين إلى الآن. ولم يدركوا بعد أن طريق الصواب لا يجتازها بنجاح إلا من اجتاز طريق الخطأ.

إن الرأس العربي - في مجمله - في الكوارث والمصائب والنوازل لا يعود رأس العقل. إنه يتحول إلى طبل أجوف، يقرع عليه "الصهبجية" و"الصويتة" من السياسيين والإعلاميين ألحانهم الجنائزية والاحتفالية الكاذبة.

بؤس حمائم الليبراليين

يبدو أن الأيام الماضية، قد استطاعت أن تفرز جناحين في حركة الليبراليين العرب الجدد، كما هو في كل الحركات السياسية والفكرية: جناح الحمائم، وجناح الصقور.

ويبدو أن جناح الحمائم في الأيام الأخيرة، اعتراه التعب، والاكتئاب، والضجر من هذا الكفاح اليومي، الذي يمارسونه تجاه هذا التيار العارم المتدفق من الرأي الآخر المعارض. وتساءل بعض الكتاب الليبراليين:

هل ينبغي علينا الآن أن نتحلى بشجاعة الاعتراف بالهزيمة النهائية والماحقة؟

هل علينا أن نلتزم الصمت والصوم عن الكتابة احتراما لأنفسنا ولأفكارنا؟

وقالوا على لسان الصديق كمال غبريال، إن المسألة ليست مسألة جدوى ما نقول أو نكتب، فنحن قد تجاوزنا الجدوى بأن نعتنق الموقف السيزيفي، الذي ينفق عمره في تحدي الآلهة، هو يرفع الصخرة وهم

ينزلونها، وبحسبة بسيطة نجد أنه ينتصر نصف انتصار، وينهزم نصف هزيمة، حيث يكون المتوسط الحسابي لموقع الصخرة هو منتصف المسافة.

وقالوا: نخشى أن المشكلة أن نكون قد أصبحنا ضد الجماهير، نكتب ضدها، ونطالب بما لا تريده، بل ترفضه. نريد لها الحرية، وتريد هي الخنوع، نريد سيادة المحبة، وهي مفتتنة بالولوغ في الكراهية. وقالوا: إذا استمررنا على نهجنا الحالي ذاته سنجد أنفسنا معادين للتطبيق الديموقراطي، ومعادين لمنح الحرية لشعوب، لا ترى حريتها إلا في التدمير، والتخلف، والذبح.

وقال هؤلاء بحسرة وانكسار: هذه الشعوب ليست في أزمة، فهي تعيش حالة انتصار، مادامت الكراهية تنتصر، ولا يهم والحالة هذه، تفاقم الفقر والجهل والمرض. فهذه الشعوب تأقلمت مع هذه الأوضاع، وربما تستشعر الغربة في أية ظروف أخرى نتصورها نحن أفضل، لكننا نحن الليبراليين في أزمة وجود، وليست أزمة حدود كما يقولون. فنحن أناس منفصلون عقليا وروحيا عن شعوبهم، حتى لو كنا نضمر لهذه الشعوب الخير والحداثة، لكنهم لا يريدون نوعية الخير الذي ننشده لهم، بل ويرونه شرا .

ضراوة صقور الليبراليين

وقام جناح آخر في حركة الليبراليين وهو جناح الصقور، وقالوا على لسان الصديق عبد الخالق حسين، ردا على يأس جناح الحمائم، بأنه من خلال متابعتهم لكتابات جناح الحمائم، حصل لديهم انطباع عنهم، أنهم ذو نفس قصير. وكما يقال بالعراقي عن هذه الحالات أنها (مثل عباس المستعجل) الذي يتوقع نتائج سريعة لدور الليبراليين، وفي فترة قصيرة، وإلا "ينبغي علينا الآن أن نتحلى بشجاعة الاعتراف بالهزيمة النهائية

والماحقة، وأن نلتزم الصمت والصوم عن الكتابة احتراما لأنفسنا ولأفكارنا" كما يقول جناح الحمائم.
وقال الصقور: هذا الموقف مرفوض طبعا، فالتحولات التاريخية لا تخضع لرغبات الليبراليين وخصومهم ، بل وكما قال الفيلسوف الألماني هيغل، "لا يمكن تجاوز مرحلة تاريخية إلا بعد أن تستنفد مبررات وجودها." وقال ماركس "القفز على المراحل يؤدي إلى السقوط." وهذه أوروبا كانت في مرحلة من المراحل، وخاصة في القرون الوسطى، تعيش حالة، لا تختلف عما تعيشه منطقتنا العربية من تخلف وسيطرة رجال الدين على عقول الناس والحكام. وقد بدأ الليبراليون نضالا عسيرا منذ أوائل القرن السادس عشر عندما نشر كوبرنيكوس نظريته في علم الفلك، والتي أكد فيها أن الأرض هي التي تدور حول الشمس وليس العكس، علما بأنه نشر كتابه في طبعته الأولى بدون ذكر اسمه في بداية الأمر، ومات قبل أن تنتبه الكنيسة إلى "فعلته الشنيعة" هذه، وإلا كان نصيبه الحرق كما حصل لبرونو وغيره على يد محاكم التفتيش، وبائعي صكوك الغفران. وقد تزامن هذا مع ثورة مارتن لوثر على الكنيسة، وإعلان الإصلاحات الدينية وظهور مذهب البروتستانتية (أي المحتجين)، كما نعرف ما حصل لغاليلو وغيره وحرق النساء بتهمة السحر.. الخ. ولنلاحظ التزامن في ظهور المصلحين والثورات الإصلاحية، مما يدل أن كل شيء وليد زمانه، ولا يمكن تجاوز الزمن أو حرق مرحلة.

لا استسلام لقوى الظلام

وقال صقور الليبراليين: هذا التقدم الهائل الذي حصل في الغرب، لم يأت بين عشية وضحاها، بل استغرق قرونا. إن ما حصل في البلاد العربية من تقدم خلال مائة عام الماضية، يعد قفزة نوعية مقارنة بما حصل

في أوروبا الذي استغرق عدة قرون. كذلك لا ننسى أن أوروبا شهدت حربين عالميتين خلال ثلاثة عقود فقط من القرن الماضي، راحت ضحيتها عشرات الملايين من شعوبها، وألحقت أضرارا مادية لا تقدر. نعم، نحن لسنا راضين على وتيرة التطور في البلاد العربية، وأن ما حصل هو دون الطموح، ولكن هذا لا يعني أن علينا أن نستسلم لقوى الظلام، ونكسر أقلامنا، ونقعد متفرجين مدحورين.

إن هذا الموقف الاستسلامي الانهزامي لا يخدم قضيتنا، ولا يدل على الشجاعة أيضا، بل يدل على الإحباط وقصر النفس، وعدم فهم قوانين حركة التاريخ. فلو راجعنا التاريخ منذ آلاف السنين وإلى الآن، لوجدنا أن اتجاه مساره دائما إلى الأمام وإلى الأعلى، أي نحو التقدم.

نعم، يحصل هنا وهناك بعض التعرجات والتراجعات والانكسارات في هذا البلد أو ذاك. ولكن في نهاية المطاف يتغلب التاريخ على هذه التراجعات، ويلغيها من مساره، ويعوض عن الوقت المضاع. وهذا ما حصل في دول الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية، لأن الأنظمة الشمولية في هذه البلدان، كانت مخالفة لحركة وقوانين التاريخ، فسقطت، وحل محلها النظام الديمقراطي.

وأكد صقور الليبراليين، إن ما يحصل في العراق وغيره من بلدان المنطقة، ما هو إلا آلام المخاض العسير لولادة الوليد الجديد، الذي سيكون وفق متطلبات حركة التاريخ.

كشف حساب الليبراليين

من خلال جردة سريعة لما قام به الليبراليون خلال السنوات الماضية، يتبين لنا أن الليبراليين استطاعوا أن يتقدموا في العالم العربي، ويحققوا في مدة وجيزة، ما لم تستطعه أشهر وأعظم الدعوات الأيديولوجية في

التاريخ العربي، التي قضت سنوات طويلة، لم تستطع خلالها كسب إلا عدد قليل إلى جانبها من المؤيدين والمناصرين، رغم أن هذه الدعوات كانت مدعومة بقوى غيبية خفية، ورغم أن هذه الدعوات لم تواجه من المقاومة والصد والعداء الذي واجهه الليبراليون طوال السنوات الماضية. ورغم أن الحركة الليبرالية الجديدة لم تستعمل القوة والعنف في نشر أفكارها، وشرح وجهات نظرها، وإقامة حوارها مع الآخر. في حين أن هذا الآخر قد استعمل معها العنف السلمي، حين حجب فكرها عن معظم وسائل الإعلام العربية المملوكة للأنظمة العربية بشكل مباشر أو غير مباشر. واستعمل هذا الآخر من ناحية أخرى العنف الجسدي، حين أصدر الفتاوى الدينية بقتل الليبراليين من الكتاب والمفكرين والدعاة، إذ لم يكفوا عن الكتابة، والبحث، والتبشير بالمستقبل العربي الحداثي. ورغم هذا كله فقد كانت لليبراليين طوال السنوات الماضية مواقف سياسية واجتماعية وفكرية ثابتة، وواضحة، وجريئة، منها:

1- الليبراليون هم فدائيو الحرية في العالم العربي. فهم الذين أيدوا غزو العراق منذ اللحظة الأولى لتحريره وليس لاحتلاله، وليس حبا بأمريكا ولكن حبا في العراق. ولو غزا المغول العراق من أجل الإطاحة بالطاغية السابق لأيدهم الليبراليون، ووقفوا إلى جانبهم ضد الطاغية السابق. ولو غزا العراق السود، أو الصفر، أو الحمر، أو البيض، أو السمر، أو المجوس أو الشياطين الزرق، لأيدهم الليبراليون، لا حبا في هؤلاء، ولكن حبا في العراق، وكرها للطاغية السابق.

لقد أيد الليبراليون تأييدا مطلقا وصريحا وجريئا تحرير العراق بالطريقة التي تمت، من أجل بناء عراق جديد. وقد صدقت دعوتهم تماما في شمال العراق، وفي إقليم كردستان، ولم تصدق في وسط العراق وجنوبه حيث السنة والشيعة وصراعهم التاريخي المعروف. وما

حصل، هو أن العراق الجديد قد تم بناؤه فعلا في الشمال فقط، لأن الكرد كانوا راغبين في بناء العراق الجديد. ولأن الكرد يريدون الحرية، والعيش المشترك، فقد تآلف الحزبان الكرديان الرئيسان (الحزب الديمقراطي الكردستاني، والحزب الوطني الكردستاني)، في 2004/12/1 وأقرا البرلمان المشترك، والحكومة الإقليمية الواحدة في 2006/1/20 ولكن الشيعة والسنة في العراق لم يتحرروا بالتحرير، لأن هؤلاء لا يريدون الحرية، ولم يعرفوها، ولم يتعودوا عليها منذ 1400 سنة إلى الآن. وأهل العراق في الوسط والجنوب، أهملوا بناء العراق، ووجدوا التحرير وما هيأه من هامش كبير للحرية والديمقراطية، فرصة ثمينة لتصفية حسابات قبلية وطائفية غجرية قديمة، فأكل بعضهم لحوم بعض، كما تأكل الوحوش الضواري في الغابات لحوم بعضها. وبلغ عدد القتلى اليومي من الطرفين أكثر من مائة ضحية في العام 2006 وتبارى الطرفان لا في أساليب البناء والتنمية والإعمار، ولكن في أساليب القتل. فبينما كان أشرار السنة يقتلون الشيعة بقطع الرقاب بحد السيوف، كان أشرار الشيعة يقتلون السنة بالمثقاب الكهربائي في جماجمهم. وكان الطرفان يختطفان الأبرياء من بعضهم، ويفخخون السيارات، ويفجرونها في مساجد بعضهم بعضا. لقد بدا الطرفان وكأنهما وحوش كاسرة في الغابة العراقية، أو طوائف من الهمج، من آكلي لحوم البشر، في العصور الحجرية القديمة. ووجد الطرفان إعلاما عربيا مرحبا، وناقلا، ومرددا لهذه الأفعال الهمجية ودعاتها، وفقهائها، وكتابها، ومثقفيها.

لقد أيد الليبراليون غزو العراق، لا لأنه احتلال جاء ليستنزف ثروات العراق، ويحتلها عشرات السنين، كما كان يفعل الاستعمار البريطاني والفرنسي في العالم العربي والهند وآسيا وغيرها، ولكنهم

أيدوا غزو العراق لأن هذا الغزو خلص العراق من حكم طاغية عات، وضحى بأبنائه من الجنود والصحافيين والمستشارين من أجل تحرير العراق. ودفع من جيب أبنائه مليارات الدولارات من أجل تحرير العراق من هذا الطاغية العاتي. وحاول بكل الوسائل تمهيد سبل الحرية والديمقراطية بالدستور والانتخابات وبالرقي بالعراق إلى مصاف الدول الديمقراطية، ولكن العرب من الجيران والجوار من الغربان أبوا أن يكون العراق كما نريد ونشتهي، فصدروا للعراق قطعان الإرهابيين، وزودهم بالسلاح والمال والخطط وخبراء التفجير وليس خبراء التثمير، وخبراء تفجير الأجسام وليس خبراء تفجير الطاقات الإنسانية. كذلك فقد أبى زعماء الطوائف الدينية وديوك السياسة العراقية من السنة والشيعة، أن يصبح العراق دولة إقليمية عظمى بتاريخها، وتراثها، ومالها، واقتصادها، وعلمائها، وأدبائها.

فما ذنب الليبراليين في الخديعة النخبوية السياسية العراقية، وفي هذا النزاع الطائفي الديني المذهبي، الذي يجتاح الغابة العراقية الآن، في الوسط والجنوب؟

2- كان الليبراليون صادقين مع أنفسهم، ومع التاريخ، ومع العراقيين، حين رحبوا بالتحرير، وصفقوا له، إيمانا منهم بأن المهم هو فعل التحرير وليس من يقوم به، وبغض النظر عن الوسيلة المستخدمة شرقية كانت أم غربية. فقد استجار المسلمون بالمسيحيين عندما طاردهم الطغاة، فهاجروا إلى الحبشة، واستجاروا بالنجاشي، ملك الحبشة. ولكن الليبراليين لم يكونوا يدركون أن النخبة السياسية العراقية قد استجارت بأمريكا وبريطانيا للخلاص من حكم الطاغية، لكي تصبح هي الطاغية الجديدة، التي تسرق وتنهب العراق، دون حسيب أو رقيب. لم يظن الليبراليون، بأن صدام حسين، ومن قبله

البعثيين، ومن قبلهم نوري السعيد، والوصي الأمير عبد الإله، قد أفرغوا العراق من النخب السياسية المؤهلة والنظيفة والشريفة إما بالقتل، أو بالسجن، أو بالتشريد، أو بالنفي. ومن هنا، فإن الخطأ الأمريكي ليس في تحرير العراق على النحو الذي تم، ولكن الخطأ الأمريكي الأكبر، كان وثوق الإدارة الأمريكية بالنخب السياسية التي تعاونت معها، والتي ظهرت أنها زمرة من الحرامية والفاسدين، الذين هم أشد نكبة على العراق ومستقبل العراق من حكم الطاغية السابق. لقد خدعت الإدارة الأمريكية خدعة العصر، في وضع يديها في يد هذه العصابات الطائفية القبلية، الرجعية، السارقة، الناهبة، المتخاذلة، والتي فضلت الطائفة على الأمة، وفضلت العائلة على الشعب، وفضلت الغنيمة على الوطن.

لقد خدعت النخب السياسية الحاكمة في العراق الإدارة الأمريكية خدعة كبيرة، حين قدمت لها صورة وردية عن نفسها، وعن الشارع والمجتمع العراقي. وارتكبت الإدارة الأمريكية خطأ فاحشا، حين لم تدقق في هذه المعلومات. وحين قرنت بين النخب السياسية العراقية وبين النخب السياسية اليابانية والألمانية في 1945، وبين النخب الكورية في 1953، فظنت أن الوطنية هنا وهناك واحدة ، وأن الأمانة هنا وهناك واحدة، وأن الإخلاص هنا وهناك واحد، وأن الشفافية وطهارة اليد هنا وهناك واحدة. ولم تقرأ الإدارة الأمريكية ما قاله علي الوردي، أو ما قاله من قبله ابن خلدون عنا، نحن العرب.

3- كان الدفاع عن حقوق الأقليات وحقوق المرأة، هو الشغل الشاغل لليبراليين في السنوات الماضية. فقد اعتبر الليبراليون أن العرب لن يرتقوا بأنفسهم سلم الحضارة الحقيقية، ويحققون الحداثة بكل معانيها، إلا عندما يساوون بين جميع المواطنين، بغض النظر عن

جنسهم، أو دينهم، أو لونهم، أو مذهبهم، أو طائفتهم، أو معتقدهم. لذا نرى أن الليبراليين في السنوات الماضية، ساهموا، واشتركوا بأكثر المؤتمرات التي عقدت في شتى بقاع العالم، لمناصرة حقوق الأقليات. وأصابهم الكثير من الأذى نتيجة لذلك، من قبل الشوفينيين القومجية، والمتشددين الدينيين، ورجال البوليس السري العربي، وتلقوا تهديدات بالقتل نتيجة لذلك.

4- والليبراليون هم الفئة التي تقف إلى جانب الحقيقة، سواء جاءت هذه الحقيقة من فم محمد، أو موسى، أو عيسى، أو بوذا. وهم الفئة التي لا يهمها من القائل، ولا تلتفت إلى مصدر القول، بقدر ما يهمها القول نفسه، ومحتواه، ومعناه، ومطابقته للحقيقة. ولا يهمها المنبر التي تقف عليه الحقيقة، سواء كان الأزهر، أم الجامعة العبرية، أم البيت الأبيض، أو الجامع الأموي، بقدر ما يهمها ماذا يقال على هذا المنبر.

5- والليبراليون هم أول من تحدى تهديد الإرهابيين لهم بالقتل في الفتوى المعروفة الصادرة في ابريل الماضي 2006، ورفضوا التوقف عن الكتابة والمناداة بالحرية والديمقراطية. بل هم تلاوموا، وعتبوا، وانتقدوا من استجاب لفتاوى الإرهاب، وتوقف عن الكتابة، واعتزل الحياة الفكرية.

6- والليبراليون هم الفئة التي ينتقد بعضها بعضا دون حساب للمقامات، أو المكانة العلمية، أو الدينية. فعندما أخطأ جمال البنا الداعية الإسلامي الليبرالي في وصف مجرمي الحادي عشر من سبتمبر في جريدة "المصري اليوم" من أنهم "أشجع الشجعان" تصدى له الليبراليون الآخرون، وتلاوموا عليه، وانتقدوه نقدا مريرا على هذا الموقف المشين من داعية ديني ليبرالي.

7- والليبراليون هم أول من ثار وانتفض على فتاوى الإرهاب، التي كان يصدرها كل يوم فقهاء الإرهاب، وقاموا بكتابة ما عرف بـ "البيان الأممي"، وجمعوا له أكثر من ثلاثة آلاف توقيع من مثقفي العرب، في مختلف أنحاء العالم، وقدموه للأمم المتحدة ومجلس الأمن، وكان من نتيجة ذلك أن توقفت فتاوى الإرهاب، وتشكلت محكمة دولية لمحاكمة جرائم الإرهاب. ونال الليبراليون على هذه الخطوة سيولا طافحة من الشتائم والاتهامات الرخيصة، ومنهم من جرى تكفيره وإخراجه من الملة على الملأ. ولكنهم مضوا في سبيلهم، لا يخشون عنتريات القبائل، ولا اتهامات الحمائل.

8- والليبراليون هم من تصدى بوضوح وجرأة، لحملة "فقهاء الحجاب" على فرنسا، وقرار الرئيس شيراك بمنع الحجاب في المدارس الفرنسية. وهم أول من هاجم بقسوة انشغال العرب هذا الانشغال اليومي المبتذل والسفيه بحجاب المرأة، ونقاب المرأة، وطمث المرأة، وشعر المرأة، ولمس المرأة، وحرية المرأة، وكل ما يمت إلى المرأة بصلة، بحيث أطلق الخميني في الماضي على هؤلاء الفقهاء لقب: "فقهاء الحيض". وبحيث أصبح العرب هذه الأيام مرضى بوباء، يطلقون عليه "وباء المرأة"، ويستعيذون بالشيطان منه. وهو دليل على أن العرب هذه الأيام، مرضى الجنس، وسجناء الجنس، وعبدة أصنام الجنس ايضا. وهم المحرومون من الجنس. ومستعدون لارتكاب أفظع الجرائم للتمتع بالجنس (انظر ماذا فعل الشباب المصري أخيرا في شوارع القاهرة فيما عرف بمظاهرات الجنس، رغم أنهم أكثر الشباب العربي حرية وانفتاحا). لذا، فهم يشتمون الغرب، ويلعنونه على تنعمه بهذا الجنس، واستمتاعه به. وتلك واحدة من أسباب كراهية العرب للغرب، وحسدهم له، وحقدهم عليه.

9- والليبراليون هم أشجع من تصدى لقرار "حزب اللـه" في حربه مع اسرائيل. واعتبروا أن حرب تموز/يوليو 2006 هي حرب بين "حزب اللـه" واسرائيل فقط، وليست حربا بين لبنان واسرائيل. فلبنان لم يتخذ قرار هذه الحرب، وإنما الذي اتخذه هو "حزب اللـه" وحده. والشيعة كلهم في لبنان، لم يتخذوا قرار هذه الحرب، وإنما الذي اتخذه هم شيعة "حزب اللـه" فقط. وهم الذين حاربوا إسرائيل وحدهم، دون مشاركة الشيعة الآخرين، أو اللبنانيين الآخرين. وسلاح "حزب اللـه" وحده، هو الذي قاتل إسرائيل، وليس سلاح الجيش اللبناني. ومناطق "حزب اللـه" هي وحدها التي ضربتها إسرائيل بالدرجة الأولى، وليست باقي المناطق اللبنانية الأخرى. وحرب "حزب اللـه" مع إسرائيل، كانت محصورة وفي المنطقة التي يوجد فيها "حزب اللـه" وحلفاؤه فقط.

10- وأخيرا، فإن الليبراليين الآن، هم الجهة التي يفرغ فيها بعض العرب الآن، أحقادهم، وعقدهم، ويطبقون عليهم نظريتهم في المؤامرة. ولولا وجود الليبراليين على الساحة العربية الآن، لما وجد هؤلاء مجالا لتفريغ كل ذلك، ولفقعوا، أو طقوا كبتا، وغيظا ، وكمدا. والليبراليون هم الذين تحملوا البذاءة، والسفاهة، وقلة أدب الغوغاء، وتلقوا التهديدات بشتى أنواعها، نتيجة لمواقفهم الشجاعة والجريئة، فما تراجعوا، ولا استكانوا، ولا تهاونوا ، ولا استسلموا، ولا هادنوا. وما زالوا على الطريق سائرين، وعلى تحقيق أهدافهم مصممين. وتظل لحمائمهم وجهة نظرها، ولصقورهم وجهة النظر الأخرى، وتلك هي واحدة من ديمقراطية فكرهم، وتعددية آرائهم.

حصاة في البركة الآسنة

هذا كشف سريع وموجز لحساب الليبراليين الجدد للسنوات الماضية. وهو كشف يشير إلى مدى تأثير الليبراليين الجدد في الحياة العربية السياسية والفكرية. وهذا الحساب متواضع إلى الآن في رأينا، ولكن حركة تنوير الليبراليين ستستمر على المستوى الفردي وعلى المستوى الجمعي. وكل ما كتبه الليبراليون سوف يبقى جزءا من الثقافة السياسية والفكرية العربية لهذا الجيل وللأجيال القادمة. إن حركة الليبراليين في عموم الخليج العربي، ومصر، وسوريا، والعراق، والأردن، وفلسطين، والمغرب العربي، سوف تظل تقرع أبواب الحداثة والديمقراطية، ولن تيأس أو تستكين، إلى أن يتم فتح الأبواب على مصراعيها، ولو بعد ألف عام.

الليبراليون ليسوا حجارة معبد، ولكنهم سنابل قمح!

يرمي البعض الليبراليين بأنهم متقلبون في الرأي، وأنهم لا يثبتون على رأي معين. وأن ثوابتهم دائما متغيرة. وفي هذا الصحة كل الصحة، والخطأ كل الخطأ!

فالليبراليون يثبتون على ثوابت معينة، لا ينحازون عنها ولا يتخلون، ولا ينكرونها، ولا يتنازلون.

والليبراليون يتغيرون تجاه أحداث معينة ومواقف معينة. ولهم الحق كل الحق في ذلك، وإلا كانوا كحجارة المعابد. بل إن حجارة المعابد تتغير هي الأخرى، وتتآكل، ويختلف لونها بفعل العوامل الجوية، وتقلبات الزمان.

ثوابت الليبراليين

فالليبراليون، لا يغيرون ثوابتهم الأساسية الخاصة في الحرية

والديمقراطية والعلمانية، وعزل رجال الدين عن السياسة، وحرية المرأة ومساواتها مساواة تامة غير منقوصة بالرجل. ومساواة سائر المواطنين بالحقوق والواجبات بغض النظر عن لونهم، أو دينهم، أو عرقهم، أو لغتهم، انتفاء كلمة "أقليات" من قاموس المواطنة في العالم العربي، كما هي منتفية من قاموس المجتمعات التقدمية.
والليبراليون كذلك، لا يغيرون ثوابتهم فيما يتعلق بحل الصراع العربي - الإسرائيلي حلا سلميا بالمفاوضات، وعدم اللجوء إلى القوة العسكرية، بعد هذه السنوات الطويلة التي مرت على القضية الفلسطينية، والتي حولتها بفعل عوامل تاريخية وسياسية كثيرة، من قضية عسكرية ميدانية، إلى قضية سياسية تفاوضية.
والليبراليون، لا يغيرون ثوابتهم من الحداثة، والأخذ بها بسلبياتها وإيجابياتها، بحلاوتها ومرارتها، بعسلها وعلقمها. ويؤكدون، أن الحداثة لا تتجزأ، فإما أن نأخذها كلها، أو نتركها كلها. وعلى الأمم التي تأخذ بها، أن تستعد لجراحها وبلسمها، وأفراحها وأتراحها.

متغيرات الليبراليين

من ناحية أخرى، نرى الليبراليين متغيرين، وخاصة فيما يتعلق بالمواقف السياسية المحضة. وهم يتغيرون لأن السياسة ذاتها متغيرة. ولكن تغيرهم هذا ليس بمقدار 180 درجة، بقدر ما هو مراجعات وليس تراجعات لمواقفهم السابقة. والمثال الأبرز على ذلك موقفهم من الحالة العراقية، وهي الحالة التي انهمك فيها الليبراليون انهماكا تاما، وكان لهم فيها موقف مميز.
لقد أيد الليبراليون عملية تحرير العراق، واعتبروا أن ما تم في العراق تحريرا، وليس احتلالا، رغم هيجان وتشنج وهلع القوميين والدينيين من

هذا الموقف.

فالتحرير كما يفهمه الليبراليون، هو استدعاء ممثلي شعب ما لقوى خارجية، لكي تخلصهم من كارثة سياسية، لا يستطيعون التخلص منها بأنفسهم. في حين أن الاحتلال، هو غزو قوات أجنبية لبلد ما، دون رغبة أو إرادة أهلـه.

والتحرير، هو وجود قوات أجنبية في بلد ما لفترة محدودة، لمعالجة حالة سياسية معينة، تخرج بعدها القوات الأجنبية من ذاك البلد متى أرادت الشرعية ذلك في ذاك البلد، ومتى قررت. والاحتلال هو وجود قوات أجنبية لا تخرج إلا بعد أن يقرر المحتل نفسه متى تخرج.

والتحرير، هو أن تقوم القوات المحررة بالعمل العسكري والمدني أيضا. كبناء الجسور والطرقات والمدارس والمستشفيات وغيرها من البنى التحتية. والاحتلال هو عمل عسكري مجرد، يقع من أجل هدف عسكري معين، أو هدف سياسي أو اقتصادي.

والتحرير، هو أن يقوم الطرف المحرر بالمساعدة في بناء حياة سياسية ديمقراطية قويمة بدلا من الطغيان والاستبداد الذي كان قائما. والاحتلال هو أن يقوم الطرف المحتل باعتقال زعماء الحركات الوطنية، وسجنهم، وتعليق المشانق لهم، وكتم الحريات، ومطاردة المعارضة.

وهناك قائمة طويلة من المفارقات والاختلافات بين التحرير والاحتلال. ولكن يبدو أن "كله عند العرب صابون"، كما يقولون. فلا فرق بين الاحتلال والتحرير، سيما وأن العرب لم يعرفوا قط التحرير بقوات أجنبية، بقدر ما عرفوا الاحتلال بهذه القوات.

سنابل القمح

في الفترة الأخيرة، لم يكن الليبراليون حجارة معابد، بقدر ما كانوا

سنابل قمح. فقد ظن البعض أنهم أمام سياسة الإدارة الأمريكية عبارة عن حجارة معابد، صماء لا تتحرك، ولا تتغير. ولكنهم فوجئوا بنقد الليبراليين للإدارة الأمريكية نقدا مريرا، ليس لأنها حررت العراق، ولكن لأنها تهاونت في تحرير العراق، مما سمح للعرب السنة والعرب الشيعة حصرا، لتصفية حسابات تاريخية دينية وطائفية بينهما، كانت مدفونة منذ مئات السنين، ومطمورة، بفعل عصر الجليد الديكتاتوري، الذي امتد من العهد العثماني مرورا بالعهد الملكي، وانتهاء بالعهد البعثي الجمهوري. وعندما بزغت شمس الحرية صباح التاسع من نيسان 2003، وبدأت حرارة الجو السياسي الديمقراطي ترتفع، وجدت فيروسات الشقاق والصراع المذهبي العربي السني والشيعي حصرا المناخ المناسب للتكاثر والانتشار. وفعلت فعلها الآن، بأن تحولت مناطق العرب السنة والعرب الشيعة حصرا إلى غابات وحشية، تقتل بالسيف والمثقاب الكهربائي. أما بقية الشعب العراقي من كرد وسريان وآشوريين وتركمان وصابئة وكلدان ومسيحيين، فلم تكن معنية بهذا الجزء من العراق (الوسط والجنوب) الذي تحول إلى غابة وحوش، يأكل بعضها بعضا كل يوم.

انتقد الليبراليون السياسة الأمريكية في العراق، لأنها تهاونت مع سوريا وإيران، ولم تضبط الحدود، وتمنع دخول الإرهابيين، والأسلحة، والأموال إلى العراق. وهذا هو مصدر الإرهاب، ومنبعه.

وانتقد الليبراليون السياسية الأمريكية، لأنها جاهلة بتفاصيل الواقع العربي، وأنها تتعامل مع العالم العربي من خلال تقارير سفرائها وجواسيسها في المنطقة فقط، ولا تقرأ ما يكتبه مثقفو العالم العربي وما يقولونه. وأصغر قسم في وزارة الخارجية الأمريكية هو قسم الترجمة والاستطلاع ودراسات الشرق الأوسط. وفي وزارة الخارجية الأمريكية فريق للتعمية، يطلق عليه "العروبيون Arabists" (إقرا كتاب "العروبيون:

النخبة الأمريكية الرومانسية" لروبرت كوبلاند)· ولذلك لا تتعامل الإدارة الأمريكية على مر العصور بشؤون الشرق الأوسط إلا من خلال شخصيات غير مخلصة، وغير مثقفة، وغير مؤهلة، وهذا هو سبب نكستها وفشلها في العالم العربي·

وتظل أمريكا ليست معبدا، ويظل الليبراليون ليسوا حجارة هذا المعبد·

*أعترف بأن كثيرا من القراء سوف يرفعون حواجب أعينهم، إما تعجبا وإما استنكارا لهذا العنوان ولهذه المعالجة. سيما وأن معظم رجال الدين وفئة أخرى من الليبراليين الرومانسيين الطفوليين قد رسخوا في جانب من الرأي العام العربي، فكرة العداء المطلق بين الدين وبين العلمانية، منذ فجر القرن العشرين وحتى اليوم.
ولكن لا بد لهذا الاستنكار والتعجب من أن يزول، بعد أن يعرفوا أن لا قراءة واحدة وحيدة للقرآن. وأن القرآن الكريم "حمال أوجه" كما قال عمر بن الخطاب، ومن بعده عثمان بن عفان، ومجموعة من الصحابة. وحتى الآن لم يفهم جمهور المسلمين المعنى الحقيقي من عبارة "القرآن حمال أوجه"، وهو معنى إطلاق الحرية الكاملة لقراءة القرآن الكريم بالطريقة التي يختارها القراء، من أهل العرفان والبرهان، وعدم الحجر أو الاقتصار على طريقة واحدة، وتوجه واحد. ولكن ما زال المسلمون من عرب وعجم، يحاربون ويقتلون كل من يقرأ القرآن الكريم على وجه غير وجه السلطة الدينية الحاكمة، في بلد من البلدان.
وفي العصر لحديث، أفرز القرآن الكريم قراءات رئيسة عدة. وما نعني بالقراءات هنا ليست القراءات الترتيلية السبع المعروفة، ولكنها القراءات

التفسيرية والقراءات العلمية الموضوعية. فالقرآن نص تاريخي أمامنا. وهو كأي نص تاريخي، خاضع لتنوع القراءات العلمية الموضوعية لأي نص تاريخي، لا تقف مع النص ولا تقف ضده، وإنما تقف منه موقف الحياد، حيث تدخل عليه، مجردة من أي سلاح أو فكرة مسبقة أو نية مبيتة، صادقة كانت أو كاذبة. فهناك عدة قراءات للقرآن، منها القراءة المعرفية التي تقوم على سيسيولوجيا الأديان وعلم الأديان المقارن. وهناك القراءة الأيديولوجية التي تدخل إلى القرآن الكريم إما إلى صفه تماما، أو ضده تماما. وهناك القراءة الحرفية للقرآن، والتي لا تخرج عن المعنى الحرفي للكلمة، وهي القراءة التي يأخذ بها كثير من السلفيين وكثير من الملحدين أيضا، دون ملاحظة خصوصية اللغة القرآنية، ودون الاطلاع على القاموس اللغوي القرآني. وهذه القراءة الحرفية للقرآن، لا يمكن إلا أن تقود إلى الإرهاب الذي نراه اليوم. وهناك القراءة التأويلية الاعتزالية. وهناك القراءة التأويلية الفلسفية، التي تستعين بتاريخ الفلسفة الإنسانية لفهم القرآن الكريم. وهناك القراءة المقاصدية للشيخين التونسيين الطاهر عاشور والشاطبي والمغربي علال الفاسي، الذين كتبوا ثلاثتهم كتبا عن مقاصد الشريعة، والعبرة عندهم بمقاصد الشريعة، هي أن "درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة". وهناك القراءة التاريخية، وهي قراءة القرآن الكريم ضمن قيم العصر والسياق الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي جاء فيه، وخاصة فيما يتعلق بالتشريع الاجتماعي والاقتصادي. وهناك القراءة الصوفية الرمزية. وكل هذه القراءات لا تنطبق على القرآن الكريم فقط، ولكنها تنطبق على كل كتب الأديان السماوية والأرضية كذلك، بل وينطبق جزء منها على التاريخ البشري أيضا، القديم والحديث.

فهل العلمانية الإسلامية من المعاني التي تضمنها القرآن الكريم؟

الإسلام أقرب الأديان إلى العلمانية!

"العلمانية الإسلامية" مصطلح جديد نطرحه اليوم. وهو مصطلح مفزع ومقلق لكثير من رجال الدين، وبعض الليبراليين الرومانسيين. وهو مصطلح جديد في التسمية، ولكنه قديم في التطبيق. نرى أن العمل به الآن، هو الدواء الناجع والواقعي والعملي، للرد على بعض رجال الدين، من اتهام العلمانية والعلمانيين العرب بالإلحاد. ومن ذلك قول راشد الغنوشي، من أن "الطرح العلماني لعلاقة الدين بالدولة، متأثر بالنمط الغربي، ولا سيما في صورته الفرنسية والشيوعية المتطرفة" (مبادئ الحكم والسلطة في الإسلام) وقول الشيخ يوسف القرضاوي، من أن "العلمانية إلحاد" كما في كتابه (الإسلام والعلمانية وجها لوجه).

فإذا أردنا الإصلاح العلماني السياسي على وجه الخصوص، فليكن من داخل الإسلام وليس من خارجه. والعلمانية هي طريق الإصلاح. ولا طريق لعلمانية تطبيقية غير طريق "العلمانية الإسلامية" التي نجح في تطبيقها أول الحكام العلمانيين العرب المسلمين، وهو الخليفة معاوية بن أبي سفيان.

مصطلح "العلمانية الإسلامية" إذن جديد، ولكنه كان واقعا موجودا ومطبقا جزئيا وفي الناحية المالية، منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان الذي فصل جزئيا وخاصة في مجال المال العام بين الدين والسياسة، وقال قولته المشهورة: "لقد كان عمر بن الخطاب يمنع أهله عن بيت المال إرضاء لله، وأنا أعطي أهلي من بيت المال إرضاء لله". وذلك تعليقا على الذين احتجوا وثاروا عليه لتخصيصه بني أمية بأكبر حجم من أموال بيت مال المسلمين، وتخصيص المناصب العليا من ولاة وغيرهم لهم. وهو يعتبر بذلك أول حاكم عربي في التاريخ العربي الإسلامي أقر وطبق سياسة "المحاصصة" المعروفة اليوم في العالم العربي بين الطوائف الدينية والعرقية، والتي ورثها عثمان عن أبي بكر في "حادثة السقيفة" يوم قال له الأنصار

"منكم أمير ومنا أمير" فقال لهم "منا الأمراء، ومنكم الوزراء" ، وأردف: "إن الخليفة يجب أن يكون قرشيا، إذ إن الناس لا يطيعون إلا هذا الحي من العرب". وأبو بكر ورث نظام "المحاصصة" من الرسول، الذي وزع غنائم "غزوة حنين" على أهله وعشيرته، وحرم منها الأنصار، حتى ظن الأنصار أنه لقي أهله، فنسي ما عداهم. وجعل من قبيلة قريش صاحبة الحق الوحيدة في الخلافة، عندما قال (الأئمة منا أهل البيت)، وكذلك (الأئمة من قريش). والخليفة عثمان هو الذي كان يعذب المعارضة وينفيها، كما فعل بأبي ذر الغفاري، حين نفاه إلى صحراء "الربذة" شرق المدينة المنورة، لأنه كان يقول له "اتق الـلـه". والخليفة عثمان، هو أول من ابتدأ بإقامة العقوبات السياسية، فاصلا الدين عن الدولة. كما يعتبر الخليفة عثمان الحاكم العربي الأول، الذي صنع تاج بني أمية الملكي، ووضعه على رأس معاوية بن أبي سفيان، الذي أكمل علمانية الخليفة عثمان، وزاد عليها، وفصل كلية بين الدين والسياسة. وهزم السياسي معاوية رجل الدين التقي علي بن أبي طالب، بمؤازرة أحزاب سياسية، كانت على الساحة، منها حزب عمرو بن العاص، وحزب السيدة عائشة زوج الرسول وغيرهما. وسار على هذا النهج سائر خلفاء بني أمية، ما عدا عمر بن عبد العزيز. وتبعهم خلفاء بني العباس، وكان الأمويون في الأندلس على المنهاج نفسه. وهذه الأحداث كلها من "غزوة حنين" إلى انتهاء الدولة العباسية، كلها دالة على فصل الدين عن الدولة، وهي علامة من علامات العلمانية. وكذلك كان ملوك الطوائف، بعد سقوط الدولة العباسية 1517، وبدء الاستعمار العثماني للعالم العربي على هذا المنوال . وكانت الخلافة الإسلامية العثمانية قد فصلت الدين عن السياسة بأكثر مما فعلت الخلافتان الأموية والعباسية بحيث أن كمال أتاتورك عندما أسقط هذه الخلافة الإسلامية عام 1924، لم يجد شيئا جديا يسقطه، فقام ببعض

التصرفات الشكلية الحمقاء، منها منع الحج لعدة سنوات، وتحويل بعض المساجد إلى متاحف، وخلع اللباس التقليدي.. الخ، مما دفع بعض المفكرين كمحمد أركون إلى إطلاق صفة "الشيوعية" على حركة أتاتورك، وليس "العلمانية"، والتي كانت من أهم الأسباب في تعثر تقدم العلمانية في العالم العربي، إذ يتخذ رجال الدين من المثال الأتاتوركي العلماني - وهو قياس فاسد- وسيلة لتنير الشارع العربي من العلمانية كما قلنا في كتابنا (الفكر العربي في القرن العشرين، الجزء الثاني، 2001). ويعجبني في هذا المقام قول راوية الحديث الأشهر أبي هريرة، وكأنه كان يضع أسس العلمانية الإسلامية، دون أن يدري فيقول: " أصلي وراء علي فالصلاة وراء علي أفضل، وآكل على مائدة معاوية فالأكل على مائدة معاوية أدسم، وأجلس على الربوة والجلوس على الربوة أسلم". والمسلمون الذين بايعوا معاوية على الخلافة، بعد استشهاد علي بن أبي طالب، كانوا يضعون بذلك أسس العلمانية الإسلامية، عندما قالوا لمعاوية كشرط لمبايعته: "نحن للأمة في أمور دينها، وأنت للأمة في أمور دنياها". وهذا التقسيم للعمل بين الخلفاء والفقهاء، بذرة علمانية إسلامية واضحة، يا ليتنا اليوم نسمعها من فقهائنا، الذين غرقوا في السياسة، وأغرقوا معهم الشارع العربي.

ومعاوية نفسه أسس مقدمات العلمانية الإسلامية، عندما توقف عن الصلاة بالناس، وسمى إماما يصلي بالناس بدلا منه. وهذا التقسيم بين إمامة الدولة وإمامة الصلاة، كان مشروع دولة علمانية، لم يكتمل بعد. ومن المعروف أن الخلفاء بعد معاوية، توقفوا عن الصلاة بالناس كذلك .

مستقبل العلمانية في العالم العربي

الطريق إلى العلمانية في العالم العربي مستقبلا، لن تكون إلا من

داخل الإسلام وليس من خارجه، بعد أن فشلت جهود الكثيرين من اليساريين من قوميين وماركسيين وشيوعيين وحتى إسلاميين (علي عبد الرازق، وخالد محمد خالد، وجمال البنا مثالا) في المناداة بالعلمانية بعيدا عن الإسلام، وبعد أن نجحت دعوة الكثير من رجال الدين في مهاجمة العلمانية من داخل الإسلام، واتهام العلمانيين بالإلحاد، وأنهم خوارج هذا الزمان. وبذا، يكون الرد الشافي على رجال الدين المتعصبين، هو الدعوة للعلمانية من داخل الإسلام، وليس من خارجه كما أخطأنا في الماضي، وضاعت جهودنا سدى على مدار أكثر من نصف قرن مضى. وهذا يستدعي العلم الوافي، وهو السلاح الذي تسلح به الشيخ علي عبد الرازق، والشيخ خالد محمد خالد، والشيخ خليل عبد الكريم، ويتسلح به الآن الشيخ التنويري جمال البنا، وأحمد صبحي منصور، الذي يقول بأن "أقرب دين إلى العلمانية هو الإسلام".

ولعل تجديد الدعوة إلى "العلمانية الإسلامية" سوف يقود إلى دعوة "العلمانية الدينية"، التي ستضم غير المسلمين وغير العرب إلى صفوفها، كما سوف تترجم معنى الدعوة إلى "الليبرالية الجديدة"، من داخل التراث وليس من خارجه، بعد أن تعاد قراءة التراث قراءة علمية نقدية منصفة، وبتم فرز الواقعي الصالح من الخيالي الأسطوري.

أين علمانية الإسلام؟

فهل هناك الآن علمانية داخل الإسلام، تصلح لنا في هذا الزمان، ويمكن تطبيقها على واقعنا المعاصر، لكي نحييها، وننفض الكلس الذي تراكم عليها منذ1400سنة، ونرى مدى صلاحيتها للاتباع والتطبيق، في عصرنا الحديث؟ وهل الإسلام دين علماني في منشئه وقيامه وانتشاره؟

إن المظاهر الإسلامية التالية، دليل على أن في داخل الإسلام علمانية، نحن نبحث عنها الآن، ومنها:

1- إن حرية الاعتقاد التي منحها الإسلام القرآني، وليس إسلام الفقهاء للإنسان، هي جزء من حرية الاعتقاد التي تنادي بها العلمانية التي تتيح هي الأخرى للإنسان أن يكون حرا فيما يعتقد. والقرآن فضل الإيمان على الكفر، ولكنه لم يجبر على الإيمان : {فإن تكفروا فإن اللـه غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر} (الزمر: 7) وقوله: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن اللـه يهدي من يشاء} (القصص: 56). والمشيئة هنا ليست لله، ولكنها للإنسان الذي يشاء أن يهتدي، أو لا يشاء. وإن اللـه يهدي من العباد من يشاء أن يهتدي. وتلك أيضا من حرية الاعتقاد والإيمان التي هي جزء من الحرية، والتي تنادي بها العلمانية. وهنا نرى، أن الفعل والمشيئة الإنسانية تسبق الفعل الإلهي الذي يأتي في النهاية لكي يبارك هذا الفعل وهذه المشيئة. {والذين اهتدوا زادهم هدى} (محمد: 17). وهو دليل على أن الفعل الإنساني سابق على الفعل الإلهي، وأن الفعل الإلهي يأتي لاحقا ليبارك الفعل الإنساني. وسنرى بالمقابل أن كثيرا من الملحدين يردون على الآيات بآيات تبدو لأول قراءة حرفية لها بأنها آيات متناقضة مع الآيات التي أوردناها . ولكن يبقى الطابع العام لمبادئ الحرية التي نادى بها الإسلام القرآني، هو طابع الحرية العامة في المعتقد. وما مثال حروب الردة الذي يسوقه البعض للتدليل على عدم الحرية بالمعتقد إلا من "القياس الفاسد"، كما يقول الفلاسفة. فحروب الردة، لم تكن ردة على الإسلام بقدر ما كانت ردة عن دفع الزكاة، وهو أمر مالي بحت، كان يمكن معالجته بالطرق السلمية، لولا حاجة الدولة الإسلامية الفتية الملحة لأموال الزكاة، في ذلك الوقت.

2- وإرادة التغيير، لا بد أن تكون في البداية من داخل الإنسان {إن الـلـه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} (الرعد: 11). لقد كان الخطأ المعرفي الأكبر للشيخ علي عبد الرازق أنه أنكر في كتابه (الإسلام وأصول الحكم، 1925) كلية علاقة السياسة بالإسلام، كم أنكر أن الخلافة من الإسلام. وقد رد عليه في حينها الشيخ محمد رشيد رضا، بقوله في مقاله بجريدة (اللواء المصري، 1925/6/8): "إن أول ما يقال في وصف هذا الكتاب لا في الرد عليه، أنه هدم لحكم الإسلام وشرعه من أساسه، وتفريق لجماعته، وإباحة مطلقة لعصيان الـلـه ورسوله في جميع الأحكام الشرعية الدنيوية، من أحكام شخصية، وسياسية، ومدنية، وجنائية، وتجهيل للمسلمين كافة". وهي التعليقات نفسها التي تقال اليوم عن الكتب العلمانية تقريبا. وردد ما قاله علي عبد الرازق، مفكرون معاصرون أيضا، مثل المفكر التونسي ووزير التعليم السابق محمد الشرفي، في كتابه (الالتباس التاريخي في إشكالية الإسلام والحرية، 2002). فعلي عبد الرازق في كتابه، لا يدعو إلى فصل الدين عن الدولة فقط، بل ينكر صلة الدين بالسياسة أصلا وربما كان هذا المنحى الذي ذهب إليه، قد أضعف حجته أمام خصومه ومنتقديه. والمنطق الشارح السليم، هو الاعتراف بعلاقة الإسلام بالسياسة، وبأن الإسلام كان دولة قبل أن يكون دينا مكتملا، والدليل قيام "دولة الرسول بالمدينة" قبل اكتمال الدين، وفي الأيام الأولى للهجرة. ولكن هذه الدولة، وما تبعها من دولة الراشدين (أبو بكر وعمر) لا تصلح لنا الآن، لتغير الضرورة التاريخية. وما يصلح لنا هو دولة قريبة من دولة معاوية العلمانية، ولكن بطابع حديث.

* لماذا يقف رجال المؤسسة الدينية الإسلامية هذا الموقف المعادي والشديد من العلمانية؟
سؤال يطرح كل يوم، ولكنا لا نجد جوابا عقلانيا واقعيا وشافيا عنه.
هناك أسباب عدة لعداء رجال الدين للعلمانية، تشمل فيما تشمل تفسيرهم الشخصي أيضا لمعاني العلمانية، منها:
1 أن للمؤسسة الدينية الإسلامية منافع اجتماعية ومالية وسياسية كثيرة من ربط الدين بالدولة. وهم من خلال ربطهم بين الدين والسياسة، يهدفون إلى أن يصبحوا جزءا من السلطة، ومن المنافع التي تنتفع بها. وقد تحقق لهم ذلك، خاصة في بعض دول الخليج. وهذا الوضع كان موجودا في الدولة العربية الكلاسيكية. فكما أن الإمبراطور البيزنطي استولى على المسيحية، واستخدمها لصالحه، ولمنافعه الخاصة، واستمرار ملكه، فكذلك فعل الخليفة في الإسلام، بدءا بمعاوية بن أبي سفيان وإلى آخر سلطان عثماني، وإلى يومنا هذا. وكما نشأت في المسيحية مؤسسة قدسية، تحالفت مع السلطة، وعملت لدعمها وشاركتها المال والهلال، كذلك كان الأمر في الإسلام، منذ بداية العصر الأموي وحتى الآن. ذلك أن فصل الدين

عن الدولة، يشكل تهديدا كبيرا للمؤسسة الدينية، كما يشكل تهديدا للمؤسسة السياسية التقليدية كذلك. فهذا الفصل بين الدين والسياسة - فيما لو حصلت المعجزة وتم - سوف يحيل رجال المؤسسة الدينية إلى حملة مباخر، كما هو الحال مع رجال الكنيسة. وبما أنه لا مال لديهم كمال الكنيسة، ولا ذهب لديهم كذهب الكنيسة، فسيتحولون إلى مواطنين عاديين، يعانون من الفقر المادي، والإهمال الاجتماعي، وفقدان الوجاهة الاجتماعية، والحرمان من السطوة الثقافية، والسطوة السياسية التي يتمتعون بها الآن، وبعد أن كانوا وما زالوا من أولي الأمر، جنبا إلى جنب مع الأمراء، كما قال ابن تيمية من أن "العلماء والأمراء هم أولو الأمر". وهكذا أصبح فرسان الحلبة السياسية في العالم العربي والإسلامي الآن، إما من العسكر، وإما من رجال الدين. وأصبح مصدرا تخريج الكوادر السياسية في العالم العربي والإسلامي هما: الكليات العسكرية، والمعاهد الدينية.

2 يقول بعض رجال المؤسسة الدينية، من أن الذين تولوا ترجمة كلمة العلمانية من المعجم الأوروبي إلى العربية، لم يفهموا من كلمتي (الدين) و (العلم) ما يفهمه الغربي المسيحي منها. وأن الدين والعلم في مفهوم الإنسان الغربي متضادان متعارضان. فما يكون علميا لا يكون دينيا، وما يكون دينيا لا يكون علميا. فالعلم والعقل يقعان في مقابل الدين والعلمانية والعقلانية، في الصف المضاد للدين. ويقولون، إن هذا غير صحيح، وإن العلم والدين لا يتضادان، ولا يختلفان. (يوسف القرضاوي، الإسلام والعلمانية وجها لوجه، ص 84، 94).

ولكن ما تفسير الشواهد التالية في العالم الغربي المسيحي، وفي

العالم الإسلامي، التي تشير كلها إلى تعارض فقه رجال الدين مع العلم، وتضاد العلم لهذا الفقه. وأن كل واحد منهما يسعى لإلغاء الآخر، أو الأقل إيقافه عند حد معين:

- لماذا ما زالت بعض المدارس والمعاهد العلمية، التي تشرف عليها الكنيسة حتى الآن في الغرب، وخاصة في أمريكا، تمنع تدريس سائر النظريات العلمية التي فيها رائحة معارضة لتعاليم الدين، وخاصة نظرية التطور لداروين، إذا كان لا تعارض ولا تضاد هناك بين فقه رجال الدين والعلم ؟

- لماذا ما زال كثير من المدارس في أنحاء مختلفة من العالم العربي تحرم وتمنع تدريس الكثير من النظريات العلمية، التي تعارض نظرية الخلق والتطور التي جاءت في القرآن، وعلى رأسها نظرية التطور والنشوء لدارون، ونظريات فرويد في علم النفس، إذا كان لا تعارض ولا تضاد هناك بين فقه رجال الدين والعلم؟

ونحن نقول هنا، فقه رجال الدين، وليس الدين نفسه، لأن رجال الدين بفقههم وتفسيراتهم وتحليلاتهم وبإسقاطاتهم الشخصية الخاصة، هم الذين في النهاية يحرمون ويحللون الكثير من المحرمات، ويحرمون الكثير من المحللات.

ومن هنا فقد ضج المسلمون في الآونة الأخيرة وضاقوا بهذا كله. وتاهوا التيه الأكبر في خضم التفاسير المتضاربة للقرآن. مما اضطر بعض الدعاة والأشياخ المتنورين من أبناء العصر والشهود عليه، إلى الدعوة إلى وقف تفسير القرآن، وإلغاء سائر التفاسير السابقة للقرآن، والاكتفاء فقط بتلاوته كما أمرنا النبي عليه السلام. وكان أحد كبار المطالبين بهذا الشيخ التنويري جمال البنا، شقيق حسن البنا، مؤسس حركة الإخوان المسلمين وزعيمها. وطالب جمال البنا، وهو قيادي وناشط بارز في جماعة الإخوان

المسلمين الحالية، بإلغاء تفاسير القرآن التي تقوم بها المؤسسة الدينية، وتطرح من خلالها أفكارها ووجهة نظرها قائلا : إن الإسلام ليس بحاجة إلى من يدافع عنه الآن. فالقرآن باق وثابت، و اللـه تكفل بحفظه. كما أننا نرفض تفسير القرآن، لأن تفاسير القرآن أساءت إليه إساءة بالغة، وحجبت دوره وجوهره من أن يصل إلى النفوس. وطرحت المؤسسات الدينية فكرها وإيمانها هي، في علم القرآن. والرسول عليه السلام كان يدعو الناس إلى تلاوة القرآن، وليس إلى تفسيره. والقرآن أفسدوه بالتفسير. ("القدس العربي"، 3/2 / 2000 ).

لنعد الآن إلى الفرق بين تفسير رجال المؤسسة الدينية للعلم والظواهر العلمية، والذين هاجموا العلمانية من خلاله، وناصبوها العداء، وتفسير المفكرين الإسلاميين المستنيرين. ولنضرب لذلك مثلا واضحا وجليا. ولكن قبل ذلك، دعونا نسأل السؤال التالي:

- هل هناك أحد من القراء من يشك في صدق وإخلاص إسلام عباس محمود العقاد الكاتب الإسلامي، صاحب العبقريات الإسلامية المشهورة، والمدافع العقلاني عن الدين الإسلامي، بأسلحة العصر الحديث؟

لا أحد بالطبع.

فلنر الآن، كيف نظر رجال الدين من داخل المؤسسة الدينية إلى نظرية التطور والنشوء مثلا التي جاء بها دارون، والمحرم تدريسها في معظم مدارس العالم العربي، وخاصة دول الخليج، وكيف نظر إليها مفكرو الدين المستنيرون من خارج المؤسسة الدينية. وقس عى ذلك مسائل كثيرة من هذا النوع.

لنقرأ رأي الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر مثلا، في نظرية دارون عن التطور والنشوء:

"إنها نظرية تعارض صريح القرآن. هذا هو مبدأ الإسلام في قبول الآراء والتسليم بالنظريات وهو منهج رجال الدين الذين هم كما قلت رجال الدين حقا. ونظرية التطور نظرية لم يرفضها رجال الدين تزمتا أو تعسفا وإنما رفضوها على أساس من الدين ونصوصه الواضحة، وعلى أساس مما قرره الدين في رفض ما لم يدل عليه برهان أو يشهد بصحته حس أو تجربة" (محمود شلتوت، مجموعة الفتاوى، ص402) . ثم أورد الآية التي تقول: {ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون} (الأنعام: 148).

وهكذا تم الحكم على دارون بالكفر، ما دام أنه عارض قول الله، وجاء بسبب غير سبب الله.

كان ذلك موقف أحد رجال المؤسسة الدينية - المعبر عن رأي رسمي للمؤسسة الدينية - من نظرية علمية، يقال إن صاحبها لم يأت ببرهان عليها "ولا يشهد بصحة نظريته حس أو تجربة" كما قال الشيخ شلتوت الآن. في حين أن الثابت علميا وتاريخيا، أن تشارلز دارون (1809-1882) لم يخرج بنظريته تلك، إلا بعد تجربة طويلة عملية وعلمية. وذلك عندما ركب سفينة، وراح في رحلة بحرية لمدة خمس سنوات (1831-1836) زار خلالها جزر الرأس الأخضر وسواحل أمريكا الجنوبية، وجمع معلومات كثيرة عن حيواناتها، ونباتاتها، وطبيعتها الجيولوجية التي كانت أساسا لنظريته في تطور الأجناس الحية.

لنقرأ الآن رأي مفكر من مفكري الإسلام المستنيرين، وهو عباس العقاد الذي يقول بشجاعة، وهو في ظننا رد ضمني على موقف رجال المؤسسة الدينية من نظرية دارون نفسها، ومنع تدريس هذه النظرية في أنحاء كثيرة من العالم العربي :

"لقد هوجم مذهب دارون كثيرا باسم الدين. وجعله بعضهم مرادفا

للإلحاد والمادية. ومع هذا لم يكن دارون ملحدا. ولم يزعم دارون أن ثبوت التطور ينفي وجود الله. ولم يقل قط إن التطور يفسر خلق الحياة. وقال دارون إنه لم يكن ملحدا بالمعنى الذي يفهم فيه الإلحاد على أنه إنكار لوجود الله. وكتب في العام 1873 يقول: إن استحالة تصور هذا الكون العظيم العجيب قائما على مجرد المصادفة، هو أقوى البراهين على وجود الله". (عقائد المفكرين في القرن العشرين، ص44، 54).

ويضيف العقاد على ذلك بقوله، موجها خطابه إلى رجال المؤسسة الدينية مباشرة، ناقدا ضمنيا تعسفهم وتزمتهم الذي أنكره ونفاه الشيخ شلتوت في بداية قوله، فيقول:

"لا نريد من المتدينين أن يقرروا صحة مذهب التطور على علاته، ولكننا نريد تأكيد أنهم يقررون أن تصديقه لا يناقض التصديق بوجود الله، ولا يلزم عندهم أن يكفر بالدين كل من قال بتسلسل الأنواع الحية من أصل واحد، أو بضعة أصول". (المصدر نفسه، ص46).

ومن خلال هذا الموقف النموذج لرجال المؤسسة الدينية من النظريات العلمية الحديثة، ومن إنجازات العلم المختلفة، وموقف مفكري الإسلام المستنيرين كذلك، يتضح لنا ما نعنيه بسلطة رجال الدين على العلم، ومن أن فتاواهم الشخصية تصبح مع الزمن جزءا من الشريعة السماوية في الوعي الشعبي، وفي الذاكرة الشعبية الجمعية. ومع الزمن تصبح قانونا سماويا مغلقا، لا أحد يستطيع أن يناقش أو يجادل فيه.

والسؤال مرة أخرى:

- لماذا ما زالت النظرية الماركسية في الاقتصاد والاجتماع والتاريخ، محرمة وممنوعة من التدريس في المعاهد والكليات والمدارس، في بعض الدول العربية والإسلامية المتشددة دينيا، وخاصة في دول الخليج، علما بأن هذه النظرية تشكل علميا نصف التاريخ الحديث الاقتصادي

والاجتماعي والسياسي للبشرية، إذا كان لا تعارض ولا تضاد هناك بين فقه رجال الدين والعلم ؟

- لماذا ما زالت هناك قواعد وأنظمة تعليمية، تمنع وتحرم تدريس علم الجنس في المدارس العربية، وكذلك في المعاهد العالية، في كثير من الدول العربية. وتمنع دخول كتب التشريح العلمية، التي تتناول موضوع علم الجنس وآلياته، وتنظر إلى الكتاب الذين يكتبون كتابات علمية في الجنس نظرة غضب وسخط واشمئزاز، (المثال الواضح على ذلك ما يكتبه خالد منتصر، وما تكتبه نوال السعداوي، والذي يتعرض للمصادرة دائما في معظم أنحاء العالم العربي، وخاصة دول الخليج) إذا كان لا تعارض ولا تضاد هناك بين فقه رجال الدين والعلم؟

- لماذا يحول بين المرأة المسلمة في العالم العربي وبين أن تتخصص في الأمراض التناسلية للرجال، ما دامت هذه رغبتها، إذا كان لا تعارض ولا تضاد هناك بين فقه رجال الدين والعلم؟

لقد مررت أنا شخصيا بتجربة عشتها في أمريكا تأملت فيها كثيرا. فقد شكوت في يوم ما من حرقة عند التبول. كما لاحظت أن هناك بعض الدم المختلط بالبول عند التبول. وذهبت في اليوم التالي لعيادة يعمل فيها عدة أطباء من الرجال والنساء، وكتبت تقريرا أوليا عن حالتي ومم أشكو كما هي العادة. وانتظرت قليلا ثم دخلت عيادة دخلت علي فيها طبيبة من أصل آسيوي على ما يبدو، وسألتني عن حالي وشرحت لها بارتباك وتلعثم. ولاحظت ارتباكي، فهونت علي. وكدت أن أرفض أن تكشف علي امرأة. ولكنها عادت لتقول لي إنه العلم. ولا حياء ولا عيب في العلم. وفحصتني بدقة وترو وثقة من الأمام ومن الخلف. ووصفت لي العلاج. وخرجت من العيادة وأنا مرتبك، أردد عليها كلمات الأسف. ولكنها قالت بأدب جم، أن لا داعي للأسف، وإنها هنا لتؤدي عملها

كطبيبة فقط وليس كامرأة. وعندما فكرت في الأمر في الطريق إلى بيتي، تذكرت بأن ما شعرت به من ارتباك كان بفضل التربية التي تلقيتها في العالم العربي، وليس مرده إلى أي شيء آخر.

فهل يمكن أن يحدث ذلك في المجتمعات العربية والإسلامية، إذا كان لا تعارض ولا تضاد هناك بين فقه رجال الدين والعلم؟

- لماذا ما زال تطبيق المناهج العلمية الغربية المختلفة على التاريخ الإسلامي وشواهده وآلياته، وكيفية كتابته، ومصادره، وإخضاع هذا التاريخ للحفر والتفكيك والتأويل والتفسير، في ضوء النظريات الابستمولوجية (المعرفية) الحديثة، غير مرغوب فيه وممنوع. ويطرد أصحاب هذه المناهج من زمرة العلماء وعصبة الحكماء، كما تم طرد الشيخ علي عبد الرازق من الأزهر، وسحبت منه شهادته العلمية بعد صدور كتابه "الإسلام وأصول الحكم". وطورد طه حسين وحرم من منصبه في الجامعة، بعد صدور كتابه "في الشعر الجاهلي". وطورد خالد محمد خالد بعد صدور كتابه (من هنا نبدأ) . وطورد صادق العظم بعد كتابه (نقد العقل الديني) . وحورب محمد أركون بعد كتبه المختلفة ومنها (قضايا في نقد الفكر الديني). وسجن المفكر الكويتي أحمد البغدادي (وكان أول سجين فكر في تاريخ الكويت) نتيجة لقراءته الجديدة لتاريخ الإسلام. ونفي نصر أبو زيد من مصر بسبب كتابه (مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن) وكتبه الأخرى المثيرة للجدل، وغيرهم. وشنق محمود طه في السودان. وهؤلاء جميعا من المفكرين الذين عوقبوا عقوبات مختلفة على ما كتبوه ونشروه من إخضاع التاريخ الإسلامي والنصوص الإسلامية لنظريات المعرفة الحديثة. فلماذا يصادر ما يكتبون، وينكر عليهم ما يفكرون به من علم، وهم ليسوا بسوقة أو غوغاء، ولا هم ممن يجلسون مجالس

الأمراء، إذا كان لا تعارض ولا تضاد هناك، بين فقه رجال الدين والعلم؟

- وأخيرا، لماذا تم قتل عشرات المفكرين والفلاسفة في تاريخ الدولة العربية الإسلامية الكلاسيكية، وحرق كتبهم، وتشريدهم كأبي ذر الغفاري في زمن عثمان بن عفان، والمعتزلة في العصرين الأموي والعباسي، وابن رشد في العصر الأموي الأندلسي، والحلاج في العصر العباسي، وابن المقفع وأبي حنيفة في عهد الخليفة المنصور، والسهروردي في العصر الأيوبي، وغيرهم ممن يطول ذكرهم، إذا كان لا تعارض ولا تضاد هناك بين فقه رجال الدين والعلم؟

- ومن سجن وعاقب كل هؤلاء العلماء والمفكرين، جميعا في الماضي والحاضر، غير رجال المؤسسة الدينية الذين أصدروا فتاواهم بسجن هؤلاء ومعاقبتهم، خوفا على فقههم ومحافظة على سلطتهم الاجتماعية والمالية والسياسية؟

وما زال هناك الكثير من الكلام عن أسباب عداء رجال الدين للعلمانية.

ü هناك سؤال يطرح باستمرار يقول:
هل فشلت العلمانية في العالم العربي بسبب مقاومة الإسلاميين لها، أم بسبب ضعف الخطاب العلماني؟
والجواب على ذلك، أنه يتردد قول في العالم العربي، بأن العلمانية العربية قد فشلت، والصحيح هو عكس ذلك. فمنذ مطلع القرن العشرين، وبفضل الاستعمار البريطاني والفرنسي للمنطقة العربية، تم تبني العلمانية الاقتصادية أو "البنوك الربوية"، وفصل الدين عن الاقتصاد. وكذلك بفضل هذين الاستعمارين، تم تبني العلمانية في السياسة. فوضعت الدساتير وأجريت الانتخابات التشريعية والانتخابات الرئاسية، بدل "البيعة" بين (أهل الحل والعقد) كما هو في الموروث السياسي الديني. وتم جزئيا فصل الدين عن الدولة. ولم يبق من الدين في الدولة والدستور غير نص (دين الدولة الإسلام) وهو نص غبي لا يعني شيئا في التطبيق. وقد وضع ترضية للمؤسسات الدينية ورجال الدين والأحزاب الدينية في العالم العربي. فالدولة العربية القائمة الآن لا علاقة لها بالإسلام، أو بدولة الراشدين، كما أنها ليست دولة دينية. والفرق بينها وبين الدولة الدينية بعيد جدا كما سنرى بعد قليل. والدولة

العربية القائمة لا تطبق من الإسلام غير طقوسه المعتادة في المناسبات الدينية. ورغم أن هناك نصا في الدساتير العربية يقول بأن (الشريعة الإسلامية هي مصدر القوانين) إلا أن هذه الشريعة كثيرا ما تفشل في حل المشاكل المستجدة.

ومن هنا نرى، أن مشروع النخبة العلمانية العربية لم يفشل، ولكنه كان بطيء التقدم بسبب التركة الدينية الثقيلة والقاسية والمسيطرة، وبسبب هيمنة رجال الدين على الحياة الاجتماعية العربية، وبسبب المؤسسة السياسية العثمانية المنغلقة والمعادية للغرب، والتي حكمت العالم العربي أربعة قرون (1517-1918). ورغم هذا، فقد حقق العالم العربي منذ الاستقلال حتى اليوم (طيلة نصف قرن) الكثير من مبادئ العلمانية، وبقي الكثير أيضا لكي يتم تطبيقه. وأعتقد، بأن ما حصل بالعراق في التاسع من نيسان/ابريل 2003، كان نقطة تحول كبرى، تجاه المزيد من العلمانية في العالم العربي. وهو أبعد أثرا من حملة نابليون على مصر 1798، التي أدخلت عصر الأنوار والعلمانية إلى العالم العربي من البوابة المصرية، وعلى يد الحاكم العلماني الأكبر محمد علي باشا، الذي كان حاكما علمانيا دما ولحما. فمن علامات العلمانية في الدولة العربية الكلاسيكية في القرن التاسع عشر ما قام به محمد علي باشا من تصفية حركة علماء الدين، والقضاء على الأساس الاقتصادي - الاجتماعي لقوة علماء الدين السياسية، وذلك بتجريدهم من التزاماتهم، ومصادرة ثرواتهم، وتدمير الطوائف الحرفية والتجارية التي كانوا أربابا لها. وبذلك انتهت مرحلة في تاريخ مصر، كان فيها رجال الدين هم قادة المجتمع، وأكثر فئات المجتمع ثراء وقد "استحسن المصريون ما فعله محمد علي باشا بهؤلاء العلماء ، لأن هؤلاء العلماء كانوا في وضع اجتماعي واقتصادي متميز، بل ومتناقض مع باقي أفراد المجتمع" (رفعت السعيد،

التيار الديني والتيار العلماني في الفكر المصري الحديث، ص60). ولو امتد الزمان بمحمد علي باشا، وساعده الحظ لحول العالم العربي إلى دولة علمانية على غرار أوروبا الآن.

العلمانية والدين

يردد بعض رجال الدين، من أن العلمانية ضد الدين. ولكن العلمانية ليست ضد الدين، بل إنها تحمي الدين بإبعاده عن السياسة. أي إبعاد المقدس عن المدنس. وإبعاد الثابت (الدين) عن المتحول (السياسة). وعدم الخلط بين السماوي والأرضي، والواقعي والميتافيزيقي.. الخ. والإسلام بحد ذاته غير مغلق في وجه العلمنة. ولكي يتوصل المسلمون إلى أبواب العلمنة، فإن عليهم أن يتخلصوا من الإكراهات والقيود النفسية واللغوية والأيديولوجية التي تضغط عليهم. وعليهم أن يعيدوا الصلة مع الحقيقة التاريخية للفكر الإسلامي في القرون الهجرية الأربعة الأولى. فقد كان الجاحظ ( ت 869م) على سبيل المثال، من كبار مفكري الثقافة العربية الإسلامية الكلاسيكية، الذين تبنوا موضوع الإنسية العربية التي كانت جزءا كبيرا من العلمانية العربية الكلاسيكية. وهو الذي ألقى على الثقافة العربية أسئلة النقد التاريخي المحرجة، والتي لا يستطيع مسلمو اليوم أن يلمحوا بمدى ضرورتها وجدواها. فهو والمعتزلة طرحوا مشكلة "خلق القرآن" وهو موقف فريد تجاه ظاهرة الوحي، كما قال محمد أركون (العلمنة والدين، ص42، 60) ومن هنا، يمكن القول بأن العلمنة كانت موجودة في الفكر العربي الكلاسيكي في أيام المأمون والمعتزلة، أكثر مما هي موجودة في الفكر العربي المعاصر الآن.
ورجال الدين، يريدون عدم فصل الدين عن الدولة، ولذلك يرمون

العلمانيين بالإلحاد. والمؤسسة الدينية الإسلامية، لها منافع كثيرة من ربط الدين بالدولة. وهم من خلال ذلك، يهدفون إلى أن يصبحوا جزءا من السلطة، ومن المنافع التي تنتفع بها. وهذا وضع كان موجودا في الدولة العربية الكلاسيكية. فكما أن الإمبراطور البيزنطي استولى على المسيحية واستخدمها لصالحه، فكذلك فعل الخليفة في الإسلام، بدءا بمعاوية بن أبي سفيان وإلى آخر سلطان عثماني. وكما نشأت في المسيحية مؤسسة قدسية، تحالفت مع السلطة، وعملت لدعمها، كذلك كان الأمر في الإسلام منذ بداية العصر الأموي وحتى الآن. وفصل الدين عن الدولة، سوف يحيل رجال المؤسسة الدينية إلى حملة مباخر، كما هو الحال مع رجال الكنيسة. وبما أنه لا مال لديهم كمال الكنيسة، ولا ذهب لديهم كذهب الكنيسة، فسيتحولون إلى مواطنين عاديين، يعانون من الفقر المادي، وفقدان الوجاهة الاجتماعية، والحرمان من السطوة الثقافية والسطوة السياسية اللتين يتمتعون بهما الآن، بعد أن كانوا وما زالوا من أولي الأمر، جنبا إلى جنب مع الأمراء، كما قال ابن تيمية من أن "العلماء والأمراء هم أولو الأمر". وهكذا أصبح فرسان الحلبة السياسية في العالم العربي والإسلامي الآن، إما من العسكر وإما من رجال الدين. وأصبح مصدرا تخريج الكوادر السياسية في العالم العربي والإسلامي هما: الكليات العسكرية، والمعاهد الدينية.

العلمانية والتراث

لقد حاول أهل السنة والأشاعرة في العصرين الأموي والعباسي، تحاشي ربط الدين بالدولة، رغم إغراءات المعتزلة لهم. وإليهم يرجع الفضل في ظهور بوادر العلمانية. كذلك، فقد ساهم بعض أئمة المعتزلة "المحافظين" في فصل الدين عن الدولة، من خلال قول الحسن البصري

(642-728م) ، وهو الفقيه والإمام والمفكر المعتزل، لجملة أصحابه من المعتزلة الذين أقحموا الدين في ميدان السياسة، لكي يعارضوا الحكم الأموي: "تلك دماء طهر الله منها أسيافنا فلا نلطخ بها ألسنتنا". وهو يعني، أن رجال الدين يجب أن لا يخلطوا بين الدين والسياسة، وأن يبتعدوا عن السياسة، ويفصلوا بين الضدين والمتناقضين: الدين ذو الثوابت والسياسة (الدولة) ذات المتغيرات. أي؛ بين المنجس والمقدس. بعد أن تطهرت سيوفهم من دماء السياسة، ولا يريدون أن تتلطخ وتتسخ ألسنتهم بها. كما يعني، أن هناك ثوابت في الدين، ولكن لا ثوابت في السياسة، فكيف يجتمع النقيضان والضدان؟

وكما كان المعتزلة هم أول من شكل الأحزاب السياسية الدينية في التاريخ العربي الإسلامي، فقد كانوا في الوقت نفسه سببا في ظهور العلمانية، ووضع أسسها من حيث أنهم أخذوا بالجانب العقلي في الدين والسياسة، وكانوا أسرع الفرق للاستفادة من الفلسفة اليونانية، وصبغها بالصبغة الإسلامية، والاستعانة بها في نظرياتهم وجدلهم. وهم الذين أسسوا علم الكلام في الإسلام. وذلك يرجع إلى أن زعماء المعتزلة أسلموا ورؤوسهم مملوءة بأديانهم القديمة، التي تسلحت من قبل بالفلسفة اليونانية، والمنطق اليوناني.

لماذا تتعارض الدولة الدينية مع الدولة العلمانية؟

تتعارض الدولة الدينية مع الدولة العلمانية، لأن هناك فروقا كثيرة بين الدولة الدينية والعلمانية، منها:

أن الصفة الأساسية للدولة الدينية هو طابعها الكلياني. والدولة الدينية تحكم بموجب نصوص مقدسة مغلقة، لا تغيير فيها. وتجسد الدولة هنا الذات الإلهية. وفي الدولة الدينية، الأولوية هنا للنص

المقدس. ورجال الدين في هذه الدولة، شركاء في الحكم والمسؤولية. وشرعية هذه الدولة تكمن في الدين. والمواطن في هذه الدولة، ليس ملزما بإقامة الشعائر الدينية فقط، ولكن بإطاعة "القوانين الإلهية"، التي تكرس سلطة السلطان أيضا. والدولة الدينية تحقر من شأن الحياة. وتصفها الكتب المقدسة دائما بأنها "الحياة الدنيا" أي الحياة السفلى الدنية. وتعلي من مقام الحياة الآخرة، التي هي في الغيب والمجهول. والدولة الدينية، تتعلق بالتراث تعلقا أعمى، دون السماح بتفكيكه ودراسته في ضوء المناهج العلمية الحديثة. والدولة الدينية، ذات غرائز بعيدة عن طبيعة الدين وروحه. وغرائز الدولة الدينية، هي: الغموض المطلق، الستار الحديدي، التركيز على ضعف الإنسان، واعتبار المفكرين أعداء الدين، وعدم قبول النصيحة، وعدم قبول المعارضة، والإيمان بالوحدانية المطلقة في كافة المجالات، والجمود العريق، والقسوة المتوحشة. والدولة الدينية - كما وصفها خالد محمد خالد في كتابه "من هنا نبدأ"، 1950- لا تثق بالذكاء الإنساني ولا تأنس له. ولا مؤسسات دستورية في هذه الدولة، غير مؤسسة السلطان وحده. فالكل في واحد. ولا تستطيع هذه الدولة أن تتعايش مع العلمانية بجناحيها : الديمقراطية والعقلانية. فيما لو علمنا أن وحدانية الفكر والطريق، هي الأساس فيها.

أما الدولة المدنية، فالصفة الأساسية لها هو طابعها العقلي. والدولة المدنية تحكم بموجب نصوص موضوعة مفتوحة متغيرة. وتجسد الدولة هنا علاقة بشرية. والأولوية هنا للعقل المجنح. ولا مكان لرجال المؤسسة الدينية في هذه الدولة، حيث لا يفيدون شيئا. وشرعية هذه الدولة، تكمن في القانون. والمواطن في هذه الدولة، له الحرية في العبادة ما شاء إلى ذلك سبيلا. وهو غير ملزم باتباع مذهب معين في السياسة أو الاجتماع. والدولة المدنية، تعلي من شأن الحياة، وتطلب من الناس

العمل والتقدم فيها. ولا تعير انتباها كثيرا للحياة الآخـرة الغائبـة والمجهولـة، وتطلـب مـن النـاس ألا يشـغلوا بالهم بها. والدولة المدنية، لا تتخذ موقفا رافضا من التراث ولا تتعلق به تماما، وتسمح بدراسته في ضوء المنـاهج الحديثة، كما قال فؤاد زكريا في دراسته (النهضة العربية والنهضة الأوروبيـة، ص28). والدولـة المدنيـة، لا غرائـز لها غير غريزة تعميق مفاهيم الحرية. وإن كان ثمة غرائز مقابلة للدولة المدنيـة، فهـذه الغرائـز هـي: الوضـوح، الأبواب المفتوحـة، التركيـز عـلى عظمـة الإنسـان، اعتبـار المفكـرين زيـت سراج الأمـة، قبـول المعارضـة، الإيمـان بالتعددية والاختلاف والمغايرة، الحركة المستمرة إلى الأمام، الرحمة بالنشء. وتثق هذه الدولة بالـذكاء الإنسـاني، وتعتبره من أسس بناء المجتمع. وهذه الدولـة هي دولـة المؤسسات الدستورية. فالكل في الكل. وتستطيع هـذه الدولة أن تتعايش مع الدين، فيما إذا الدين لم يقحم نفسه في السياسة. فالدين في الغرب العلماني ما زال هناك، وبيوت العبادة ما زالت قائمة.

* رسمت صورة أوروبا في التاريخ الإسلامي القديم وفي الآداب الإسلامية، من خلال جغرافيين عربا ومسلمين بارزين، ظهروا في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، ومن أهمهم: اليعقوبي، وابن خرداذبه، والمسعودي، وابن فضلان، وابن حوقل، والإصطخري، وابن سعيد الغرناطي، وغيرهم. ولا شك، بأن هؤلاء جميعا قدموا صورة شبه حقيقية لما كان عليه الغرب في تلك المرحلة. كما أن الجغرافي الإدريسي- في القرن الثاني عشر- قدم لنا مشاهداته الخاصة في كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، وكان صادقا فيما كتب، على عكس ما قرأنا من مشاهدات المتعصبين الدينيين، عندما زاروا الغرب للعلم والسياحة، كسيد قطب وغيره. وكانت جملة الصور التي قدمها هؤلاء الجغرافيون والمؤرخون عن أوروبا، بعيدة عن التعصب الديني والسياسي، وتنحصر- في أوروبا الشرقية أكثر منها في أوروبا الغربية. وكانت هذه الصور تقول لنا، إن الشعوب الأوروبية كانت شعوبا بربرية منحطة، غارقة بالجهل والعدوان. فلم يعتر هؤلاء المؤرخين والجغرافيين الحقد والكيد الذي اعترى المتشددين الدينيين، الذين زاروا الغرب وشاهدوه في النصف الثاني من القرن العشرين. وكانت تحكم نظرتهم وانطباعاتهم عن الغرب أيديولوجيا

ضيقة معينة. ولم يعرف العرب والمسلمون أوروبا على حقيقتها، إلا بعد حملة نابليون على مصر في نهاية القرن الثامن عشر، رغم أن الصليبيين قد وصلوا إلى العالم العربي في القرن الحادي عشر، وظلوا في الشرق العربي والإسلامي، طيلة ربع قرن من الزمان (1075-1200). فنقرأ أن أسامة بن المنقذ (1095-1188) مؤرخ الحملات الصليبية، لم يذكر عن الصليبيين غير جهلهم وشجاعتهم. وكان موقف هذه المؤرخ من أوروبا عموما هو "موقف اللامبالاة مثله مثل سابقيه من المؤرخين. وبذا لم تحث الحملات الصليبية على العالم الإسلامي المسلمين على التعرف على هؤلاء الفرنجة"، الذين جاءوا غزاة وحكموا بيت المقدس فترة طويلة من الزمان. وربما كان مرد هذا كله إلى أن الصليبيين لم يأتوا بمظاهر حضارية ومدنية تقتضي الالتفات من المؤرخين والمفكرين العرب والمسلمين، كما تم ذلك بعد سبعة قرون، عندما قاد نابليون حملته على مصر في العام 1798 إضافة لذلك، فإن نظرة التعالي العصبية القبلية والشعور بالتفوق الذاتي، حالت دون العرب - قبل حملة نابليون - ودون الالتفات إلى ما كان يجري في أوروبا من تغيرات وتقدم حضاري.

دور العثمانيين

وعندما خضعت البلاد العربية للعثمانيين (1517-1918) كان العثمانيون قد أنشأوا ستارا حديديا ثقافيا سميكا بينهم وبين أوروبا. وكانت هناك قطيعة ثقافية وسياسية محكمة مع الغرب، بسبب التعالي والتفوق الذاتي والعسكري العثماني، كما كان الحال عند العرب سابقا. ولم تبدأ هذه القطيعة بالانحلال والانفراج إلا في النصف الثاني من القرن السابع عشر، حيث تم إرسال أول بعثة عثمانية إلى أوروبا في العام 1664 ولم تفتتح الدولة العثمانية سفارات رسمية لها في أوروبا، إلا في

أيام السلطان سليم الثالث (1789-1807). ولم يكن هناك تواصل ثقافي قبل ذلك، إلا في حدود تبادل الخبرات العسكرية، وفتح المدارس العسكرية بخبرات أوروبية وفرنسية بالدرجة الأولى، وترجمة بعض الكتب الأجنبية في علم العسكرتاريا. وعندها أدرك العثمانيون أنهم يعيشون منذ قرون طويلة في ظلام دامس وجهل فاضح، كما جاء على لسان محمد جلبي، السفير الذي أوفده السلطان أحمد الثالث إلى باريس في العام 1720 للتعرف على المؤسسات الإدارية الفرنسية وكيفية عملها وما يمكن الاستفادة منه في الإمبراطورية العثمانية، اكتشف جلبي بأن الفرق بين العثمانيين والغرب هو الفرق بين الليل والنهار.

وعندما قامت الثورة الفرنسية في العام 1789 ، لم يعر العثمانيون انتباها لهذه الثورة، وكأن الأمر لا يعنيهم، من قريب أو من بعيد. وليس لدينا ما يشير إلى أن العثمانيين كانوا على إدراك تام بمغزى التبديل الذي حصل في فرنسا. بل على العكس من ذلك فقد اعتبرت الثورة الفرنسية شأنا داخليا بحتا. وأما العرب الذين كانوا تحت الاحتلال العثماني، فلم يعرفوا شيئا عما جرى في فرنسا من أحداث ثورية. ولم يدرك العرب، أن هناك ثورة في فرنسا إلا عندما جاءت حملة نابليون إلى مصر. والدليل أن عبد الرحمن الجبرتي كان قد كتب كتابه "عجائب الآثار" قبل مجيء الحملة الفرنسية، في العام 1798 ولم يشر في هذا الكتاب، لا من قريب ولا من بعيد إلى أوروبا، أو إلى ما يحصل في فرنسا من تغيرات تاريخية وسياسية واجتماعية. وهو دليل واضح وقاطع على أن القطيعة الثقافية مع الغرب، ظلت قائمة تسعة قرون كاملة غير منقوصة، من نهاية القرن التاسع الميلادي إلى نهاية القرن الثامن عشر. ومن هنا نستطيع القول، بأن حملة نابليون على مصر هي التي فتحت عيون العرب على الغرب. وكانت أول اتصال حضاري حقيقي وواقعي مشهود بين العرب والغرب،

وبين الإسلام والغرب، بعد تسعة قرون من الغياب والقطيعة الثقافية والحضارية. ولولا مجيء نابليون إلى مصر، لكان تاريخ المنطقة العربية قد تغير إلى شكل آخر كلية يمكن قراءته من خلال عدة سيناريوهات للواقع المضادCounter factual . ويؤيد هذا الرأي عدة مفكرين عرب معاصرين، ومنهم طه حسين، الذي يعتبر حملة نابليون ليست بداية لغزو، ولكنها بداية لنهضة على مصر، كما يعتبرها "حملة مباركة". وأن مدافع نابليون هي التي أيقظت مصر من سباتها العثماني، ووضعت حدا لقرون العرب الوسطى. فكانت إيذانا بالنهضة (طه حسين، ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية، ص166). وكذلك يقول المفكر المغربي علي أومليل. (الإصلاحية العربية والدولة الوطنية، ص137).

الغرب مرآة الشرق

وبعد حملة نابليون، أصبح الغرب مرآة للشرق. وبدأت القطيعة الثقافية بالانحلال والتلاشي. وكان أول عمل ثقافي بدأ بإزالة هذه القطيعة كتاب رفاعة الطهطاوي (1801-1873) "تخليص الأبريز في تلخيص باريز" الذي كتبه في العام 1831 بعد عودته من رحلته التعليمية في فرنسا، عندما شرع محمد علي باشا، في فتح أبواب مصر وعقلها في وجه الحضارة الغربية والفرنسية على وجه الخصوص. وأهمية وخطورة كتاب الطهطاوي هذا، لا تنبع من الوصف الذي جاء به لفرنسا، فيما يتعلق بمصانعها، وتنظيم إدارتها، وموظفيها، وجيشها، وجمال عمرانها، ونظافة مدنها، وعظم معاهدها، ورقي تعليمها، وارتفاع مستوى معيشة سكانها، وكل هذا قد تم في غفلة من العرب والمسلمين. فهذا كله قد سبقه إليه في العام 1721 المؤرخ التركي محمد جلبي أفندي، في كتابه "سفارتنامة"، الذي كتبه قبل أكثر من مائة عام من تاريخ كتاب

الطهطاوي. ولكن الشيء الجديد الذي جاء به الطهطاوي في كتابه، ولم يأت به التركي الجلبي، هو نفاذ الطهطاوي إلى حقيقة ما جاءت به الثورة الفرنسية، ومن قبلها الإصلاح الديني الأوروبي، وهو تألق عصر العقل، ومعنى الحداثة في النهضة الأوروبية، ورسوخ الفكر العلماني، وهو ما عبر عنه الطهطاوي - ربما من حيث يدري أو لا يدري - بقوله:

"إن الفرنسيين ينكرون خوارق الطبيعة، ويعتقدون أنه لا يمكن تخلف الأمور الطبيعية. وهم يعتقدون أن الأديان إنما جاءت لتدل الإنسان على فعل الخير. وأن عمارة البلاد، وتطرق الناس، وتقدمهم في الآداب، تسد مسد الأديان. وأن الممالك العامرة، توضع فيها الأمور السياسية كالأمور الشرعية. وأن الفرنسيين يقولون، إن عقول حكمائهم أعظم من عقول الأنبياء. وذلك قبح منهم" (المؤلفات الكاملة، ج2، ص79).

وهذا "المانيفستو" الفرنسي الخطير الذي نقله إلينا الطهطاوي عبر كتابه، والذي لم يلتفت إليه كثير من قراء كتابه في القرن التاسع عشر، كان أهم رسالة نقلها إلينا الطهطاوي من الغرب إلى الشرق. وهي تلخص ما انتهى إليه العقل الغربي مقابل الفكر العربي. وكان هذا "المانيفستو" الخطير، هو الذي برد وسن أسلحة الإسلاميين المتشددين، ممن فهموا معنى كلام الطهطاوي هذا، في نهايات القرن التاسع عشر، وخلال القرن العشرين للصدام بين الغرب والإسلام. واعتبروا أن فرنسا والغرب العلماني من ورائها هي "دار حرب" يجب أن تتحول إلى "دار إسلام". واعتبر المتدينون المتشددون من العرب والأتراك - وبتحريض من يهود الدولة العثمانية النافذين آنذاك - في القرن التاسع عشر، أن كل ما كان يأتي من الغرب لا يتعدى أن يكون زندقة، وسفالة فرنسية. في حين كان المسلمون في الهند أكثر مرونة وأعمق فهما لروح الحضارة الغربية، كما قرأنا فيما كتبه السيد أحمد خان، ومن بعده أمير علي.

ولعل ما قام به مفكرو عصر النهضة من العرب والمسلمين من المناداة بالديمقراطية والعدالة والمساواة والقضاء على الطغيان والاستبداد، وهو ما شاهدوه في أوروبا، جعلهم يعودون إلى بلادهم، ويبحثون في الدين الإسلامي عن بصيص لهذه الأفكار، لكي يقمشوا الإسلام بها، من خلال إيقاظ أفكار الشورى الإسلامية، والعدالة الإسلامية. وقد بلغ بهم الأمر في مناسبات كثيرة، أن خالفوا وصية عمر بن الخطاب، في عدم تحميل هذا الدين ما لا يحتمل. فحملوا الدين بما لا يحتمل، وبما لم يقل، حتى لا يقال عنهم إنهم ينادون بتطبيق أفكار غربية ومبادىء غربية بعيدة عن الدين، وغريبة عن تراث السلف، وما أخلف للخلف.

إن لقاء الإسلام والغرب، يكاد يكون مستحيلا في ظل اختلاف الأيديولوجيتين الإسلامية والغربية. وإن العقلاء وحدهم في الشرق والغرب، هم المناط بهم عدم حدوث صدام بين الغرب والإسلام. فلا شك في أن أيديولوجية الإسلام تختلف عن الأيديولوجية الغربية. وأن صراع الأيديولوجيات وصدامها بعضها مع بعض من ثوابت التاريخ، وحتمية التطور في رأي البعض في الشرق والغرب. ولكي ندرك الفرق بين أيديولوجية الإسلام وأيديولوجية الغرب وسبب الصراع المحتمل بينهما، ولا سيما في القرن الحادي والعشرين، دعونا نعقد المقارنة السريعة التالية بينهما:

1- يقول الإسلام بأن الإنسان مخلوق، ويقول الغرب بأن الإنسان خالق.

2- يقول الإسلام بأن اللـه هو سيد الكون المطاع، ويقول الغرب، بأن الإنسان هو سيد الكون المطاع.

3- يقول الإسلام بأن اللـه هو سيد الإنسان، ويقول الغرب بأن الإنسان سيد نفسه.

4- يربط الإسلام وجود الإنسان والعالم بسبب خارجي هو الله، في حين ينظر الفكر العلمي في الغرب إلى الإنسان والعالم لذاتهما، في معزل عن أي سبب خارجي.

5- يقر الإنسان في الإسلام غيب الله كعلم سري، بينما يلغي الغرب ما يسمى بالغيبيات والعلم بالغيب.

6- يعتبر الإسلام مجتمعا مثاليا أخلاقيا روحيا ، بينما يعتبر الغرب مجتمعا ماديا أخلاقيا مختلفا. وللعلم، فإن طه حسين ينكر في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) أن الحضارة الغربية حضارة مادية، وأن الحضارة الشرقية حضارة روحية. ويقول إذا كان الشرق كذلك، فهو ليس شرقنا، بل الشرق البعيد. وإذا كانت أوروبا مادية، فإنها تنطوي أيضا على روح عظيمة تدفع إلى التضحية في سبيل العلم.

7- يمتثل الإسلام إلى الشريعة، في حين يتمثل الغرب إلى الحكمة والعقل.

8- يعتبر الإسلام أن ثنائية الخير والشر من عند الله، بينما يعتبر الغرب أن ثنائية الخير والشر من صنع الإنسان.

فهل من أجل هذه الفروقات في العقائد، يمكن للصدام أن يتم بين الإسلام والغرب؟

ولم لا وقد كادت الحرب العالمية الثالثة أن تقع بين الغرب والاتحاد السوفياتي نتيجة لاختلاف العقائد، لولا أن سقط الاتحاد السوفياتي، وامحى عن خارطة العالم نتيجة لعوامل داخلية محضة.

وألم يقاتل المسلمون نصف العالم في القرنين السابع والثامن الميلادي، نتيجة لاختلاف العقائد؟

ü أحدث الاحتلال العثماني (1517-1918) للعالم العربي قطيعة واضحة بين الشرق والغرب وبين العرب والغـرب، وعزل الثقافة العربية، وحال بينها وبين التلاقح مع الثقافات الغربية· علما بأن هذه القطيعـة كانـت قائمـة قبـل مجيء العثمانيـين بخمسـة قـرون تقريبـا (مـن القـرن العـاشر إلى القـرن الخـامس عشر- الميلادي حيـث احتـل العثمانيون مصر والشام في 1517)· وفي رأينا أن القطيعة كان سببها الرئيسي ليس العثمانيين وحـدهم ، فـيما لـو علمنا أن سلاطين العثمانيين بدءا من سليم الثالث في القرن الثامن عشر، بدأوا بالاتصال بالغرب، ولكن المؤسسـة الدينية وقفت ضدهم، فخلعت بعض السـلاطين كعبـد العزيـز وغـيره، ممـن اتصـلوا بـالغرب، وفتحـوا النوافـذ الثقافية عليه· ولكن القطيعة مع الغرب بدأت بفعل المؤسسات الدينية المختلفة في نهايـة العصر- العبـاسي، وفي العصرين السـلجوقي والفـاطمي (878-1075)، وفي العهـد الأيـوبي (1169-1260) ، وفي عهـد المماليـك (1261-1517) وليس كما قال طه حسين، بأن القطيعة مع الغرب كان سـببها العثمانيـين فقـط، حيـث يشـير في كتابـه (مستقبل الثقافة في مصر، ص47) إلى: "لو أن اللـه عصمنا من الفتح العثماني، لاستمر اتصالنا بأوروبـا، وشـاركنا في

نهضتها". فالأتراك لم يؤخرونا بعد تقدمنا، ولكنهم جاءوا فوجدونا متأخرين أصلا ومقطوعين ومنعزلين عن العالم، فزادونا تأخرا، وقطيعة، وعزلا

صدمة الحضارة

يقول عبد الرحمن الجبرتي (1754-1822) المؤرخ المصري، بأن العرب لم يعوا الهوة السحيقة التي تفصل بين العرب والغرب، إلا بعد أن جاءت الحملة الفرنسية، وتعرفوا من خلالها على المنجزات العلمية الغربية، وعلى المنجزات الحضارية الأوروبية. وأنهم قبل هذه الحملة كانوا في سبات عميق، وكانوا ما زالوا يعتبرون أنفسهم "خير أمة أخرجت للناس" فوجدوا أمامهم أمة - فرنسا - أكثر منهم علما، وأبرز تقدما، وأكبر عقلا، وأغزر خيرا، فصدموا صدمة كبيرة.

ولكن الحملة الفرنسية على مصر عام 1798 ، كانت هي الحادي والمنادي الذي نفخ في رماد العرب آنذاك. وكانت نتيجة ذلك مناداة جيل النهضة العربية في القرن التاسع عشر بالديمقراطية، والعدالة، والمساواة، والأخذ بأسباب العلم. ولم تكن تلك المناداة إلا أثرا من آثار حملة نابليون على مصر في نهاية القرن الثامن عشر.

فلم تكن مسألة التقدم العلمي، والنهوض الحضاري، والديمقراطية السياسية، وأهمية التربية، ووجوب إشراك الشعب في الحكم، واردة لدى رفاعة الطهطاوي (1801-1873) إلا عندما سافر إلى باريس، وعاد بكتابيه "تخليص الأبريز في تلخيص باريز"، و "مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية".

ولم يناد علي مبارك (1824-1893) بالتقدم وبالتركيز على أهمية المعرفة، وبأن العدل والعلم أساسا التقدم، إلا بعد أن عرف أن العلم وحده

هو الذي نقل أوروبا من الوحشية إلى الآدمية. وكانت مظاهر هذه الآدمية ما تركته الحملة الفرنسية في مصر من آثار حضارية وعلمية.

ولعل أفكار الأفغاني في الديمقراطية والعدالة والمساواة وضرورة الأخذ بأسباب العلم والتربية الحديثة، وكذلك أفكار محمد عبده، وبطرس البستاني، وعبد الرحمن الكواكبي، وإبراهيم اليازجي، وعبد الله النديم، وشبلي شميل، وطاهر الجزائري، ولطفي السيد، وفرح أنطون، وجورجي زيدان، وفؤاد صروف، وغيرهم، من أعلام النهضة العربية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، كانت أثرا من آثار الحملة الفرنسية على مصر غير منكرين أن الجوهر الحقيقي للدين الإسلامي كان الدعوة إلى الأخذ بأسباب العلم للتقدم، ولكن هذه الدعوة ظلت دعوة على الورق في اطار فخم مذهب، إلا في عهود محدودة. ولم تر النور الجديد، إلا من خلال لقاء الشرق بالغرب، على أرض الواقع في نهاية القرن الثامن عشر، ومواجهة العلم للجهل وجها لوجه، وصوتا لصوت.

المواجهة المريرة

لعل هذه المواجهة العلمية المرة للجهل العربي المقدس، والتي كانت أكثر مرارة من المواجهة العسكرية، هي التي زعزعت كيان المؤسسة الدينية السلفية في مصر وجعلتها تقود حملة المقاومة الدينية المسلحة ضد نابليون وحملته، وتحطيم معظم منجزاته خلال السنوات الأربع التي قضاها في مصر. فنابليون لم يلحق ضررا بمصر يقتضي مقاومته هذه المقاومة العنيفة التي اضطرته للجلاء عن مصر بعد أربع سنوات، إلا بعد أن عبأت المؤسسة الدينية التقليدية السلفية الرأي العام المتدين والشارع المصري المتدين بطبعه ضد حملة نابليون، الذي جاء بأفكاره وعلومه المهددة للجهل العربي المقدس أكثر مما جاء بعسكره ومدافعه لزعزعة اليقينيات .

الدينية السلفية وزحزحة القناعات الدينية السلفية، ومواجهة العلم للخرافة والموروث الشعبي الأسطوري. والدليل على ذلك أن نابليون عندما جلا عن مصر ، ترك فيها وأعطاها أكثر مما أخذ منها بكثير. ولا يزال مما تركه فيها وأعطاها إياه باقيا إلى يومنا هذا، في الحياة المصرية الفكرية.

لماذا "عقدة الخواجة"؟

ينادي التيار الإسلامي دائما، وفي كل الظروف بعدم الانبهار بالحضارة الغربية، وعدم حبس النفس في "عقدة الخواجة". ويلاحظ بعض مفكري هذا التيار، أن مقاومة التغريب قد اشتدت في العالم العربي ردا على محاولات الغرب لتسويق ثقافته في العالم العربي. ويطالب هؤلاء بالجواب عن سؤال صعب وهو:

- كيف يمكن لنا نحن العرب، أن نصل بمجتمعاتنا إلى نظرة موضوعية، تنطلق من الثقة بالنفس، الانتساب إلى الذات والشعور بالندية بعيدا عن التشنج؟ وهو سؤال المفكر الفلسطيني الراحل أحمد الدجاني (التراث وتحديات العصر في الوطن العربي، ص329).

أما نحن فنسأل هنا: لماذا "عقدة الخواجة" هذه، وهذا الشعور الجارف بالتغريب، وهذا الانبهار بالغرب لم يتأت ولم يتلبس إلا بالعرب فقط، من دون باقي الأمم الشرقية الأخرى كاليابانيين، والكوريين، والصينيين، والهنود وغيرهم، من الذين نهلوا من الحضارة الغربية، والتقدم الغربي؟

- ولماذا لم ينجح الغرب في تسويق "الانبهار" به وبيعه، إلا على باب الدار العربية، دون بقية الدور الأخرى في الحي الشرقي؟

- ولماذا خص الله تعالى الأمة العربية بخاصية الشعور بالانبهار، وعقدها بـ "عقدة الخواجة"، دون غيرها من أمم الأرض، التي أخذت من الحضارة الأوروبية ما أفاد، وتركت ما زاد، وأخذت من

التقدم الغربي ما ناسب الحساب، وتركت ما جانب الصواب؟

- وهل حقا أن الغرب قد استهدف الأمة العربية دون غيرها من الأمم الأخرى - التي أخذت منه وأعطته وتلاقحت معه - في الترويج لحضارته، وبذل كل المحاولات المستمرة للانبهار بها؟

فكيف يمكن للجاهل أن ينبهر بأي أثر فني أو أدبي أو علمي، دون أن يكون على وعي وعلى معرفة بهذا الآثار المبهرة؟

فالانبهار أساسه العلم والمعرفة بالشيء. فهل نحن على درجة كبيرة من العلم والمعرفة لكي ننبهر هذا الانبهار العظيم بالغرب، الذي يصوره لنا التيار الفكري الإسلامي؟

وهل انبهارنا بالغرب هو انبهار الجهلة، أم انبهار العلماء؟

فإذا كان انبهار العلماء فنحن في حل منه، لأننا لسنا بالعلماء. وإن كان انبهار الجهلة - وهذا هو انبهارنا - فما فائدة الغرب من استعمال سائر الأدوات الاستعمارية الحديثة لإبهارنا، كما يقول دعاة التيار الإسلامي؟

في زعمي، أننا أقل أمم الشرق تأثرا بالحضارة الغربية. وفي زعمي، أننا أكثر أمم الشرق التي أخذت قشور الحضارة الغربية، وتركت الجذور. وفي زعمي، أننا غير منبهرين بهذه الحضارة قدر انبهار الأمم الشرقية الأخرى بها. وفي زعمي، أن الانبهار بالشيء يأتي على درجة من الكبر أو الصغر بقدر ثقافة المتلقي وفهمه ووعيه لما يتلقى والانبهار به. وفي زعمي، أن الفكر الغربي لم يؤثر على الفكر العربي إلا بقدر ما استطاع هذا الفكر العربي أن يستوعب. فكان حال الفكر العربي حال الطالب الذي لم يكمل المرحلة الاعدادية، وتم وضعه في أرقى جامعات الغرب لكي يتلقى تعليمه فيها. فهل يمكن له أن ينجح في هذه الجامعات؟ ومن هنا ندرك أن الخلل ليس في الأفكار الواردة أو "المستوردة "، كما يطلق عليها البعض،

ولكن الخلل في عدم ملاءمة التربة العربية لشروط النهضة، أو الحضارة الجديدة.
- فهل نحن جاهزون مثلا للديمقراطية، أو العلمانية، أو العولمة، أو أي معطى حضاري حديث؟

الحب العذري للغرب

يدعونا التيار الإسلامي إلى عدم الاستعانة بالغرب ومنجزاته الحضارية وبناء حضارتنا من الداخل. وهم يقولون: "يجب الحذر الشديد من استعارة المنجزات الحضارية والنماذج الأجنبية، والانطلاق دوما من فكرة بناء الحضارة من الداخل مع الاستنارة بتجارب الآخرين"، كما قال أحمد الدجاني في المصدر السابق. ورغم ما في هذا الكلام من تناقض واضح، وتلفيق بين، وهو على طريقة الحب العذري المثالي، أو الوصال من وراء حجاب، إلا أن أهم ما في هذا الكلام، هو إقرار وتأكيد مبدأ "عدم الاستعانة" بالغير وبمنجزاته الحضارية. وبمعنى آخر الدعوة في نهاية القرن العشرين إلى القطيعة الثقافية مع الغرب، وهي الدعوة التي سادت العالم العربي مدة تزيد على عشرة قرون منذ نهاية ولاية الخليفة عبد الله المأمون إلى الآن، والتي خلالها لم يكن لدى أحد أية مقدرة على استنطاق الأفكار، ذلك أن المجتمع العربي الإسلامي "لم يكن قد أسس نشاطه العقلي والاجتماعي على اهتمام أسمى"، كما يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي (مشكلة الثقافة، ص66).

وهذه الدعوة، لا تعني ظاهريا القطيعة الثقافية والحضارية مع الآخر، بقدر ما تعني باطنيا الدعوة إلى القطيعة مع النفس أيضا، أي مع تراثنا ذاته. ذلك أننا لا نعرف أنفسنا إلا من خلال الآخر. وأن ما عرفناه عن تراثنا وتاريخنا من خلال أعمال المستشرقين - من مخلصين وغير

مخلصين - يفوق أضعافا مضاعفة ما عرفناه عن طريق أنفسنا وباحثينا. كما أن الآخـر يعـرف عنـا، أكـثر بكثـير مما نعرف عنه. وفي هذا يقول غسان سـلامة : "إن المثـير للانتبـاه حقـا هـزال الاسـتغراب العـربي بالمقارنـة مـع الاستشراق الغربي. فدراسة المجتمع الغربي والفكر الغربي من قبل العرب والأصول المعرفية والقيمية للعلوم التي يتبناها الغرب، تكاد تكون معدومـة في العالـم العربي". (التراث وتحديات العصر في الوطن العربي، ص353).
فهل نحن في حياتنا العقلية، ما زلنا في مرحلة السحر التي تعالج الأمور بغير أسـبابها الطبيعيـة، وأننـا لـولا علـم الغرب وعلماؤه، لتعرت حياتنا الفكرية على حقيقتها، فإذا هي حياة لا تختلف كثيرا عن حياة الإنسان البدائي في بعض مراحلها الأولى؟ كما قال المفكر المصري زكي نجيب محمود، في كتابه (تجديد الفكر العربي، ص153).

فوضى الأنداد

ينادي التيار الإسلامي في بعض الأحيان إلى التواصل مع الغرب، "من موقع الندية"، ومـن بـاب الظهـور بـالمظهر الليبرالي، والثقة بالنفس. ولا ندري كيف يكون الجهل ندا للعلم، والتخلف ندا للتقدم، والاسـتبداد نـدا للحريـة، والديكتاتورية ندا للديمقراطية، إلا من باب تصنيم الذات، والتعـالي الكـاذب الـذي يشـبه الحمـل الكـاذب عنـد المرأة؟ وقد رد مراد وهبة، أستاذ الفلسفة على هذا، بأنه ينكر قـول إن لـدى العـرب القـدرة عـلى التعامـل مـع الحضارة الغربية من موقع الندية.

الفقه الحضاري

كذلك، فإن التيار الإسلامي يعتبر أن ما تم من تواصل بين الإسلام

والغرب - رغما عن المسلمين ودون رضاهم - في القرنين التاسع عشر والعشرين "تجربة فذة بين الفكر الغربي والمجتمع العربي". وهو يشجع هذا التواصل من باب الانفتاح، ودفع تهمة "الحذر الشديد من المنجزات الحضارية والنماذج الأجنبية" التي نادى بها قبل قليل، لا لكي نعرف أنفسنا بشكل أفضل وأعمق وأعقل، ولكن لنطعن في الحضارة الغربية - ونحن أمة طعان - ونوجه لها سهام النقد، ونفرز القوة عن الضعف في هذه الحضارة. ولنلاحظ أن هذا التيار يفترض في الأمة العربية وجود قوة الفرز، وهو ما نطلق عليه "الفقه الحضاري" الذي هو أشبه بالقضاء التمييزي، والذي هو أعلى درجات القضاء في المحاكم. علما بأننا لسنا معنيين بضعف هذه الحضارة - إن وجد - بقدر ما نحن معنيون بقوتها التي نريد لأمتنا قوة مثيلة لها، وهي قوة العلم وقوة العقل. أما قوة الإيمان فلنا منها والحمد لله، رصيد يكفي حاجة البشرية كلها، وربما يزيد.

ü في العالم العربي قضايا ملحة كثيرة، يستنكف الكثيرون من الكتاب والباحثين والمفكرين التعرض لها، اتقاء لنقمة الرعاع الذين تحدث عنهم شيخ الأزهر، الشيخ سيد طنطاوي في عام 2003، وقال بأننا "أمة من الرعاع" في المؤتمر الخامس عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية الذي عقد بالقاهرة. وقال كذلك، بأننا تحولنا إلى "أمة من المنافقين تغلب على أبنائها الجعجعة والرياء".
كذلك، يستنكف ويخاف كثيرون من الكتاب والباحثين والمفكرين من التصدي لهذه القضايا، خوفا من نقمة المؤسسة الدينية في العالم العربي، ونقمة السلطات الحاكمة بالتالي، والتي تستظل بظل المؤسسة الدينية، وتحكم تحت سقفها ومظلتها، وتستمد الشرعية السياسية منها، وليس من الشعب الذي تحكمه.

المسكوت عنه

لعل أكبر هذه القضايا الملحة والمسكوت عنها في العالم العربي، في الماضي والحاضر، هو فصل الإسلام القرآني عن إسلام الفقهاء، في الماضي والحاضر. فمن المعروف تاريخيا، أنه منذ أربعة عشر قرنا إلى الآن،

حصل تراكم ديني فقهي كبير، أدى إلى وجود تراث ما يطلق عليه "إسلام الفقهاء"، وهو مئات الآلاف من الفتاوى الدينية، التي صدرت في مختلف مناحي الحياة، وتضاربت في كثير من الأحيان، واتفق بعضها مع بعض في أحيان أخرى، وسقط مفعولها مع مرور الزمن، وتغير الواقع، وتبدل المجتمعات، واختلاف القيم والمعايير. ولكن الجزء الأكبر من هذه الفتاوى، ظل قائما ومتداولا به، وشكل ما يطلق عليه "إسلام الفقهاء"، الذي يحتاج منا إلى الدرس والتمحيص والفرز، وفصله فصلا تاما عن الإسلام القرآني، الذي جاء به النص القرآني الكريم.

إسلام القرآن

يقول الشيخ التنويري أحمد صبحي منصور، إن الاسلام القرآني، هو الذي طبقه خاتم النبيين محمد عليه السلام. وكان تطبيقه مخالفا للسائد فى العصور الوسطى. ولذلك ما لبث أن عاد منطق العصور الوسطى، وطغى على الدولة الإسلامية العلمانية، وأقام مكانها نظم حكم ديكتاتورية ثيوقراطية، على النسق السائد فى أوربا وقتها، وأنسى مبادئها القرآنية فى طوفان أكاذيب التراث، والأحاديث، والسند، والعنعنة، والخلافات الفقهية والكلامية الفلسفية. ثم صحت أوربا والغرب، واعتمدت العلمانية والديمقراطية، بعد كفاح دموي، امتد بضعة قرون. وكانت مصر على وشك اللحاق بهذا التطور الغربي، مبتعدة عن ثقافة العبيد للعصور الوسطى، وكادت أن تنجح لولا ظهور السلفية الفقهية الدينية في الجزيرة العربية، التي استعادت أردأ ما فى العصور الوسطى من فكر وثقافة، ونشرتها فى مصر والعالم العربي، والمسلم على أنها هي الإسلام. ووقفت موقفا معاديا من الغرب وثقافته، معتبرة أنه "غزو فكري" .

إذن، فطوفان الفتاوى وأكاذيب التراث، التي تحدث عنها صبحي منصور، وكذلك الأحاديث الكاذبة والسند والعنعنة والخلافات الفقهية، هي التي شكلت كلها إسلاما جديدا مخالفا - في رأي الكثيرين - للإسلام القرآني النقي. وهذا لم يحدث في الإسلام فقط كدين، ولكنه حدث في اليهودية والمسيحية كذلك، وحدث في الفلسفات الكبيرة المعاصرة كالماركسية وغيرها.

أسباب الفقهاء

فلو أخذنا قضية واحدة مثلا، وهي قضية العلمانية في العالم العربي، ومقاومة رجال المؤسسة الدينية لها، لوجدنا أن الفقهاء عموما، قد اخترعوا أسبابا خاصة بهم، وليس بالإسلام لمحاربة هذه الفكرة، رغم أن كثيرا من البلدان العربية، قد أخذت بها في جانبها الاقتصادي، وفصلت الدين عن الاقتصاد، بل ومنعت قيام ما يطلق عليه "البنوك الإسلامية" كالمملكة العربية السعودية مثلا، وأخذت بالنظام الاقتصادي الغربي، وحولت سنتها المالية من التاريخ الهجري - باطنا وليس ظاهرا - إلى التاريخ الميلادي، لكي تساير العالم الاقتصادي الغربي، وتتماشى أجندتها الاقتصادية مع أجندة العالم الاقتصادي الغربي، رغم كره المؤسسة الدينية السعودية لهذا، ومعارضتها الشديدة لهذا التوجه العلماني الاقتصادي السعودي.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، يقول بعض رجال الدين، إن العلمانية هي الذراع الأولى للتبشير الصليبي، حيث تهدف من خلال الهجوم على الدين وفصله عن شتى نواحي الحياة والمجتمع إلى إحداث فراغ عقائدي وفكري، تملأه بعد ذلك فلسفات ونظريات الغرب ورؤاه الحياتية، وتشغله عقيدة الغرب نفسها، وهي المسيحية (محمد يحيى، في الرد على

العلمانيين، ص12). ويردد الإسلاميون المتشددون من ذوي الأفق الضيق والثقافة الضحلة المحدودة، من أن العلمانية تهدف إلى غايتين أساسيتين:

الأولى: عزل الدين عن المجتمع عزلا تاما، وإتاحة الفرصة لقيام تربية لا دينية، وقيام نظام سياسي لا يستهدي بالشريعة، وتأسيس الاقتصاد على الربا.

الثانية: إبعاد قطاع أصيل من الفكر الإنساني، وهو جانب الروح والوحي وعالم الغيب، وكل ما يتصل بالدين من أخلاق وعقائد وإيمان بالله، وعزله عزلا تاما عن الفكر والحياة. (أنور الجندي، سقوط العلمانية، ص20).

ولنا أن نلاحظ مثلا، أن العلمانية سواء في الشرق أو في الغرب، لا تدعو إلى عزل الدين عن المجتمع عزلا تاما، ولكنها تدعو إلى كف يد رجال الدين عن السياسة، والتدخل في حياة الناس بكثرة الأوامر والنواهي. وأن الناس لكي تعرف دينها، وتتبع فضيلته، ليست بحاجة إلى رجال المؤسسة الدينية، وإلى هذه الجموع من الأشياخ الذين يملأون كل مجلس. وأما الادعاء بأن العلمانية تدعو إلى تأسيس الاقتصاد على الربا، فلا يوجد في العالم اليوم دولة إسلامية بما فيها السعودية، لا تتعامل بالبنوك التجارية التي تسمى بعرف المؤسسة الدينية بنوكا ربوية. بل إن السعودية نفسها، زيادة على ذلك، منعت إقامة البنوك الإسلامية التي أنشأها رجال أعمال من السعودية في باقي أنحاء الوطن العربي لأسباب اقتصادية وسياسية، كما قلنا قبل قليل. كذلك فإن شيخ الأزهر الشيخ سيد طنطاوي، كان قد أفتى عندما كان في منصب مفتي الديار المصرية، وفي مؤتمر البنوك الإسلامية المنعقد في الإسكندرية في التسعينات، بأن الفائدة البنكية ليست ربا، وليست حراما. وهنا تتضح تماما المصالح السياسية والمصالح الاقتصادية والاجتماعية من وراء الفتاوى الفقهية

المتضاربة، ويبرز بشكل واضح "إسلام الفقهاء" والذي يقود المسلمين إلى التيه في نهاية الأمر. فكما أفتى الشيخ سيد طنطاوي، بأن الفائدة البنكية ليست ربا وليست حراما، وكان ذلك فائدة كبيرة للبنوك التجارية الأخرى، فقد أفتى الشيخ يوسف القرضاوي المستشار الشرعي لمجموعة "مؤسسات البركة السعودية"، التي تملك "بنك البركة الإسلامي" وغيره من مؤسسات توظيف الأموال على الطريقة الإسلامية، بتحريم الفائدة، وبأنها ربا واضح، وذلك لفائدة البنوك الإسلامية، التي يعمل عندها الشيخ القرضاوي كمستشار شرعي. كذلك فقد وقف رجال الدين في السعودية موقفا متناقضا من موضوع الفائدة البنكية. فهم لم يهاجموا البنوك التجارية العاملة في السعودية لأن السلطة السياسية تريدها، ولأن البنوك الربوية وظفت عددا كبيرا منهم كمستشارين شرعيين، برواتب عالية، وحوافز مغرية. وهم لم يدعوا في الوقت نفسه إلى فتح فروع للبنوك الإسلامية في السعودية، لأن السلطة السياسية لا تريدها، رغم انتشارها في العالم العربي، ورغم وجود مراكزها الرئيسية في أقرب البلاد العربية للسعودية وهي البحرين، وعلما بأن مؤسسيها الكبار كافة من رجال الأعمال السعوديين.

من يستطيع عزل الدين؟

وأما الادعاء، بأن العلمانية تبعد جانب الروح عن الفكر الإنساني، وتعزل الدين عزلا تاما عن الفكر والحياة، فلا أحد يستطيع ذلك، إلا إذا عزل الدين نفسه من داخله عن الفكر والحياة. ولنا من تجربة كمال أتاتورك الشيوعية - وليست العلمانية - خير مثال على ذلك. فللعلمانية أغراض أبعد من الاشتباك مع الدين، الذي يفترضه رجال الدين. وهذه الأغراض تتمثل في "تحقيق الوحدة الاجتماعية، ودفع عجلة التنمية

الاقتصادية، والخروج من وضع التخلف في جميع أشكاله. وتكون العلمانية بالتالي، قد ارتبطت بسيرورة تحديث المجتمع". (عادل ضاهر، الأسس الفلسفية للعلمانية، ص38).
أما قول الإسلاميين، أن العلمانية مرفوضة لأنها غرض استعماري في مجال الفكر السياسي، مثلها مثل الطائفية التي تتستر بالدين من قبل بعض طلاب المكاسب ( أسعد السحمراني، العلمانية، ص45)، فهو قول مرفوض ومردود وقياس فاسد، كما يقول أهل المنطق. إذ لا علاقة بين الاستعمار والعلمانية. ولو كانت هناك علاقة لرأينا آثار الأصابع الفرنسية السياسية في علمانية كمال أتاتورك الذي أسقط على إثرها الخلافة الإسلامية في عام 1924 وكان من المعروف أن كمال أتاتورك قد تأثر بالعلمانية الفرنسية من خلال اشتراكه في مناورات عسكرية مع القوات الفرنسية في عام 1910، ومن خلال انتشار المدارس والمعاهد الفرنسية في مختلف أنحاء تركيا. ورغم هذا لم يكن للاستعمار الفرنسي أثر سياسي على تركيا بعد سقوط الخلافة الإسلامية، وإن كان أثرها الثقافي واضحا نتيجة لانتشار المدارس الفرنسية والثقافة الفرنسية في تركيا، في عهد سلاطين آل عثمان (شاكر النابلسي، عهد التكايا والرعايا: وصف المشهد الثقافي لبلاد الشام في العهد العثماني، 1999).

عبور التاريخ

يجمع جمهور المفكرين الإسلاميين، أن لا حاجة للإسلام لنصوص موضوعة لإقامة الدولة. وأن القرآن نزل كاملا مكملا غير منقوص، ولا يحتاج إلى نصوص أخرى إلى جانبه لإقامة الشريعة. ولكننا نعلم أن التيار الفكري الذي مثله الإمام الشافعي، قد حل معضلة أساسية واجهت المسلمين، وهي عدم كفاية النص القرآني في العبادات والتشريعات أو

المعاملات، وضرورة اللجوء إلى توجيهات الرسول لمعرفة الكثير من التفاصيل. وأن الرسول الكريم بدوره، قد طالب المسلمين بتدبير شؤون دنياهم، فهم أدرى من غيرهم بهذه الشؤون. ورغم ذلك يصر كثير من الفقهاء في وقتنا الحاضر، على أن ندير شؤوننا المعاصرة كما كان الأقدمون يديرونها منذ مئات السنين. أي أنهم يعترفون بتغير الحياة، ولا يعترفون بتغير الأنظمة والقوانين. ويعتبرون أن الأنظمة والقوانين التي جاءت قبل، ومورست، وطبقت قبل مئات السنين هي قوانين وأنظمة عابرة للتاريخ، علما بأنه لا توجد آية واحدة في القرآن الكريم، تشير إلى أن كل ما ورد في القرآن الكريم من أحكام في المال والعيال، هو عابر للتاريخ. بل على العكس من ذلك، فقد منح القرآن الكريم المسلمين مرونة وحرية كبيرة في اختيار الأحكام، التي تيسر على الناس ولا تعسر. وجاء إسلام الفقهاء لكي يعسر على الناس ما تيسر!

الحاجة إلى ورش عمل

إن إسلام الفقهاء هذا، بحاجة إلى ورش عمل دينية وفكرية ضخمة ومستمرة العمل، من أجل تجديد روح الإسلام، ونفض الغبار المتراكم والكلس المتحجر على نصوص الفقه الإسلامي. فلم يكن حتى كبار الفقهاء أصحاب المذاهب الرئيسية الأربعة، يعلمون بماذا سيأتي به الغد بالنسبة للمسلمين، وما هي التحديات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، التي ستواجههم في القرن العشرين، وما بعد القرن العشرين. ولو علموا ذلك، لكانت كل فتاواهم ذات مفعول زمني محدود، وليست مطلقة، وعابرة للتاريخ.

ولعل التمسك بمنطق فتاوى الماضي، هو الذي سبب في وضع العرب المتدهور الآن سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا. ومن مظاهر هذا الوضع

المتدهور انتشار الإرهاب في العالم العربي على النحو الذي نشهده الآن. فآلية الإرهاب الفقهية، ومرجعياتها، هي آلية القرون الوسط ومرجعياتها، وما قبلها وما بعدها، من حيث ترديدها وغرغرتها بفتاوى صدرت من مئات السنين، ولا علاقة لها بواقع العرب، وأحوالهم، وتحدياتهم الآن.

* النكبات الكبرى والكوارث الفظيعة، مجال كبير ومناسبة عظيمة، لكي تجلس الأمم مع أنفسها، وتحاسب وتنتقد ذاتها، وتتبين ماذا كسبت، وماذا ربحت، من تلك النكبة، أو من هذه الكارثة. ولقد كانت كارثة الحادي عشر من سبتمبر 2001 قبل بضع سنوات، مناسبة للأمة العربية والإسلامية لكي تقف هذا الموقف النقدي الذاتي، لكي تخرج من مثل هذه الكارثة بالعبر والخبر، كما يقول ابن خلدون، باعتبار أن الأمة العربية والإسلامية، كانت العنصر الفعال في هذه الكارثة الإنسانية الفظيعة، وأنها كانت الفاعل والجاعل والعامل.

كارثة إنسانية

إن كارثة الحادي عشر من سبتمبر 2001، لم تكن كارثة أمريكية بقدر ما كانت كارثة إنسانية عالمية "معولمة" شاملة وعامة بالمعنى الحقيقي والواقعي، وليس بالمعنى المجازي.

فضحايا هذه الكارثة، لم يكونوا من الأمريكيين فقط، ولم يكونوا من الأوروبيين فقط، ولم يكونوا من المسلمين فقط، ولم يكونوا من المسيحيين فقط، ولم يكونوا بيضا فقط، بل كانوا من كل ديانات وألوان وأجناس

الأرض التي كانت تضمهم نيويورك كمدينة عالمية، وليست كمدينة أمريكية فقط. وكان من بين ضحايا هذه الكارثة، مسلمون من بنغلادش، ومن الباكستان، ومن ماليزيا، ومن إندونيسيا، ومن تركيا، ومن مصر، ومن لبنان. وكان من بين هذه الضحايا، مسيحيون من الشمال: من أمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، والدانمارك، وبلجيكا، وألمانيا، والسويد، وسويسرا، وإسبانيا، وايرلندا، وكندا. ومن الجنوب: البرازيل، والبرتغال، وتشيلي، وكولومبيا، والمكسيك، والسلفادور، وفنزويلا، وأورغواي. وكان من بين الضحايا بوذيون من اليابان، والصين، وكوريا، وتايوان، والفلبين. وكان من بين الضحايا بيض، وسود، وحمر، وصفر.
إذن، فهذه الكارثة كانت ضد الإنسانية وقيمها جمعاء، ولم تكن ضد القيم الأمريكية فقط. وهذا هو السر وراء اختيار برجي نيويورك لتدميرهما.

اختبار جديد

إن هذه الكارثة كانت كارثة فظيعة ومروعة وشنيعة، وهي بمثابة اختبار جديد للعقل الديني الإسلامي، وللعقل السياسي العربي. والجدير بالاهتمام، هو أن نعرف كيف فكر العقل العربي والإسلامي بهذه الكارثة ونتائجها، وكيف حللها، وهل استفاد منها أم لا؟
كذلك، فإن هذه الكارثة، كانت امتحانا جديدا وعسيرا للعقل السياسي العربي، وكان مطلوبا من هذا العقل أن يقول كلمته الواضحة والصريحة فيها.
فهل استطاع العقل العربي، بعد مضي نصف قرن على "عصر التنوير" العربي، الذي ابتدأ في مطلع القرن العشرين، أن يغير من بياناته الخطابية والإنشائية والعاطفية المتعصبة وانتصاراته البلاغية، ويتخلى عن

التعالي والمكابرة والنرجسية، ويحتكم إلى الواقعية والمتغيرات الدولية الجديدة، ولا ينظر إلى الكوارث والأحداث، وكأنه يعيش وحده في هذا العالم، دون أي اعتبار للآخر؟

فشل المواجهة

إن العقل العربي، الذي عالج وتصدى لهذه الكارثة، هو العقل العربي نفسه الذي فشل في المواجهة مع الغرب على مدار القرن العشرين، والذي خاض عدة حروب مع إسرائيل خسرها كلها تقريبا. وهو العقل العربي نفسه، الذي فشل فشلا ذريعا في مسألة التحديث والتنمية، وإقامة دعائم الدولة القوية العلمانية والعلمية والعقلانية. وهو نفسه العقل العربي الذي لم يحقق قدرا يذكر من الديمقراطية، بعد مضي ما يقارب القرن من الزمان، منذ أن رحل عن أرضه المستعمرون العثمانيون. وهو العقل العربي نفسه، الذي صنع الحكام المستبدين، والذين يرى الغرب أنهم أفضل بكثير من حكام اللحى والعمائم (طالبان) على حد تعبير محمد رصاص (11 أيلول فصاعدا، المحطة الثالثة للحماقة السياسية العربية، "النهار"، 2001/10/15)، وأرحم منهم وأكثر تفهما وأكثر عقلانية، بحيث لا يصل تحريم المنكرات في مجتمعاتهم إلى عشرين منكرا تافها، كما أصبحت في عهد "طالبان" مثلا

لقد تغير العالم، وتغير عقل العالم بعد هذه الكارثة، ولم يتغير العقل العربي. فقد ظل العقل العربي محافظا على ثوابته "المكينة" السابقة، بعد هذه الكارثة، والتي تتلخص في :

1- عدم تأييد الغزو الأجنبي لأراض عربية أو إسلامية، بغض النظر عن السبب.

2- عدم الفصل بين النقمة على الحكومات، والانتقام من الشعوب.

3- اعتبار النقمة على الحكومات من قبل الغرب انتقاما من الشعوب.
4- التشهير بالغطرسة، والهيمنة الأمريكية.
5- المناداة بقوة عسكرية عربية/إسلامية بديلة، للقيام بفض المنازعات الإقليمية بدلا من الغرب.
6- الإيمان بوجود صراع حقيقي بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.
7- الاعتقاد بأن الغرب يسعى جادا إلى هدم الإسلام، وعلينا جميعا الوقوف بوجه الغرب للحيلولة دون ذلك.
8- المكابرة بالمحسوس والواقع، والاعتقاد بالخرافات السياسية. وكان من مظاهر هذه المكابرة وهذه الخرافات السياسية التي صدقها العقل العربي المعطوب، بعد هذه الكارثة ، القول، إن "طالبان" ومن معها من بعض "العربان الأفغان"، قاموا بإنجازات لم تسبقها إليها الأنظمة الأفغانية السابقة. والقول، إن "طالبان" ومن معها من بعض "العربان الأفغان" قد قاموا بتطبيق الشريعة الإسلامية النقية والصحيحة في أفغانستان، كما لم يسبق لها أن طبقت منذ نهاية عهد الخلفاء الراشدين إلى الآن. والقول، إن "طالبان" ومن معها من بعض "العربان الأفغان"، كانوا من أطهر الأنظمة السياسية الإسلامية والعربية الموجودة على ساحة العالم العربي والإسلامي الآن. والقول، إن "طالبان" ومن معها من بعض "العربان الأفغان"، قادرون على هزيمة أية إمبراطورية تقوم بقتالهم كما سبق وتمت هزيمة الإمبراطورية البريطانية والإمبراطورية السوفياتية من قبل. وكان رد العقلاء من العرب، ومنهم عبد الله المدني أن " الخرافة سقطت، لكن المكابرة قائمة" (جريدة "الخليج"، 2001/10/11).

## العقل العربي في الشارع

إن الذين تظاهروا في الشوارع العربية، أمام كاميرات التلفزيون، دون خجل أو عقل، عشية هذه الكارثة، وفرحا بها، وانتصارا بوقوعها، هم جزء من العقل العربي السائد الآن، مهما حاولنا تبرير ذلك، أو نفيه في بعض الأحيان. وكان لدى العقلاء الأمريكيين الحق عندما قالوا لنا: هل نبتهج في الشوارع عندما يقتل الفلسطينيون أو غيرهم من المدنيين العرب، كلا. فلكم كل الحق أن تنتقدوا سياساتنا، لكن ابتهاجكم السمج، لا يساعدنا إطلاقا على التخلص من السياسات التي تنتقدونها بقوة وبأعلى أصواتكم، كما قال إدوارد ووكر رئيس معهد الشرق الأوسط في واشنطن (رسالة مفتوحة إلى أصدقائي العرب، "الحياة"، 2001/9/14).

## إرهاب الفقراء

فهل أفلس العقل العربي في معالجة مشاكله السياسية، ولم يعد لديه من سلاح يستعمله إلا سلاح الفقراء وسلاح الضعفاء، وهو ما أطلق عليه "إرهاب الفقراء" أو "إرهاب الضعفاء"، كمسوغ زائف لهذه الكارثة ؟ ولكن الضعف هنا ليس القوة، إلا من باب الاستعارة، كما قال عزمي بشارة (كاميكاز بداية القرن، "الحياة"، 2001/9/17). ولا يمكن تحويل القوة إلى ضعف، أو الضعف إلى قوة من خلال عمليات إرهابية على نحو ما جرى في الحادي عشر من سبتمبر 2001 فالقوة لا تتحول إلى ضعف إلا بإزالة الأسباب التي صنعت القوة. والضعف لا يتحول إلى قوة إلا بالأخذ بالأسباب التي صنعت القوة.

## القفز على الحقائق

إن كثيرا من الحقائق الأولية لهذه الكارثة، قد قفز عليها كثير من

الكتاب والمحللين العرب، ليقدموا لنا تحليلات قريبة من الخرافة. وإن جملة التحليلات العربية، كانت تتأرجح بين النزعة العاطفية التي تحجب العقل من ناحية، وبين الخضوع لـ "نظرية المؤامرة"، و "نظرية الفخ"، و "نظرية صدام الحضارات" وغيرها من النظريات الهلامية من ناحية أخرى. "وتتحول المناقشات إلى مجادلات شخصية عقيمة، لا تحرر الجمهور من التنوير والوعي فحسب، بل تشحنه إلى الاتجاه المضاد للعقل والمنطق والفهم العلمي للأحداث" كما قال محمد الرميحي (الكارثة الأمريكية والإعلام العربي، "الحياة"، 2001/10/3).

انتصارات البلاغة

إن العقل العربي مولع بـ "انتصارات البلاغة"، و"سحر البيان". بل إن معجزة العقل العربي الكبرى هي "سحر البيان". وهو لا يتوانى عن تشغيل هذه الآلية السحرية في كل مناسبة من المناسبات الكبرى، وفي كل حادثة من الحوادث الجسيمة، ومنها كارثة الحادي عشر من سبتمبر. فهو في هذه الحادثة خطب الخطابات النارية، واستعاد أمجاد العرب من هاشم بن عبد مناف إلى أسامة بن لادن. ودق أجراس الحرب، وأعلن أن الصليبيين قادمون، وأنهم يطرقون أبواب مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس، إلى درجة أزعجت أصدقاء العرب من المفكرين والسياسيين الغربيين الذين قالوا للعرب : يا ناس، ما هكذا تورد الإبل! وقالوا: "نريد منكم التعبير عن شكواكم السياسية، ولكن ليس بالصياح. تجنبوا البلاغيات والروح السلبية. واقترحوا علينا السبل البناءة لتناول قضاياكم" كما قال لنا مرة أخرى إدوارد ووكر (رسالة ثانية إلى أصدقائي العرب، "الحياة"، 2001/10/16).
فهل قدم العقل العربي حيال هذه الكارثة موقفا سياسيا أو فكريا

جديدا يختلف عن المواقف السياسية والفكرية التي اعتاد أن يقفها في الماضي، عندما يواجه مثل هذه الكوارث أو مثل هذه الأزمات السياسية الكبرى؟

وهل تغيرت القناعات العربية القديمة وطريقة التفكير العربية القديمة القاصرة عن استبطان الحقيقة استبطانا معرفيا وعقلانيا سليما؟

فلا عجب إذن، وحال العقل العربي على هذا النحو من التردي والاستسلام للخرافات والأوهام واستنباط الحقائق من خلال سحب البخور وسطور التمائم، أن نكتشف أن "تفكيرنا يصنع الفضائح والكوارث بقدر ما ينسج من الجهل والوهم والخداع"، كما قال المفكر اللبناني الليبرالي علي حرب في مقاله (سقوط "طالبان" أو الأكذوبة والفضيحة والكارثة، "السفير"، 2001/11/18).

أبواب مفتوحة للجميع

لقد فتحت أمريكا أبوابها في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين للعرب واليهود على السواء. وجاء المهاجرون العرب واليهود إلى أمريكا من كل فج عميق في القرنين التاسع عشر والعشرين. وكما جاء العرب إلى أمريكا فقراء ومطاردين من العثمانيين ومن حكامهم الطغاة، فكذلك جاء اليهود إلى أمريكا فقراء ومطاردين ومضطهدين من النازية، ومن الحكام الطغاة أيضا. فلننظر ماذا فعل العرب في أمريكا، وماذا فعل اليهود في أمريكا. ولننظر كيف استطاع اليهود أن يكسبوا أمريكا بالعلم والمال والسلطة إلى جانب قضيتهم القومية. وكيف أننا بالجهل والتعصب والتعالي والمكابرة خسرنا أمريكا ووقوفها إلى جانب قضيتنا القومية. وجاءت هذه الكارثة، لكي تضع الفصل الختام لهذا الفشل الذريع والطلاق البائن بيننا وبين أمريكا كقوة عظمى أحادية في هذا العالم كان

من المفروض أن تساعدنا على حل مشاكلنا السياسية والاقتصادية بالدرجة الأولى. وكانت تلك واحدة من محن العقل العربي المعاصر.

هذه الكارثة وحملة نابليون

رغم أن كارثة الحادي عشر من سبتمبر، كانت كارثة إنسانية بكل المقاييس، إلا أنها كانت كارثة مفيدة جدا للعالم العربي. وكان لها أثر حضاري في العالم العربي، لا يقل عن الأثر الذي تركته حملة نابليون على مصر 1798 فهذه الكارثة وضعت العالم العربي كله تحت المنظار الغربي السياسي والثقافي والاقتصادي. وتنبه العالم الغربي، بأن هناك عالما عربيا مهملا، ومتخلفا، تحكمه الديكتاتوريات العائلية والحزبية والعسكرية. وأن لا دولة ديمقراطية في العالم العربي. وأن حجم الفساد والأمية والفقر والتخلف الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، لا مثيل له في أية دولة في الشرق أو في الغرب. وهذا ما أثبتته التقارير المتوالية للتنمية البشرية الصادرة عن الأمم المتحدة منذ 2003 إلى اليوم. ومن هنا، أصبح العالم العربي منذ صبيحة الحادي عشر من سبتمبر الشغل الشاغل للغرب عموما، ولأمريكا خصوصا. فجاءت الجيوش الغربية لكي تطيح بأنظمة ديكتاتورية، لم تقدر عليها شعوبها، وجاء الخبراء الغربيون، يدفعون إلى الأمام بضرورة إصلاح المناهج الدينية، وتوافد السياسيون الغربيون إلى الشرق، يحاولون دفع التجارب السياسية الديمقراطية إلى الأمام، وتم القضاء على أكثر الأنظمة الدينية تخلفا في أفغانستان، وتحطيم أركان تنظيم "القاعدة"، ومحاربة الإرهاب حربا ضروسا. ولولا كارثة سبتمبر هذه، لكان الإرهاب قد اجتاح العربي من أقصاه إلى أقصاه، ولما استطاعت الأنظمة العربية المهترئة مقاومته. وتعالت الأصوات التي تدعو إلى العلمنة، والعلمانية، والحداثة، وقوي صوت الليبراليين.

وكسبوا المزيد من الأنصار والمؤيدين. ورغم أن الشارع العربي تحول أكثر فأكثر إلى شارع سياسي ديني، إلا أن هذا النحول سريعا ما ينقلب في المستقبل إلى شارع ليبرالي، بعد أن أثبتت الأحزاب الدينية فشلها الذريع، في مواجهة استحقاقات المرحلة السياسية، وتشبثها بثوابتها الخشبية. ونحن نكتب هذا الكلام في مطلع عام 2007، وما زالت الآثار الإيجابية لهذه الكارثة تتوالى، بحيث تم تغيير على مستويات مختلفة في العالم العربي خلال هذه السنوات الخمس (2001-2006) يعادل التغيير الذي حصل في العالم العربي خلال قرن كامل مضى. وما زال التغيير مستمرا، وإن كان بطيئا وثقيلا، نتيجة للتركة العثمانية الطويلة والتركة الأصولية الثقيلة. وكل ذلك كان بفضل هذه الكارثة، التي كانت بمثابة: "مصائب قوم عند قوم فوائد".

* كانت المظاهرة التي قادها الشيخ القرضاوي مع صفوة من أشياخ قطر في مدينة الدوحة، احتجاجا على الاعتداء الإرهابي على مدرسة بالدوحة، فاصلا بين تاريخين محليين: ما قبل المظاهرة، وما بعد المظاهرة.
كانت هذه المظاهرة تقول لنا كل شيء. ولا تترك شيئا.
كانت أبلغ من خطب الخطباء، وقول الحكماء، وشعر الشعراء ، حيث قالت لنا إن هناك - في فقه القرضاوي وشرعيته - إرهابا حلالا كالذي يجري في العراق والسعودية وغيرها، وهناك إرهاب حرام كالذي جرى بالأمس في قطر.
كنا لا نحتاج للعفيف الأخضر، لكي يظهر لنا المفارقة الصاعقة لكيل الشيخ القرضاوي والأشياخ القرضاويين بمكيالين: مكيال الإرهاب الحلال كالإرهاب في العراق والسعودية وأفغانستان، ومكيال الإرهاب الحرام في قطر، وهو الإرهاب الذي يقوم بتحريمه لأول مرة شيخنا القرضاوي، وهو الإرهاب الذي وقع بالدوحة، وفجر بسيارة مفخخة مدرسة للأطفال وليس ناديا ليليا، أو وكرا للعاهرات، أو رتلا لقافلة عسكرية أمريكية.

لا حاجة لنا

كانـت هـذه المظـاهرة التـي قادهـا الشيخ القرضـاوي، لا تحتـاج مـن شاكـر النابلســي، أو مــن إحسان الطرابلسي، أو من سيار الجميل، أو من رياض الأمير، أو مـن عبـد الخـالق حسـين، أو مـن عزيـز الحـاج، أو مـن أحمد أبو مطر، أو من أي ليبرالي "عميل" و"متأمرك" و"متصهين" لكي يغوص في بطون تاريخ الأمس، ويخرج لنا فتاوى القرضاوي وخطبه، في صلوات مسجد عمر بن الخطاب بالدوحـة، وفتاويـه في نقابـة الصـحافيين المصريـة المستنكرة منها والمثبتة، التي كانـت تـدعو للإرهـابيين في العـراق بالجنــة، وتعـدهم بـالحور العـين وسـلة تـين، وتشجع الشباب على الانخراط فــي "الجهاد" لتخليص العراق من الحرية والديمقراطية، اللتين ينعم بهمـا الآن.

الإرهاب الحرام

لقد قاد مولانا القرضاوي في الدوحة مظاهرة كان يهتف فيها - لا فض فوه وهلك كارهوه - قائلا:

"ان المشكلة حينما تصاب هذه الأوطان من أبنائها المضللين الحمقـى الـذين يرتكبـون أعـمالا لا يسـتقيم معهـا منطق، لا من عقل، ولا من علم، ولا من فقه، ولا من دين، ولا من خلق، ولا من قانون".

فهل هذا الإرهاب حرام في قطر فقط، وحلال في العراق، والسعودية، واسبانيا، وأماكن أخرى من العالم؟

وهل كان ابن لادن، والظواهري، والزرقاوي، والحمراوي، والبيضاوي، من فقهاء الإسـلام وعلمائـه، حيـث تـأهلوا لجهاد يستقيم فيه المنطق والعقل؟

الآن فقط
لقد هتف مولانا القرضاوي في جموع المتظاهرين في الدوحة قائلا:
"إن هؤلاء الإرهابيين أناس فرغت رؤوسهم من العلم والفقه، وإن كانوا متدينين في ظاهر الأمر، ولكنهم لم يتلقوا العلم من أهله. إن المشكلة الكبيرة أن الكثير من الناس، يأخذون علمهم عن غير العلماء الثقات، فيملأون رؤوسهم بأضاليل وأباطيل ما أنزل بها من سلطان، ولا قام عليها في الدين برهان". وتوجه القرضاوي بالنصيحة إلى أبناء الأمة "أن ياخذوا العلم من العلماء الثقات المأمونين على دينهم وفي فقههم، الذين إذا قالوا قالوا بحق، وإذا أدوا أدوا بعلم" .
يا سبحان الله.. ما أجمل هذه الكلام يا مولانا.
ولكن هل هذا ينطبق على الإرهاب في قطر فقط؟
أما إرهاب العراق فهو "جهاد" في سبيل الله؟
فما الفرق بين التفخيخ العراقي، والتفخيخ القطري؟
هل دماء المسلمين في العراق حلال، ودماء المسلمين في قطر حرام؟
وما الفرق بين إرهابي الدوحة عمر أحمد عبد الله، وبين رائد البنا، أو نضال عربيات، أو الزرقاوي، أو غيرهم من الإرهابيين المجرمين في العراق؟
ألم يكن الإرهابي عمر أحمد عبد الله في الدوحة يصلي وراءك في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، ويستمع إلى خطب الجمعة التي تلقيها عن فضل الجهاد والمجاهدين في أرض الإسلام؟
ألم تزرع في عمر أحمد عبد الله وغيره من الشباب، حب الموت، وأنت القائل في إحدى خطب الجمعة، وقبل كارثة 11 سبتمبر بشهر : "إذا تعلق الناس بالدنيا، وتشبثوا بالحياة، وحرصوا عليها، هانوا على أنفسهم، وهانوا على عدوهم. أما إذا لم يبال الناس بالحياة ولا بالموت، فلن يبالوا أوقعوا على الموت، أم وقع الموت عليهم". ( موقع القرضاوي، 2001/8/4).

ألم ندعك منذ سنتين وأكثر يا مولانا، بأن تكف عن هذه الهرطقات المميتة، وهذه الفتاوى القاتلة، التي لا تخدم غير مصلحتك الشخصية، وتضر بها شباب المسلمين، وتقودهم إلى الموت، وحسرة الأمهات، ولوعة الآباء، ويتم الأطفال، وترميل الزوجات. والدليل أن لا أحد من أولادك - حفظهم الله - الذين يدرسون هنا عندنا في أمريكا، واحد بولاية تكساس، والآخر بولاية فلوريدا، ترك دراسته وذهب للجهاد في العراق، كما ذهب باقي الشباب الذين ضللتهم، وحببت لهم الموت على الحياة، والآخرة على الدنيا، والحور العين على سارة وكريستين؟

ما الفرق بين الدوحة وبغداد؟

قلت يا مولانا في جموع المتظاهرين بالدوحة، إن حادث تفجير الدوحة "لم يكن له معنى، ولا يمكن أن يستفيد منه أحد إلا أعداء الأمة، وأعداء الدين".

فهل حوادث التفجير في العراق التي يذهب ضحيتها المصلون في المساجد، والكنائس، ورجال الحرس الوطني، والجيش، وأساتذة الجامعات، وموظفو الدولة، والنساء، والأطفال، والشيوخ لها معنى؟

أسمعك تهمس في أذني يا مولانا، بأنها أيضا لا معنى لها، ولا يستفيد منها غير أعداء الأمة.

فلماذا لم تعلنها من قبل صراحة، في إحدى فتاواك، أو في إحدى حلقات برنامجك "الشريعة والحياة"، أو في إحدى خطبك في مسجد عمر بن الخطاب؟

القرضاوي والليبراليون

هل اقتنعت اليوم يا مولانا، بأن الليبراليين كانوا أكثر صدقا منك،

وأكثر شجاعة، عندما وقفوا ضد الإرهاب بكل أشكاله وألوانه، ومنذ اليوم الأول، وفي كل مكان، بينما وقفت أنت إلى جانبه، ولم تقف ضده، ولم تخرج إلى الشارع منددا إلا اليوم، عندما طالت نار الإرهاب أصابعك، وقفطانك، وعمامتك؟

هل اقتنعت يا مولانا، كيف كان الليبراليون الذين تطلق عليهم "الكفرة" و"السحرة" و"حملة المبخرة"، ضد الإرهاب في كل مكان وزمان، كما هم ضد الإرهاب اليوم في قطر؟

وأنهم اكتشفوا منذ اليوم الأول لكارثة 11 سبتمبر 2001، بأن هؤلاء "المجاهدين" ما هم إلا إرهابيون مفلسون، وقطاع طرق، وأن هذه المقاومة ما هي إلا "مقاولة" المرتزقة، كما أطلقنا عليها منذ يومها الأول، وكان يجب عليك وعلى باقي الأشياخ القرضاويين أن يكونوا شرفاء، وأمناء، وخلصاء للمسلمين، ويقولوا لهم كلمة الحق، دون أن ينتظروا وصول النار إلى قفاطينهم، وعمائمهم، ودون أن ينتظروا أمرا ساميا بالتظاهر، وإدانة الإرهاب، والتنديد به، كما فعلت بالأمس في شوارع الدوحة.

سامحك الله

سامحك الله يا مولانا على هذا الافتراء الذي لا يليق بك ابدا، وأنت العالم العلامة، والحبر الفهامة.

وسامحك الله على تحليلك للإرهاب في العراق وغير العراق، وتحريمك للإرهاب في قطر.

وسامحك الله على أرواح المسلمين من أبرياء ونساء وأطفال وشيوخ، التي زهقت ظلما وعدوانا بفضل فتاواك، وحمى الله قطر، وشعب قطر، من كل مكروه ومكر وضر.

وأطلب لك من الله الهداية ورفع الغاشية، ونور البصيرة.

* وسط حشد كبير من الفقهاء والعلماء، افتتح "المؤتمر الإسلامي الدولي" الأول في عمـان (يوليو، 2005). وقد وصف قسم كبير من الإعلام العربي وبكلام تبجيلي واحتفائي كبير، بأن هذا المؤتمر الذي ضم 170 مفكرا وفقهيا وسياسيا جاءوا من أربعين دولة، كان بمثابة تظاهرة ثقافية وفكرية لها وزنها ودلالاتها الواضحة في هذا الظرف الاستثنائي من حياة الأمة العربية والإسلامية. وربط هذا الإعلام بين هذا المؤتمر وبين ما يتعرض له الإسلام من غارة تستهدف تشويه صورته وأهدافه وتعاليمه، في ظل تقصير وعجز واضحين من قبل المؤسسة الدينية الرسمية وجمهور العلماء والفقهاء المعتبرين.

وقد خرج المؤتمر بجملة من التوصيات الرئيسية الروتينية والتي يتردد محتواها في أوساط كثيرة سابقة وخارج هذا المؤتمر، مرتبطة بإدانة العنف الأعمى- الذي يمارس في عدة دول باسم الإسلام- والدعوة إلى الحوار والتعايش بين أبناء المذاهب والطوائف الإسلامية المختلفة. وهي توصيات في مجملها لا تضع الإصبع على الجرح، ولا تشفي الغليل، ولا تداوي العليل، حيث لا يملك هذا المؤتمر السلطان اللازم لتطبيق هذه التوصيات.

لقد تساءلت الكاتبة والباحثة جوديا بيري عن مدى أهمية مثل هذه

المؤتمرات، التي سبق وشهد العالم العربي والإسلامي العديد منها على المستوى الديني، أو على المستوى السياسي كمؤتمرات القمة وغيرها. فما هي المشكلة التي استطاعت مثل هذه المؤتمرات أن تحلها، أو أن تضع حدا لتفاقمها؟

فاقد الشيء لا يعطيه

إن كثيرا من العلماء والفقهاء الذين حضروا "المؤتمر الإسلامي الدولي" الأول في عمان، كانوا قد أصدروا فتاوى دينية تحرض على قتل المدنيين من النساء والأطفال والشيوخ تحت مظلة "الجهاد الديني". ولعل استشراء الإرهاب في العالم العربي على هذا النحو الذي نشهده الآن، كان سببه بالدرجة الأولى تشجيع كثير من الفقهاء على الإرهاب بغطاء ديني مزور ومختطف وغير سليم في معظم الأحيان. ولو كان هؤلاء الفقهاء الذين شجعوا الإرهاب بتلك الفتاوى الدينية المدوية على حق، لأفتوا كذلك بقتل ابن لادن وأيمن الظواهري والزرقاوي، وكل قيادات "القاعدة" في كل مكان .

لقد ازهقت عناصر قيادة "القاعدة" أرواح الآلاف من الأبرياء المدنيين من عرب وعجم ومن النساء والأطفال والشيوخ، ومن ليس له علاقة بالصراع الدائر الآن في الشرق الأوسط. فقد أصدرت مؤخرا جامعة "اكسفورد" احصائية تقول، بأن عدد القتلى في العراق وحدها، منذ عام 2003، بلغ 25 ألفا، منهم 111 رضيعا، 2488 طفلا، 2383 امرأة، 20081 مدنيا لا علاقة لهم بالصراع.

أفلا يتيح ذلك للفقهاء بإصدار فتاوى تدين هؤلاء القتلة، وتحلل قتلهم، والتخلص من شرورهم؟

أم أن الفقهاء في هذه الأحوال يلجأون إلى الإدانة والتنديد وإطلاق شعارات التسامح والمحبة والتعاون، إلى آخر هذه المنظومة اليوتوبية من

الشعارات التي لا تساوي على أرض الواقع الحبر الذي كتبت به، والطعام الذي أكل من أجله، والمصاريف الباهظة التي صرفت لإقامة مثل هذه المهرجانات الدينية الاستعراضية الفارغة من القرارات الحاسمة، التي يمكن أن تطبق على أرض الواقع.

فقهاء الإرهاب

هل عدم صدور فتاوى دينية حتى الآن بقتل ابن لادن وعناصر قيادة "القاعدة" الأخرى الضالعة في العمليات الإرهابية، التي تجري الآن في العراق، وفي السعودية، وفي مصر، والتي لا تحتاج إلى انتظار الأمم المتحدة لتعريف الإرهاب - كما يتعلل البعض - دليل قاطع مانع، بأن كثيرا من الفقهاء الذين يدعون بأنهم ضد موجات الإرهاب، هم في واقع الأمر وضمنيا، يتبنون هذه العمليات الإرهابية، ويباركونها في سرهم، وليلهم؟

أليس من البؤس، والتهافت، واغتيال العقل، وسوء السبيل، ونقصان الحس الإنساني، وعمى البصيرة الدينية، وضلال الطريق القويم، أن يزن بعض فقهاء الدين الإرهاب بميزانين، ويكيلون بمكيالين، وهم الذين يعيبون على الآخرين من "الكفار" الكيل بمكيالين، ويطلقون على أنظمة الغرب "ذات المكيالين"؟ فيكون الإرهاب حراما في الدوحة مثلا، وتخرج مظاهرات الشيوخ لشجبه، وإدانته، والتنديد به، ويكون الإرهاب في بغداد، والرياض، والقاهرة، وشرم الشيخ، وطابا، وغيرها حلالا زلالا، واستردادا لكرامة الأمة الإسلامية المهدورة، كما قال مجدي حسين، الأمين العام لحزب "العمل" الإسلامي المصري، في جريدة "الشعب" ؟

مهمة الفقهاء الأولى

إن المهمة الأولى لفقهاء الدين، إقامة موازين العدل والإحسان بين

الناس، فهل من العدل والإحسان، أن يدان الغرب في اعتدائه على الشرق، ولا يدان المسلم في قتل أخيه المسلم، أو غير المسلم، دون جرم؟

إن عدم صدور مثل هذه الفتاوى حتى الآن، هو الذي شد من أزر ابن لادن وعناصره، وقاعدته، وشجعهم على توسيع دائرة القتل والإرهاب في العالم العربي. بل إن عناصر القاعدة، قد استمرأت الإرهاب، وأوغلت فيه عندما وجدت أن الغالبية من فقهاء الدين في العالم العربي، تسكت عما تفعل، بل واعتبرت هذا السكوت مباركة لما تقترفه من جرائم. وعندما وجدت أن بعض الفضائيات تسارع إلى نشر بياناتها وإذاعتها على مدار الساعة، وتستفتي الفقهاء والمفسرين لبيانات الإرهابيين لإلقاء الضوء على هذه الدرر البيانية الإرهابية.

أمة الكيل بمكيالين

من هو أخطر على الإسلام الآن: ابن لادن وعناصر "القاعدة"، أم سلمان رشدي في روايته السخيفة المبتذلة "آيات شيطانية" ؟

لماذا أهدر دم سلمان رشدي، وصدرت فتوى بقتله، ولم يهدر دم ابن لادن والظواهري، والزرقاوي، وجميعهم مسلمون؟

من كان الأخطر على الإسلام الآن وفي الماضي: ابن لادن وعناصر قاعدته، أم فرج فودة، وحسين مروة، ومحمود طه، ومهدي عامل، وغيرهم من مفكري العرب المعاصرين، فلماذا صدرت فتاوى بقتل هؤلاء، وقتلوا فعلا، ولم تصدر فتوى حتى الآن بقتل ابن لادن، وقادة "القاعدة"؟

ألسنا أمة المكاييل، وليس المكيالين فقط؟

* يبدو أن السياسيين في الغرب كالسياسيين في الشرق، لا يقرأون التاريخ، ولا يقرأون كذلك علم اجتماع الأمم، قبل أن يقدموا على التعامل مع هذه الأمم عسكريا واقتصاديا وسياسيا. ويقال إن معاوية بن ابي سفيان، كان يضع كتاب تاريخ الأمم تحت وسادته، ويقرأ في صفحاته كل ليلة، ورغم هذا كان ينفي لنفسه كل ما فيه من وقائع وحكم.

ولو قرأ الساسة الغربيون ما كتبه المستشرقون الغربيون عن الشرق الأوسط، وشعوبه، وتاريخه، بدراية وتأن ووعي تام، لما وقعوا في كثير من الأخطاء السياسية والعسكرية القاتلة، التي كبدتهم خسائر وكوارث كثيرة.

الساسة لا يقرأون

ولو قرأ الساسة الغربيون ما كتبه علماء الاجتماع العرب على وجه الخصوص، كعلي الوردي العراقي، وسعد الدين إبراهيم المصري، وأحمد البغدادي الكويتي، وبرهان غليون السوري وغيرهم، عن بني جلدتهم وتاريخ أمتهم الاجتماعي، لغيروا الكثير من خططهم، وتوجهاتهم، وأفكارهم نحو العرب والشرق الأوسط عموما. ولكن الخطأ الكبير الذي

يقع فيه معظم الساسة والقادة في الغرب، أنهم يقررون خططهم وسياساتهم نحو العرب والشرق الأوسط، على أساس وبموجب التقارير التي تصلهم من وزارة الخارجية، التي تتلقى بدورها تقارير السفراء والقناصل القابعين في مكاتبهم الفخمة والمكيفة، وهم يرون الواقع العربي من خلف ستائر (الماركيزت) ومن خلال حفلات الكوكتيل التي يغشونها، ويقرأون الواقع العربي من خلال كتبة الأعمدة اليومية في الصحافة العربية، ومن خلال تعليقات المعلقين الدينيين والقوميين، في الفضائيات العربية.

ولو سألنا أنفسنا : كم قنصلا أو سفيرا غربيا في الشرق الأوسط قرأ علي الوردي، أو هشام شرابي، أو سعد الدين إبراهيم، أو أحمد البغدادي، أو برهان غليون، لما وجدنا نسبة من هؤلاء تتعدى الثلاثة أو الأربعة بالمائة. ولو ذهبنا إلى أبعد من ذلك، وسألنا أنفسنا: كم عدد القناصل والسفراء الأجانب، الذين قرأوا عبد الرحمن بن خلدون، ومقدمته المشهورة في علم الاجتماع، وكيف حلل الواقع والمجتمع العربي قبل ستة قرون، وكيف ينطبق هذا التحليل الذي مضى عليه حتى الآن أكثر من ستمائة سنة على الواقع العربي الحالي، وكأن العرب لم يتغيروا، ولم يتبدلوا، ولم يتطوروا منذ ستة قرون إلى الآن، وكأن عبد الرحمن بن خلدون قد أفاق من قبره، ونظر إلى العالم العربي الآن بأسى وألم وكتب ما كتبه قبل ستمائة عام ويزيد، فستكون الإجابة أقل من تلك النسبة بكثير.

بوش لم يقرأنا

فلو قرأ جورج بوش مثلا ، ما كتبه على الوردي عالم الاجتماع العراقي (ابن خلدون العراق) عن تركيب المجتمع العراقي، وعن طبيعة

الشخصية العراقية، وعن حال الشعب العراقي الثقافي والديني والاجتماعي، والتركيب الديني والقبلي لهذا الشعب، لتردد كثيرا في القيام بحملته العسكرية، التي أدت إلى خلع صدام حسين، فجر التاسع من نيسان 2003 ولربما لجأ بوش والإدارة الأمريكية إلى طرق أخرى غير الأسلوب العسكري في تغيير النظام السياسي العراقي. ولربما لجأ أولا، إلى تغيير البنية الثقافية، وإصلاح البنية الدينية، لتكون قابلة ومتقبلة للإصلاح السياسي، الذي هدفت إليه الحملة الأمريكية - البريطانية العسكرية على العراق 2003 فقد ثبت للقاصي والداني، وللأعمى والبصير، وللشيخ والصغير، أن العالم العربي قبل بذار الديمقراطية، كان بحاجة إلى حراثة عميقة، ومحاريث ضخمة، ذات أذرع طويلة، لكي تقلب وتحرث التربة الثقافية والاجتماعية والتراكمات الفقهية الدينية التي شكلتها النظم السياسية والمصالح السياسية على مر العصور العربية - الإسلامية، وما زالت تشكلها حتى الآن.
لقد اعتنى الساسة الغربيون دائما بالبذور، قبل عنايتهم بالأرض، وبكيفية تحضيرها لزراعة هذه البذور.
ظنوا أن بذورهم تصلح لكل زمان ومكان، ولكل طقس، ولكل تربة، صالحة كانت أم مالحة، غنية كانت أم فقيرة.
وهذا هو الخطأ الكبير الذي ارتكبه هؤلاء الساسة، ومن ورائهم بعض الليبراليين العرب الداعين إلى التغيير والتطوير.

رسالة ابن خلدون

يقول ابن خلدون موجها رسالته إلى من لا يعرف العرب، ومنهم الرئيس بوش:
إن العرب نتيجة "لخلق التوحش الذي فيهم، أصعب الأمم انقيادا

بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة. فقلما تجتمع أهواؤهم." (المقدمة، الدار التونسية، ج1، ص 199).

ويقول كذلك:

"إن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك. والسبب في ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم وأبعد مجالا في القفر، لاعتيادهم الشظف (الضيق والشدة) وخشونة العيش، فاستغنوا عن غيرهم، فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحش." (ص 200).

وعن طريقة كيفية حكم الشعب العربي، لا يحتاج الحكام العرب في الماضي والحاضر إلى قراءة كتاب "الأمير" لمكيافيللي لكي يتعلموا فن السياسة وكيفية أن يسوس هؤلاء الحكام قطعان الأنعام من شعوبهم. فيكفيهم قراءة ما قاله ابن خلدون في مقدمته:

"سياسة الملك والسلطان تقتضي أن يكون السائس وازعا بالقهر، وإلا لم تستقم سياسته." (ص200).

وهذه هي العبارة المخفية، التي يعلقها الحاكم العربي في صدره الآن، كالتعويذة و(الحجاب)، ويضعها تحت وسادته، ويعلقها في صدر غرفة نومه مكتوبة بماء الذهب، ومؤطرة بإطار مذهب سميك وفخم، مقابل لوحة أخرى كاذبة وخادعة، يعلقها الحاكم العربي في صدر مجلسه، أمام الناس، تقول : "العدل أساس الملك" !

إن العرب "انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين، فنسوا السياسة، ورجعوا إلى فقرهم، وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الانقياد وإعطاء النصفة (العدل)، فتوحشوا كما كانوا، ولم يبق لهم من اسم الملك إلا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم." (ص201).

نعم، يا سيدي عبد الرحمن بن خلدون، لو نهضت من قبرك الآن،

لأصبت بالفجع من منظر العرب الآن مذهبا أمام مرآة العالم، ولرأيت العرب قد توحشوا الآن ، كما كانوا، وكما قلت منذ ستة قرون.

إن العرب "لما ذهب أمر الخلافة وامحى رسمها، انقطع الأمر جملة من أيديهم. وأقاموا في قفارهم، لا يعرفون الملك، ولا سياسته. وقد يحصل لهم في بعض الأحيان غلب على الدول المستضعفة، فلا يكون مآله وغايته إلا تخريب ما يستولون عليه من العمران." (ص202).

ولنا من استيلاء سوريا على لبنان، واستيلاء العراق على الكويت، خير دليل حديث على ما يقوله سيدنا ابن خلدون، منذ قرون طويلة.

وانظر كيف يصور ابن خلدون حال بغداد، وكأنه يحمل الآن كاميرا تلفزيونية، وينقل لنا صورا حية مباشرة من العراق:

"بويع إبراهيم بن المهدي فوقع الهرج ببغداد، وانطلقت أيدي الزعرة (الزعران) بها من الشطار (اللصوص والمجرمين) ، والحربية (ناهبو المال) على أهل العافية والصون، وقطعوا السبيل، وامتلأت أيديهم على نهاب الناس (ما نهبوه من الناس) ، وباعوها علانية في الأسواق، واستعدى (استنصر) أهلها الحكام فلم يعدوهم (ينصروهم)."

أليس هذا ما جرى في العراق صباح التاسع من نيسان/ابريل 2003 من نهب وسلب، وما زال يجري حتى الآن، حيث انتشر الزعران واللصوص وقطاع الطرق في بغداد وغير بغداد، واستنجد الشعب العراقي بجيرانه من العرب فلم ينجدوهم بل فتح بعضهم حدوده لإرسال المزيد من الزعران واللصوص والمجرمين، تحت راية المقاومة. فكانت المقاومة بالنسبة لهم تعني هدم المساجد، وتدمير الحسينيات، وخطف النساء، وقتل المواطنين الأبرياء، وتفخيخ السيارات، وقتل رجال الجيش والشرطة. حيث المقاومة تعني لهم بهذا هدم الوطن، وقتل مواطنيه.

ابن خلدون المكروه

لقد قسا ابن خلدون على العرب - في رأي الكثيرين من القوميين - قسوة كبيرة حين رمى العرب بطبيعة التوحش، وأنهم لا يتغلبون إلا على البسائط كقوله: "إنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث (الافساد). ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة، ولا ركوب خطر." (ص 197).

كذلك سخط العرب المحدثون على ابن خلدون إلى الحد الذي دفع بعض السلطات التربوية والتعليمية في العالم العربي إلى حذف كل ما قاله وكتبه ابن خلدون من مناهجها، وعدم تدريس آثاره في مدارسها ومعاهدها. وتطبيق الحظر عليه كما هو الحال بالنسبة لماركس، وداروين، وفرويد من المحظورين. وزاد من نقمة هؤلاء العرب، عندما أقر واعترف ابن خلدون أن العرب إذا تغلبوا على الأوطان أسرع اليها الخراب، وقوله الصريح في هذا : "والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم. فصار لهم خلقا وجبلة. وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم، وعدم الانقياد للسياسة. وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له. فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب (الانتقال)، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له. فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس. وأن رزقهم في ظلال رماحهم." (ص198). وذلك طبقا للحديث النبوي: (جعل رزقي تحت ظلال رمحي.)

ولو قرأ السياسيون الغربيون، وعلى رأسهم الرئيس بوش، رسالة ابن خلدون في طبيعة العرب لفكر ألف مرة، قبل أن يفعل ما فعله بالعراق. خاصة عندما يقول ابن خلدون:

"العرب متنافسون في الرياسة. وقل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره

ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته، إلا في الأقل وعلى كره من أجل الحياء، فيتعدد الحكام منهم والأمراء، وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام، فيفسد العمران وينتقض." (ص 198).
هذا ما كان من حال العرب قبل ستة قرون، فماذا تغير الآن؟

سبب شهرة ابن خلدون

هل كانت آراء ابن خلدون في العرب على هذا النحو من الصراحة والشجاعة وقوة المنطق وعقلانية التفكير، سببا في شهرته في الغرب هذه الشهرة المدوية، وإشادة المستشرقين به، وانكبابهم على دراسة آثاره، وتتبع مسارات تفكيره، مما دفع مستشرقا كالمستشرق ليفي بروفنسال ليقول: "إن صفات العبقرية عند ابن خلدون تتجلى في كونه أحرز قصب السبق في مجالات المعارف الإنسانية، مما جعله في مسار يثير نزعة المعاصرين له من المؤرخين" ؟

إن أهم ما قدمه لنا ابن خلدون نحن العرب، هو أنه كان أول من نقد الذات العربية نقدا علميا، وتاريخيا، وواقعيا. فمن هنا نبدأ. ولم يجرؤ مؤرخ من أمثال الطبري، والمسعودي، وابن الأثير، وغيرهم على دراسة التاريخ العربي بعمق وبنظرة نقدية فارزة، كما فعل ابن خلدون. فمثل هؤلاء المؤرخين كانوا كتبة للتاريخ وليسوا بمؤرخين. وهم يسجلون الوقائع فقط، مثلهم مثل كتاب الأرشيف. فهم لا يقدمون لنا أكثر مما هو واقع. في حين كان ابن خلدون يقدم لنا ما وراء الواقع، وهو ما لم يقدر عليه المؤرخون الآخرون. وقد شرح ابن خلدون منهجه الاستقرائي والاستنتاجي والتحليلي هذا في كتابة التاريخ العربي بقوله:

" فأنشأت في التاريخ كتابا، وأبديت فيه لأولية الدول عملا وأسبابا. وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا، واخترعته من بين المناحي مذهبا

عجيبا، وطريقة مبتدعة وأسلوبا، وشرحت من أحوال التمدن والعمران، وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية، وما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها."

وبهذا سبق ابن خلدون الفيلسوف كانت Kent في إرساء نظرية التفكير النقدي الهادف للتاريخ والحضارة. وهذه النظرية هي لب النقد الذاتي، الذي نحن بحاجة إليه الآن، والذي بدأه ابن خلدون منذ ستة قرون، وتابعه ابن رشد وابن الهيثم. ثم انقطع في عصور الانحطاط، وعاد الآن من جديد على أيدي المفكرين الليبراليين العرب. ولكن من قاموا بالنقد الذاتي المتواضع حتى الآن يكفرون، وينبذون، ويحاربون، ويتهمون بأنهم يناصرون الغرب وسياسة الغرب وعدوان الغرب، وبأنهم جالدو الذات الذين لا يكفون عن جلد الذات العربية ارضاء لأسيادهم في الغرب!

لم يتغير حالنا

من خلال هذه اللمع الخلدونية، يمكن أن نفهم العرب قبل ستمائة سنة، وكذلك الآن. فالحال لم يتغير، بعد مضي ستة قرون. ولو قرأ جورج بوش رسالة ابن خلدون في العرب قبل ستمائة سنة، وطبقها على واقع العرب الآن لما قام بحملته العسكرية على العراق 2003، ولعلم أن العالم العربي كله مستنقع، وليس العراق فقط. وعليه أولا أن يطلب من علماء وخبراء الزراعة أنجع الطرق لتجفيف هذا المستنقع أولا ، ومعالجته، وتنظيفه، من كل أوساخه وقذاراته وفضلاته، قبل أن يضع قدمه فيه، وقبل أن يخطو فيه خطوة واحدة.

## ديمقراطية النفايات!

* بعد التاسع من نيسان 2003 المجيد، الذي أسقط النظام العراقي البائد المستبد، ولم يسقط بغداد كما يدعي الراجفون. فبغداد ما زالت عاصمة عربية شامخة، وستبقى عاصمة النور العربي، خاصة بعد هذا التاريخ الذي أشعل ثورة الحرية والديمقراطية في العالم العربي، والتي تجلت بوقوف زعيم كوليد جنبلاط، أمام حشد من أكثر من مليون لبناني ولبنانية، ليعلن أسماء الزعماء العرب الإرهابيين والعبيد المستبدين على رؤوس الأشهاد. وما كان ذلك ممكنا قبل فجر التاسع من نيسان المجيد، الذي وصفته عشية سقوط الطاغية صدام، بأنه الفتح العظيم، الذي ما بعده من فتح في التاريخ العربي الممتد. وقد أثبتت الأيام، وستبثت في المستقبل أكثر فأكثر، أنه كذلك. فمنذ ذلك اليوم أصبحت الديمقراطية، هي شغل العرب الشاغل، وعقلهم الفاعل. وأصبحت الديمقراطية حديث المجالس والمدارس. ولكن الثقافة الديمقراطية، وعلم الديمقراطية، وكيمياء الديمقراطية الصعبة، لم تكن معلومة لدى غالبية الشعب العربي، الذي حرم من هذه التفاحة السياسية، وهي الديمقراطية بعد مقتل الخليفة عمر بن الخطاب، إلى يومنا هذا. والدليل على ذلك، أننا نخلط بين الأوراق والمفاهيم، ونبعر كما تبعر الإبل، ونعتبر كل من جاء من صندوق

الاقتراع، وفاز، فتلك هي الديمقراطية التي نفخر ونعتز. وأصبحت نظرتنا إلى الديمقراطية نظرة ضيقة، ضيق فتحة صندوق الانتخابات، الذي تحول في ظل الأنظمة الديكتاتورية، في معظم انحاء العالم العربي، إلى صندوق نفايات.

كيف لعبنا ديمقراطية النفايات؟

دعونا نترك التنظير قليلا، ونذهب إلى أرض الواقع العربي، أرض الرماد والسواد، لنر كيف لعبنا لعبة ديمقراطية النفايات، على الطريقة العربية والإسلامية.

لقد حولت الديكتاتورية والتوتاليتارية العربية بعد الاستقلال، صندوق الانتخابات الأبيض إلى صندوق نفايات أسود، بممارستها التزوير، والكذب، والبهتان، وتزوير الفرقان. وأصبح صندوق الانتخابات، هو صندوق العجائب السياسية العربية، الذي تخرج منه أفاع بتسعة وتسعين رأسا.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، نجح حافظ الأسد في الماضي، وفي دورات انتخابية مختلفة، وبنسب مطلقة، وسينمائية مضحكة، ومن خلال صناديق الاقتراع. فهل كان نجاحه ذاك نجاحا ديمقراطيا ، عندما لا يكون له منافس قط؟ ولا يجرؤ أحد أن يكون منافسه. فهو المرشح الوحيد، والناجح الوحيد، والرئيس الوحيد. وكان من حق العالم الحر، أن يسخر من هذه النتائج المطبوخة سلفا، ذات الرائحة الكريهة، التي تزكم الأنوف، والتي أحالت صناديق الاقتراع من صناديق انتخابات إلى صناديق نفايات، ومن صناديق للرأي إلى صناديق للبغي.

ألم يستفت لصدام المهزوم قبل شهر من سقوطه المدوي بالدم، وبنسبة مائة بالمائة، ومن خلال صناديق الانتخابات، التي حولتها

الديكتاتورية العربية إلى مباول، يبول فيها الناخبون كل أربع أو ست سنوات، حيث لا مباول نظيفة في الشوارع العربية؟

فهل هذه هي الديمقراطية، التي نلوم الغرب والليبراليين العرب الجدد على رفضها؟

وقس على ذلك مجموعة من الرؤساء العرب، الذين يحكمون شعوبهم منذ عشرات السنين، ومن خلال صناديق الانتخابات التي حولوها إلى صناديق نفايات، وأصبحت الديمقراطية العربية ديمقراطية نفايات.

ديمقراطية الجوعى

كيف يمكن للجوعى أن يختاروا الاختيار السليم؟

هذا ما حصل في فلسطين في بداية 2006، وهذا ما حصل كذلك في مصر، في الانتخابات التشريعية، التي حملت حركة "حماس" إلى السلطة، وحملت حركة الإخوان المسلمين إلى مجلس الشعب لاحتلال 88 مقعدا، ونسبة 20 بالمائة من عدد مقاعد مجلس الشعب المصري.

لقد انتهز الإخوان المسلمون وحركة حماس، جوع الشعب الفلسطيني وبطالته، وكذلك الشعب المصري. وقدموا لهذين الشعبين ما لم تستطع الدولة والحزب الحاكم المنافس لهما أن يقدماه. فظن الناخب الجائع والعاطل عن العمل، أنه بانتخابه "حماس" وحركة الأخوان المسلمين، سوف يشبع إلى الأبد. وأن وصول هذين الحزبين إلى الحكم، سوف يحيل البلاد إلى بلاد السمن والعسل. ولم يدرك الناخب الواهم والمخذول، خذلان الصياد للطريدة، بأن ما يراه هو طعم الصيادين فقط، وليس طعام الكرماء. هو الطعم الذي يقدمه الصياد للفريسة لكي يصطادها، وليس لكي يطعمها كل يوم. وما إن يصطادها الصياد، حتى يطعم نفسه بها،

ولا ليطعمها. وهذا ما حصل في فلسطين ومصر. ففي فلسطين، توقفت كل المساعدات المالية الخارجية للشعب الفلسطيني، بعد فوز حماس في الانتخابات التشريعية، وأصبح الشعب الفلسطيني رهينة "حماس". وفي مصر هربت الاستثمارات وتوقفت الاستثمارات الجديدة كما حصل في بداية ثورة 1952، بعد نجاح الإخوان المسلمين الكاسح في الانتخابات التشريعية. وقال المستثمرون الأجانب والأقباط الوطنيون داخل مصر، بأنهم سينقلون استثماراتهم إلى الخارج في حالة وصول الإخوان المسلمين إلى الحكم. وهكذا أكل الشعبان الفلسطيني والمصري الطعم الديني السياسي لمرة واحدة، وجاع إلى الأبد، وهو في قبضة هذين الحزبين الدينيين.

إيران وديمقراطية النفايات

وفي إيران حصل الشيء ذاته، مع أحمدي نجاد، ومع خمسة رؤساء قبله، منذ 1979 حتى الآن، لكي يقال لنا بأن الانتخابات الإيرانية انتخابات ديمقراطية، تمثل إرادة الشعب المكبل بأغلال الملالي والحرس الثوري. وجاءت بها صناديق الانتخابات التي حولها الملالي والمؤسسة الدينية الإيرانية إلى صناديق نفايات حقيقية كذلك.
فكيف تكون الانتخابات في إيران ديمقراطية، ومحرم على المرأة الترشح لها، علما بأن المرأة الإيرانية، تشكل أكثر من نسبة 52 بالمائة من عدد السكان، وهي أول امرأة مسلمة تفوز بجائزة نوبل ؟
فأين رئة المجتمع الثانية، في هذا الزيف، الذي يطلق عليه ديمقراطية؟
وكيف تكون الانتخابات ديمقراطية، واختيار المرشحين يخضع لسلطة رجل واحد، هو إله الإيرانيين على الأرض، الذي لا ترد كلمته. وإن قال لشيء كن فيكون. وهو أقوى سلطة من النبي محمد ذاته عليه السلام.

فقد كان الصحابة يختلفون بالرأي مع النبي، وعلى رأس هذا الخلاف، كان "صلح الحديبية" المعروف. أما المرشد الأعلى فلا أحد يجرؤ على الخلاف معه. والنبي محمد عليه السلام، لم يلقب بآية اللـه العظمى. وإن كان قد لقب ونحن لا نعلم، فلا يجوز أن يلقب بلقب المرشد الأعلى نفسه. والمرشد الأعلى هو الذي لا تعلوه سلطة غير سلطة اللـه. بمعنى أن اللـه في منـزلة، والمرشد الأعلى في منـزلة تالية له رأسا. فهو ظل اللـه على الأرض، بل هو كرسي اللـه وعرشه على الأرض. وهو كبابا الكنيسة وحبرها الأعظم في القرون الوسطى، الذي كان لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون. فالخميني، عندما أصدر فتوى بمنع الحج للإيرانيين لمدة ثلاث سنوات، لم يجرؤ أحد على اعتراض ذلك، ولكن عندما قام كمال أتاتورك بذلك في 1924، وبعده الحبيب بورقيبة، قامت الدنيا، ولم تقعد.

فأية ديمقراطية تلك التي هي في إيران؟

وكيف تكون الديمقراطية، عندما ينتقي المرشد الأعلى آية اللـه العظمى، الذي ما بعده من آية، ولا سورة ولا كتاب، من بين ألف مرشح ثمانية مرشحين فقط لرئاسة الجمهورية، كما فعل في المرة الأخيرة، وهؤلاء هم من أعلنوا البراء وأقسموا الولاء، ولا يوجد بينهم ليبرالي إصلاحي واحد. وإنما هم جميعا من الحوزة الدينية الكهنوتية، أو من حراسها ونواطيرها، وآكلي لحمها، وشاربي لبنها، وسارقي خزائنها، والذين ترضى عنهم الآلهة الإيرانية؛ أي المرشد الأعلى؟

وأين هي الديمقراطية عندما يحرم الليبراليون من الترشح، ويطاردون في الانتخابات مطاردة الكلاب الضالة، حتى لا يمارسوا حقهم الانتخابي، ثم تفاخر إيران الملالي، ويفاخر الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية الأخرى والكتاب الإسلامويون والجهلة من المرجفين، بأن هذه

انتخابات ديمقراطية، وأجريت بموجب الدستور الذي وضعته المؤسسة الدينية التي نهبت إيران، بحيث أصبح الإيرانيون يترحمون على أيام الشاه الطاغية. ومثال ذلك ما أصبح عليه الملا هاشمي رفسنجاني الرئيس الإيراني السابق، أغنى أغنياء إيران الآن، ورقم 47 بين أغنياء العالم .

وأين هي الديمقراطية، عندما يجوز للمرشد الأعلى عزل رئيس الجمهورية بفتوى، وتثبيته أو عدم تثبيته في مركزه، حتى وإن فاز في الانتخابات بفتوى أيضا؟

وكيف يستقيم منطق الديمقراطية الإيرانية، عندما تحرم هذه الديمقراطية سائر حقوق المواطنة لغير المسلم، ولغير المسلم الشيعي، ولغير الرجل الشيعي، ولغير الشيعي الجعفري أيضا؟

هل سمعتم ما قالته شيرين عبادي، داعية حقوق الإنسان الإيرانية، والحائزة على جائزة نوبل، بحق حكم الملالي، والديمقراطية الإيرانية المزيفة:

" إن حكم الملالي قد أعاد إيران مئات السنين إلى الوراء، والى حكم القرون الوسطى".

وبحيث أصبح الإسلام الإيراني الآن، أشد خطرا على العالم العربي، والعالم كله من الشيوعية في عز أوجها.

التجاوز شرط التحقيق

ولكن لا بأس، فكل هذه الانتصارات للتيارات الدينية في إيران، وفي فلسطين، وفي مصر، وفي لبنان، هي في النهاية لصالح التيار الليبرالي الجديد. وهي خطوة حاسمة لتجاوز الإسلام التقليدي والأصولي للانتقال إلى الحداثة تطبيقا لمبدأ فلسفة التاريخ الهيجلية "التجاوز شرط التحقيق". وليس كما اعتبرها أستاذنا العفيف الأخضر في عام 1979 من

أن انتصار الأصولية في إيران كان تدشينا للعودة بالعالم الإسلامي إلى القرون الوسطى، ثم تراجع عن هذا الاعتبار فيما بعد.

تداول السلطة بين الأجيال

إن الديمقراطية، التي لا يريد العرب معرفتها، ليست في صناديق الانتخابات، التي تتحول إلى صناديق للجنايات السياسية في ظل ممارسات الأنظمة الديكتاتورية المزيفة للديمقراطية.

الديمقراطية هي تداول السلطة بين الأجيال، وليس بين الرجال فقط.

فالحاكم العربي والمسلم، لا يعزله منذ 14 قرنا غير الموت، ما عدا الحاكم التركي الحديث الذي يحكم بديمقراطية الغرب، وليس بديمقراطية العرب والإسلام، الذي نفى أحمدي نجاد أن تكون هذه الديمقراطية في الإسلام .

ليست الديمقراطية في صناديق الاقتراع، ولكن الديمقراطية في من يضع الاختيار في صناديق الاقتراع.

فلكي تختار بصدق وحقيقة، يجب أن تكون حرا، وشبعان، وآمنا، وواعيا، وعارفا، وعاملا

والديمقراطية، هي الاعتراف بحقوق المواطنة الكاملة للجميع، دون تمييز بين طائفة وأخرى، وبين عرق وآخر، وبين دين ودين.

والديمقراطية، هي التفكير الحر، المطلق الحرية.

والديمقراطية هي العلمانية. ولا ديمقراطية بدون علمانية.

هذه هي الديمقراطية التي يعرفها ويفهمها الليبراليون الجدد، ويصارعون من أجل تطبيقها في العالم العربي، ولو بعد ألف سنة!

محنة أحمد البغدادي
وتجديد الفكر الديني

ü صدر في عام 2005 عن إحدى المحاكم الكويتية، حكم بإدانة المفكر الكويتي الليبرالي د. أحمد البغدادي، بتهمة "الإساءة للإسلام"، وهي تهمة سياسية أكثر منها دينية، نتيجة للدعوى التي رفعتها عليه السلفية الكويتية، وهي التي تترصده، وتعد أنفاسه نفسا نفسا، منذ العام 1999، وتتحين الفرص لكي توقعه في شباكها.
لم يكن المفكر البغدادي مجرد صحافي عابر ومهاتر، يسعى إلى الشهرة، فلم يجد طريقا إلى الشهرة الزائفة، غير الهجوم على الإسلام.
فأحمد البغدادي، عندما كان ينتقد السلفية الدينية، كان ينتقدها من موقعه الأكاديمي والعلمي كأستاذ للعلوم السياسية في جامعة الكويت. فكان انتقاده لجهل السلفية من موقع العلم بهذا الجهل، ولم يكن من موقع الجهل بهذا الجهل.
وأحمد البغدادي، عندما كان يتحدث عن خطورة الدولة الدينية وجرائمها، كان يتحدث من خلال معرفته بالتاريخ، وتاريخ السياسة الدينية الماضي والحاضر، وليس من خلال أيديولوجية متعصبة وعقيدة متصلبة، غير قابلة للأخذ والعطاء، كما الحال عند السلفية، التي استطاعت إقصاءه عن الحلبة الثقافية، لكي تتفرد هي وحدها بالرأي العام الكويتي.

هدف البغدادي

لم تكن غاية أحمد البغدادي من كشف فضائح الجماعات السلفية الإرهابية المسلحة وآثامها، والتي ألحقت أضرارا بالغة بالأمة وبقضاياها وبمصيرها، أن يكون في عداء مع الدين القويم السمح، الذي لا تعرفه هذه الجماعات. ولو عرفته كما عرفه الشيخ الأزهري المصلح أحمد صبحي منصور مثالا لا حصرا، أو كما عرفه الشيخ خالد محمد خالد، أو خليل عبد الكريم، والذين يثبتون، أن لا دين سماويا منح الحرية للمفكرين كما منحها الإسلام.. نقول لو عرفته وعرفت أن الإسلام هو دين الحرية، لما حجرت على آراء المعلم أحمد البغدادي، ولما استعانت بالسلطة السياسية والقضائية في هذا الحجر.

فالذي يعادي الدين السمح القويم، كان على مر العصور كالتيس الذي يناطح الصخر، والذي قال فيه شاعر العرب الأعشى:

كناطح صخرة يوما ليوهنها

فلم يضرها، وأوهى قرنه الوعل

ولعل السؤال الذي يطرح هو: كيف أن السلطة السياسية تعلم أن السلفيين يسعون إلى الاستيلاء على السلطة، ورغم هذا فهي تدعمهم؟

وهذا غير صحيح، وخاصة في الكويت. ولعل الخلاف القائم بين السلطة وبين السلفيين في قضية ترشيح المرأة، وانتخابها للبرلمان، خير دليل على ذلك. ولكن السلطة في بعض الأحيان، تسعى إلى عدم قطع شعرة معاوية بينها وبين السلفيين، درءا لشر أكبر، واتقاء لنازلة أضخم، وتحاشيا لقارعة أعظم.

كيف ندافع عن البغدادي؟

إن أكثر الوسائل إقناعا ونجاعة للدفاع عن أحمد البغدادي، هو شرح

فكره واستعراضه في وسائل تجديد الفكر الديني، ودعوته لاستخدام العقل في هذا التجديد من خلال ما هو قائم من منطق العصر، والظروف الدولية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، المحيطة بعالم العرب والمسلمين. مع الأخذ بعين الاعتبار الأكيد، أن العرب والمسلمين في هذه البقعة من العالم، ليسوا وحدهم على كوكب الأرض. وأن تقاطع المصالح وتشابك العلاقات، أصبح من أهم مميزات هذا العصر. وأن العالم قد تغير بعد انتهاء الحرب الباردة، وسقوط الاتحاد السوفياتي، وبعد كارثة 11 سبتمبر 2001 وأن على الإسلام والمسلمين أن ينظروا لمصلحة الآخر قبل النظر إلى مصالحهم، إن كانوا يريدون من العالم الآخر أن ينصفهم في قضاياهم، ويتشيع لهم في صراعاتهم، ومعاركهم السياسية، والاقتصادية، والعسكرية. فالعالم لم يعد إمبراطورية عربية - إسلامية، كما كان من قبل، تمتد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. العرب اليوم أمة، بحاجة إلى الآخر علميا واقتصاديا وثقافيا وعسكريا، كما لم يكونوا بحاجة إليه في أي من الأوقات.

ومن هذا المنطلق يقوم المفكرون الليبراليون من أمثال أحمد البغدادي، بالدعوة إلى تجديد الفكر الديني واستعمال العقل في هذا التجديد، لكي يفوت الفرصة على السلفيين من أصحاب الثوابت والحرص على المنابت، لأن يجددوا هذا الدين كما يريدون وكما يشتهون، فتكون الطامة الكبرى، كما هي الطامة الآن في العالم العربي، والتي تتمثل في هذه الفوضى بالفتاوى والفتاوى المضادة، وفي هذا السباق من السلفيين إلى اعتلاء منابر الرأي السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، ليقذفوا من عليائها هذه القذائف اليومية، التي تدمر مسيرة الفكر والثقافة الحرة.

ضرورة تجديد الفكر الديني

منذ بدأ المعلم أحمد البغدادي المشاركة في تكوين الفكر العربي الليبرالى الجديد، وهو يركز على ضرورة تجديد الفكر الديني، والدعوة لاستخدام العقل في هذا التجديد. وهو خلال أكثر من عشر سنوات، استطاع أن يؤكد أن تجديد الفكر العربي الليبرالي، لا يمكن أن يتم دون القيام بتجديد الفكر الديني، الذي هو أساس وأس تجديد الفكر العربي. ولعل كتابه (تجديد الفكر الديني: دعوة لاستخدام العقل، 1999) والذي سوف نعرضه لاحقا، قد جاء ليؤكد هذه الحقيقة التاريخية العلميـة.

أسباب إعاقة تجديد الفكر الديني

فما هي الأسباب المعيقة لتجديد الفكر الديني عموما، للوصول إلى تجديد الفكر العربي، الذي يمثل الفكر الديني فيه النسبة الكبرى والمساحة الأوسع، علما بأن الإسلام دين مرن، فيه قابلية التجدد الفكري، الذي حدث في الماضي مرات عدة، وعلى مدار أربعة عشر قرنا، وتعسر في الحاضر؟

هناك أسباب عدة منها:

1- لا مستقبل عربيا مضيئا بعيدا عن الحداثة، أو إقصاء لها بخيرها وشرها. وهناك قطيعة واضحة بين الحداثة والفكر الإسلامي المعاصر في مجمله. بل تكاد تكون الحداثة في خطاب السلفية الفكرية الإسلامية هي العدو الأغشم، والشيطان الأكبر للدين. والسلفيون في هذه الحالة سيكونون بين مطرقة العصر وتحدياته، وبين ثوابت التراث وقيوده. وهم بذلك في وضع تراجيدي لا يحسدون عليه،

على حد تعبير برهان غليون. ويقفون بصلابة في وجه تجديد الفكر الديني.

2- يعتبر بعض المفكرين العرب، أن الدعوة الحداثية العربية هي التي أفزعت المجددين الفكريين الدينيين من التجديد الديني خاصة، عندما تم تفريغ الحداثة من القيم الأخلاقية، التي يتشدد الإسلام بالتمسك بها. وهذا الفزع من الحداثة هو الذي عطل التجديد لمن ابتغى التجديد الديني في الحاضر.

3- لقد تعرض الإسلام منذ مطلع القرن العشرين، وحتى الآن على أيدي الجيل الثاني من الليبراليين (طه حسين، قسطنطين زريق، علي عبد الرازق، خالد محمد خالد وغيرهم) إلى نقد علمي تاريخي، ترك ردة فعل عنيفة لدى المصلحين والمجددين الدينيين الذين اعتبروا ما أنتجه هؤلاء الليبراليون من فكر هو "هجوم على الإسلام"، وهو "مشروع تخريبي"، وليس "نقدا علميا". فتعطلت بذلك كل حركات التجديد الديني، كردة فعل لذلك الفعل.

4- إن معظم دعوات تجديد الفكر الديني جاءت من خارج الفكر الديني. وهي جاءت من الفكر الليبرالي بالدرجة الأولى. وكان وما زال كل ما يأتي به الفكر الليبرالي العربي فكرا منبوذا مرفوضا من السلفية الدينية، حتى وإن كانت فيه الفائدة. وإذا أريد لفكرة ما أن تقتل فليتبنها الليبراليون لكي يجهضوها، ويجهزوا عليها. حيث إنهم يتهمون ظلما، بأنهم يدسون "السم في العسل" كما هي السياسة الأمريكية اليوم بالنسبة لشعوب الشرق الأوسط، في رأي الشارع العربي السلفي الديني والقومي، على السواء.

5- كان الإسلام كقضبان الحديد في الخرسانة السياسية العربية، منذ بدء "دولة الرسول" في المدينة وإلى الآن. بل إننا نقول إن الذي لعب

دورا كبيرا في تشكيل الدولة العربية من العهد الراشدي إلى الآن، كانت السياسة وليس الدين وحده. ولم يكن هناك فارق بين التوظيف السياسي للدين في التاريخ القديم، وبين هذا التوظيف في العصر الحديث. كما لعب الدين ورجال الدين دورا أساسيا في التشكيل السياسي العربي بعد الاستقلال في بداية الخمسينات وحتى الآن. وأصبحوا - كفكر تشريعي، وتسويغي، وتبريري، وتحريضي، وتكفيري، وتحريمي، وتحليلي- من الأسس التي يقوم عليها النظام السياسي العربي ظاهريا وباطنيا. فكانت الدعوة إلى التجديد الديني، تعني ضمنا الدعوة إلى التجديد السياسي، وهو ما ترفضه السلطات السياسية القائمة، والتي ساهمت مساهمة كبيرة في عدم تجديد الفكر السياسي، لأن هذا يعني بالتالي ومباشرة تجديد الفكر السياسي للسلطات، والذي ل يمس ولا يجس

6- في السنوات الخمس الماضية، زادت مقاومة أية دعوة لتجديد الفكر الديني بعد وقوع كارثة 11 سبتمبر 2001، لربط الإصلاح الديني والتجديد الديني وتعديل المناهج الدينية المدرسية بهذه الواقعة، وما تبعها من أعمال إرهابية. حيث تم الربط بين الإسلام والإرهاب، وبين المسلمين والإرهابيين. وكانت تلبية أو قبول أية دعوة لتجديد الفكر الديني، معناه القبول بما يطرحه الغرب عموما وخاصة أمريكا (العدو الأول للمسلمين) من إصلاحات دينية مرفوضة رفضا باتا. ولكن غاب عن ذهن الجميع، أن مشاريع التجديد والإصلاح الديني مشاريع مطروحة منذ 150 سنة؛ أي منذ القرن التاسع عشر على أيدي جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وخير الدين التونسي، ورشيد رضا وغيرهم، ومن تبعهم بعد ذلك في النصف الأول والنصف الثاني من القرن العشرين. بل كان في تاريخ الفكر

الإسلامي دائما محاولات الكشف عن عدم التعارض (بين صحيح المنقول، وصريح المعقول) (ابن تيمية)، أو بين (الشريعة والحقيقة) (التصوف)، أو بين (الحكمة والشريعة) (ابن رشد)، كما يقول نصر أبو زيد (تجديد الخطاب الديني ضرورة معرفية، وليس استجابة لاستحقاقات 11 سبتمبر ).

7- ساهمت بعض الظروف الاقتصادية العربية، التي أدت إلى اغتناء بعض الدول العربية، في الحيلولة دون تجديد الفكر الديني. بل هي ساهمت على عكس ذلك في تثبيت السلفية الدينية، وخاصة الاقتصادية منها. وكانت مظاهر هذه السلفية الاقتصادية، انتشار ما يسمى بالبنوك الإسلامية، بدءا من العام 1973 لمحاربة البنوك الربوية، والتي هي علامة من علامات الحداثة الاقتصادية في العالم العربي. كما أن ارتفاع أسعار البترول، وتضخم ميزانيات الدول المنتجة للنفط في العالم العربي، عززا من تثبيت أركان السلفية السياسية المدعومة من السلفية الدينية دائما.

محنة العقل العربي: البغدادي أنموذجا

أحمد البغدادي، هو الشوكة الجارحة في حلق السلفية والرجعية الفكرية الكويتية. ومن هنا، كان أحمد البغدادي أول "سجين فكر" في تاريخ الكويت كله في 1999، عندما حكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر، فقامت لجان حقوق الانسان ومؤسسات حرية الفكر والثقافة في العالم، وفي العالم العربي تدافع عنه، وأخرجته من السجن، بمبادرة خيرة من أمير الكويت.

وفي 2005 ، نجحت السلفية الكويتية الظلامية مرة أخرى في جر أحمد البغدادي إلى محاكم التفتيش. ونجحت في تلفيق قضية ضده

بتهمة "الإساءة للدين الإسلامي". وحصلت على حكم بسجنه لمدة عام مع وقف التنفيذ، وبغرامة 2000 دينار كويتي، وبفرض الرقابة على مقالاته لمدة ثلاثة أشهر.. الخ. مما اضطر أحمد البغدادي إلى طلب اللجوء السياسي إلى أية دولة غربية في العالم. ومما اضطره أيضا إلى التوقف عن الكتابة نهائيا، في جريدة "السياسة" الكويتية، التي كتب فيها منذ سنوات طويلة. وأعلن بأنه لن يعود إلى الكتابة إلا بعد خروجه من الكويت.

محن كثيرة للمثقفين والعارفين

هل هناك محنة في الثقافة العربية المعاصرة أكبر من محنة أحمد البغدادي؟
وهل هناك محنة للعقل العربي المعاصر أكبر من هذه المحنة وأمثالها من المحن، التي أدت إلى قتل المثقفين العرب، وسجنهم، وطردهم من بلادهم، واضطرارهم إلى الهجرة، واللجوء السياسي في دول الغرب؟
لقد شهدنا في تاريخ الثقافة العربية الغابر محنا للمثقفين، من أمثال محنة الإمام أحمد بن حنبل المعروفة، والتي تحملها الإمام أحمد في شجاعة، ورفض الخضوع والتنازل في القول بمسألة (خلق القرآن)، وحمل الخليفة المأمون الناس والفقهاء على قبولها قسرا وقهرا.
ومحنة أحمد البغدادي، لم تكن في مسألة دينية خطيرة، كمسألة "خلق القرآن"، ولكنها كانت في مسألة الدفاع عن عقل الإسلام، حين عارض تحفيظ القرآن للصغار غيبا، حتى لا يتعودوا على التلقين، وتحجر العقول، كما نادى بذلك من قبل المفكر السعودي عبد الـلـه الحامد (جريدة "الحياة" 1999/1/10). وهي دعوة لصالح الإسلام، وليست ضده، لو

كانوا يعقلون. والبغدادي لا يقلل من قدر القرآن، بقدر ما يعني إدراك وظيفته الرسالية، إدراكا عقليا وواقعيا سليما.

لقد شهدنا في تاريخ الثقافة العربية الغابر محنا للمثقفين، من أمثال محنة الإمام مالك بن أنس (إمام دار الهجرة) بسبب حسد ووشاية بينه وبين والي المدينة جعفر بن سليمان. ويروى أنه ضرب بالسياط حتى شلت يده.

وأحمد البغدادي في محنة وبلاء، بسبب حسد ووشاية بينه وبين السلفيين الظلاميين الكويتيين، الذين كادوا له، وما زالوا يكيدون له كيد النساء. واستطاعوا أن ينتصروا عليه، كما فعلوا في السابق. وكما استطاعوا أن يضطروا الكاتب الليبرالي الكويتي الآخر عبد اللطيف الدعيج للخروج من الكويت، حيث يقيم الآن في أمريكا، ويكتب من هناك. وكما استطاعوا أن يخرسوا كثيرا من رموز الحداثة والليبرالية في الكويت، ويقفوا في وجه الدولة بأكملها، التي تريد للمرأة الكويتية حريتها وتمثيلها في البرلمان، وهم يريدون لها البيت، لا تبرحه، للخلف والعلف.

لقد شهدنا في تاريخ الثقافة العربية الغابر محنا للمثقفين، من أمثال محنة الإمام أبي حنيفة النعمان، ووقوفه في وجه ظلم الخليفة العباسي المنصور وطغيانه، الذي قتل أبا حنيفة بالسم. فنحمد اللـه على أن السلفيين الظلاميين لم يقتلوا المعلم البغدادي، كما فعلوا بفرج فودة، وحسين مروة، ومهدي عامل، ومحمود طه المفكر السوداني وغيرهم، وكادوا أن يقتلوا نجيب محفوظ، واكتفوا بإسكات المعلم البغدادي وطرده من الحلبة الثقافية، وربما دفعه إلى الهجرة، كما فعلوا مع نصر حامد أبو زيد، والشيخ الأزهري أحمد صبحي منصور المفكر والمصلح المصري الذي لجأ إلى أمريكا.

الميديا كارتا

(الميديا كارتا) التي تتفاعل وتتنامى، في الفضاء الغربي، تذكرنا بـ (العهد الأعظم ) أو (الماجنا كارتا Magna Carta ) التي صدرت عام 1215 في إنجلترا وأرخت لحقوق الإنسان، حيث نص هذا الميثاق، على إكساب الشعب الإنجليزي حقه في تجنب المظالم المالية. وضمنت فكرة حقوق الإنسان وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكي سنة 1776، بتأكيد هذه الوثيقة على الحق في الحياة، والحرية، والمساواة. وفي فرنسا وفي أثناء ثورتها، صدرت وثيقة حقوق الإنسان في 1789/8/26، وهي تعد إعلانا عن هذه الحقوق.

فهل تلتفت منظمات حقوق الإنسان لدعاوى الحسبة التي ترفع من قبل التيارات الإسلاموية على المثقفين والمفكرين الليبراليين، كأحمد البغدادي، وتحول بينهم وبين التعبير عن آرائهم كما تحول بينهم وبين الكتابة، وهي أداة الاتصال الرئيسية بين المثقف والجمهور؟

الفضاء العربي والإسلامي بحاجة ماسة إلى تطبيق قواعد (الميديا كارتا).

فالعالم العربي، يمنع دخول بعض الصحف والمجلات وكثير من الكتب.

والعالم العربي، يقيم الحدود والسدود على المواقع الإليكترونية على الإنترنت.

والعالم العربي، يمنع مفكريه ومثقفيه من التحدث في فضائيات معينة، تعادي أو تنتقد سياسته.

والعالم العربي، يتنصت على المكالمات الهاتفية لمواطنيه، ويراقب البريد الاليكتروني، والبريد الجوي والبحري والأرضي، ورسائل الفاكس.

والعالم العربي، يعتقل الكتاب والمثقفين، ويخطفهم ويقتل المفكرين

والصحافيين (فرج فودة، حسين مروة، محمود محمد طه، سيد قطب، مهدي عامل، رياض طه، سليم اللوزي، كامل مروة، ميشيل أبو جودة، رضا هلال وغيرهم).
والعالم العربي، يرسل طرود الموت للصحافيين (أحمد الجار اللـه).
وبالإجمال، فإن اتصالات المواطن العربي بالآخر في الداخل والخارج هي في قبضة الأجهزة الأمنية، والدينية، والبوليسية.
فالعالم العربي أحوج ما يكون إلى ثورة (الميديا كارتا).

ثورة الميديا كارتا

ما هي ثورة (الميديا كارتا) التي قامت في الغرب الآن؟
يقول ميثاقها الذي نشرته مجلة "آدبيسترزAdbusters " اليسارية الانجليزية في عددها الذي صدر في مطلع عام 2006:
"نحن الموقعين أدناه، نشعر بالضيق من طريقة صناعة المعلومات وانتشارها في مجتمعنا. لقد فقدنا الثقة في كل ما نسمعه ونشاهده ونقرأه. فنحن نتلقى الكثير من البرامج الترفيهية والقليل من الأخبار ، والكثير من القنوات والقليل من الجديد، والكثير من حملات الدعاية. وهذا النظام المعلوماتي التجاري قد دمر نظرتنا إلى العالم.
لقد فقدنا الثقة في إعلامنا. فحفنة من المؤسسات الإعلامية تسيطر على أكثر من نصف حجم الإعلام في العالم.
وفي الوقت الذي يعاني فيه الناس في كل أنحاء العالم من الجوع، والاضطراب الاجتماعي، والحروب، وعدم حماية البيئة، نجد أن النافذين هم من يعرفون كيف يمشون، ويتكلمون، ويدفعون الأموال الطائلة.
لقد فقدنا الأمل في إعلامنا الوطني.
لقد فقدنا الصبر في انتظار الإصلاح.

إننا نتخيل نظاما مختلفا لديمقراطية الإعلام. فنحن نرى وعودا عظيمة في نظام الاتصالات المفتوح على الانترنت، ونحن نريد هذا الانفتاح أن ينساق على أشكال الميديا كافة. إننا نسعى إلى نظام اتصالات عولمي ديمقراطي قائم على مشاركة المواطنين . فنحن نطالب أن تعاد مفاتيح الميديا للناس.

ونحن نطالب بحق شراء البث الإذاعي والتلفزيوني بشروط شركات الإعلان وقواعدها نفسها. ونطلب من منظمي الميديا أن يقفوا جانبا لمدة دقيقتين في كل ساعة بث لكي نقدم رسالة المواطن. ونطالب بتفتيت أكبر شركات الميديا الست إلى شركات صغيرة.

إننا نبحث عن حقوق الإنسان في عصر المعلومات الذي نعيشه الآن، والتي تقوي حرية الكلام مع ضمان حق الظهور في الميديا. وهذا الحق الجديد نطلق عليه حق الاتصال المعلوماتي."

ما أجدرنا نحن العرب بمثل هذا الميثاق، وما أحوجنا إليه في ظل هيمنة دولة أو دولتين أو ثلاث في العالم العربي على كل الماكينة الإعلامية العربية المشاهدة والمسموعة والمقروءة، حتى لا تقع في المستقبل القريب ضحية أخرى كأحمد البغدادي.

البغدادي والميديا كارتا

استطاع التيار الإسلاموي الكويتي، أن يحرم القراء الكويتيين والقراء العرب من مقالات الدكتور أحمد البغدادي، ويحول بين البغدادي وبين الكتابة والتعبير عن رأيه بحرية، مما أجبره على الكتابة خارج الكويت. وفي الوقت الذي بدأت فيه ما تسمى بثورة (الميديا كارتا Media Carta) بالتنامي، واتخاذ مكان كبير لها في الفضاء الغربي عامة، ظل العرب في الفضاء العربي والإسلامي، يدورون حول ساقية حرية المرأة، وساقية

تفعيل الاستحقاقات الديمقراطية، والقضاء على الأمية، وفصل الدين عن الدولة، وساقية محاربة الفساد السياسي والمالي، وعدم التوريث السياسي، وضرورة تعديل الدساتير وخلع البساطير.. الخ.. ظلوا يدورون حول هذه السواقي كالثيران. في حين أن الغرب تخلص من كل هذه الشرور، وحولها من شرور إلى خيرات، ومن سلبيات إلى إيجابيات. وانتقل الآن إلى المطالبة لحق جديد من حقوق الإنسان، وهو الإعلام الحر الشفاف والديمقراطي، كحق من حقوق الإنسان، وهو ما يسمى بـ (الميديا كارتا) أو المطالبة بحرية الإعلام .

ففي القرن الماضي، كانت المطالبة بحقوق الإنسان، تنحصر بالمطالبة بتحرير العبيد، وهي الشغل لمنظمات حقوق الإنسان. وكانت حقوق المرأة ونظافة البيئة كذلك، هي الشاغل لجماعات حقوق الإنسان. ولقد أصبحت كل هذه الحقوق وراء القرن الحادي والعشرين. أما حقوق الإنسان الجديدة التي أمام القرن الحادي والعشرين، فهي حقوق الإعلام (الميديا كارتا) والتي تشمل حرية التعبير المطلقة، وهي الآن الشغل لمنظمات حقوق الإنسان في العالم.

ضحية الإعلام

كان أحمد البغدادي، واحدا من المفكرين العرب الذين راحوا ضحية الإعلام المنفتح في الكويت، والذي يعتبر أكثر أنظمة الإعلام العربي انفتاحا بعد الإعلام اللبناني قبل 1975 وبعد فبراير 2005 فلقد توهم البغدادي وتخيل بأنه يعمل، ويفكر، ويكتب، ويجادل في مجتمع حر ديمقراطي حقيقي، وفي إعلام حر ديمقراطي واقعي، فوقع في شباك السلفيين، كما تقع الفريسة في شباك الصيادين في الغابة التي عادة ما تكون مغطاة بورق الشجر وأغصانه للتمويه وللإيقاع بالفريسة. وهكذا

كانت حرية التعبير، ذات القشرة الذهبية اللامعة، هي المطب الذي طب فيه البغدادي، وأدى إلى إصدار حكم ضده ولصالح السلفيين، ولكنه أدى إلى معاضدة الليبراليين من المثقفين العرب والكرد من سائر أرجاء العالم.

## محنة سيد القمني مع الإرهاب!

* قال الباحث والكاتب المصري سيد القمني، عبر مكالمة هاتفية تلقتها منه (إيلاف، 2005/7/16)، إنه قرر التوقف عن الكتابة والحديث لوسائل الإعلام والنشر في الصحف، والمشاركة في الندوات. ليس هذا فحسب، بل و أعلن "براءته" من كل ما سبق له نشره من كتب ومقالات وبحوث. وهذا هو الأعظم والأنكى والأفظع. وبرر كل ذلك؛ أي قتل نفسه حيا، والتنكر لكل ما قال وكتب، بأنه تلقى تهديدات جدية بقتله، إذا لم يقدم على هذه الخطوة، ولأنه " ليس راغبا في الموت بهذه الطريقة" - كما قال - فقد قرر الامتثال للتهديدات التي تلقاها عبر رسائل عدة في بريده الإليكتروني، ومن هنا فقد قرر أن يتوقف عن الكتابة والإدلاء بأية تصريحات صحافية، ورجا الذين هددوه أن يقبلوا موقفه، ويعدلوا عن تهديدهم إياه.

مرارة وحسرة

بمرارة وحسرة وألم شديد، نقول، إنه كان بودنا، وكنا نرحب، بأن يتخلى سيد القمني عن أفكاره السابقة عن قناعة شخصية ومعطيات فكرية جديدة، تثبت لنا وله، أنه كان على خطأ، لا أن يكون هذا

التراجع، وهذه "التوبة" تحت ضغط الجماعات الأصولية الإرهابية وتهديدها. وكنا نتمنى أن يتم التراجع والمراجعة الفكرية عن قناعة، ونتيجة لفكر جديد، وتصور جديد. فهذا كله عمل محمود، ومشروع، وخطوة مباركة. وعبد الخالق حسين ساق أمثلة عدة على ضرورة التغير الفكري. حيث لا يتغير إلا الحجر، الذي هو بدوره يتغير أيضا بفعل عوامل الطبيعة. فالفيلسوف الألماني نيتشه يقول: "الحية التي لا تغير جلدها تهلك، وكذلك البشر الذين لا يغيرون أفكارهم يهلكون."، والفيلسوف البريطاني برتراند راسل يقول: "أنا لست مستعدا أن أموت في سبيل أفكاري لأنها قد تتغير."، والمفكر الاجتماعي العراقي علي الوردي يقول: "الأفكار كالأسلحة تتبدل بتبدل الأيام. والذي يريد أن يبقى على آرائه العتيقة هو كمن يريد أن يحارب الرشاش بسلاح عنترة بن شداد".

فيا ليت القمني غير أفكاره، لأنها تغيرت من ذاتها فعلا، لا لأنه تحت تهديد الإرهاب الأصولي، لكنا رفعنا له القبعة تبجيلا

المفكر الجبان

سيد القمني: لقد كنت مثالا للمفكر الجبان، وتركت لدى الإرهابيين الأصوليين المجرمين انطباعا كاذبا، بأنهم انتصروا على الليبراليين، ولو شددوا علينا التهديد، فمن الممكن أن نتخلى عن أفكارنا وآرائنا، كما تخليت أنت جبنا وضعفا، وحبا في الحياة. وهذا من حقك الشخصي، ومن حق عائلتك وأطفالك عليك. ولكنك نصرت الإرهاب الأصولي على الفكر العقلاني الشجاع بتصرفك هذا.

لقد انتصر الإرهاب على التنوير.

انتصرت الغوغاء على الفكر العربي الحر.

ولكن لا بأس، فلست أنت أول وآخر من تخلى عن أفكاره في مصر

المحروسة، تحت التهديد والوعيد الغوغائي من خفافيش الظلام، ومن كارهي التنوير، وأعداء المستقبل من السلفيين الإرهابيين.

عقدة الذنب الدينية

فبعض مفكري مصر المحروسة سبقوك إلى التراجع، وليس المراجعة.
الشيخ علي عبد الرازق صاحب الكتاب القنبلة المدوية ( الإسلام وأصول الحكم، 1924) الذي قطع فيه، أن لا دولة في الإسلام، قال محمد عمارة بأن عبد الرازق قد ندم على كتابة هذا الكتاب. وأن ابنه (محمد علي عبد الرازق) قد شهد أمام محمد عمارة، بأن أباه كان قد قرر قبل موته 1970، أن يكتب كتابا ينكر فيه كل ما جاء في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) ولكن الموت لم يمهله. وهذا مثال على "عقدة الذنب الدينية" التي تميز بها الفكر المصري في القرن العشرين.
كذلك فعل طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي، 1926) حين استجاب لتهديد الغوغاء من الإرهابيين السلفيين، وألغى فصلا كاملا من كتابه التنويري، وأعاد نشره من جديد تحت اسم (في الأدب الجاهلي). وكتب بعدها مجموعة من الكتب الدينية: (الفتنة الكبرى)، (علي وبنوه)، (على هامش السيرة)، و( في مرآة الإسلام) .. الخ. تكفيرا عن "ذنبه" وإرضاء للغوغاء، وتخلصا من شرورهم، كما فعل الآن سيد القمني.
وهذا مثال ثان لـ "عقدة الذنب الدينية" التي تميز بها الفكر المصري في القرن العشرين.
كذلك فعل الشيخ خالد محمد خالد، حين أصدر كتابه (الدولة في الإسلام، 1981) واعتبر ذلك مراجعات وليس تراجعات، عما كتبه من إنكار للدولة الدينية في كتابـه التنويري (من هنا نبدأ 1950) تحت تهديد الجماعات الإسلامية التي قتلت السادات 1981، وهو عام صدور (الدولة

في الإسلام) نفسه، كما كان مثالا ثالثا على "عقدة الذنب الدينية" التي تميز بها الفكر المصري في القرن العشرين. وكنت أنت يا سيد، الرابع في هذه القائمة للأسف الشديد، ولن تكون الأخير في مصر في ظني واعتقادي، نتيجة لتحكم "عقدة الذنب الدينية" في الفكر المصري.

لست وحدك في المحنة

سيد: لست وحدك.

هل تعتقد يا سيد، بأنك كنت الوحيد، الذي يتلقى تهديدات بالقتل والسحل كل يوم. كلنا نحن معشر المفكرين الليبراليين، نتلقى كل يوم مثل هذه التهديدات. بل إنهم حاولوا قتلنا فلم نخبر، ولم نكتب، ولم نخف، ولم نتراجع. وقد سبق وهدد من قبلنا طوابير من المفكرين الليبراليين، فلم ينثنوا، ولم يخافوا، ولم يجزعوا، واستمروا في رسالتهم حتى النهاية.

فرج فودة المفكر المصري، لم يتخل عن أفكاره، وقضى نحبه شهيدا للفكر الليبرالي على يد الإرهابيين السلفيين.

حسين مروة المفكر اللبناني، لم يتخل عن أفكاره، وقضى نحبه شهيدا للفكر الليبرالي على يد الإرهابيين السلفيين.

مهدي عامل المفكر اللبناني، لم يتخل عن أفكاره وقضى نحبه شهيدا للفكر الليبرالي على يد الإرهابيين السلفيين.

محمود طه المفكر السوداني، علقه حسن الترابي على مشنقة جعفر النميري (أمير المؤمنين)، ولم يتخل عن أفكاره.

صادق جلال العظم المفكر السوري، لم يتخل عن أفكاره، ولم ينكر ما كتبه في (نقد الفكر الديني)، ولم يستجب لتهديد الإرهابيين السلفيين.

أحمد البغدادي المفكر الليبرالي الكويتي، لم يتخل عن أفكاره في

(تجديد الفكر الديني) وسجن وعوقب من قبل الإرهابيين السلفيين.
العفيف الأخضر المفكر التونسي الليبرالي، لم يتخل عن أفكاره، وطرد من جريدة "الحياة"، وكاد أن يموت جوعا ومرضا، وتعرض كل يوم للتهديد على يد الإرهابيين السلفيين.
نصر حامد أبو زيد المفكر الليبرالي المصري، لم يتخل عن أفكاره وكتبه، وهرب من مصر إلى هولندا، خوفا من تهديد الإرهابيين الأصوليين بتطبيق الحسبة عليه وعلى زوجته.

لماذا لا تكون شهيدا؟
لماذا لا تكون شهيدا يا سيد؟
لماذا لا تسير يا سيد على خطى شهداء الفكر والرأي الحر، كأبي ذر الغفاري، وابن المقفع، والجعد بن درهم، وغيلان الدمشقي، والسهروردي الإشراقي، وفرج فودة، وحسين مروة، ومهدي عامل، ومحمود طه، وأحمد البغدادي، وغيرهم؟
لماذا أعدت سيرة المتراجعين عن أفكارهم التائبين عن قيمهم الليبرالية من المصريين، كعلي عبد الرازق، وطه حسين، وخالد محمد خالد، ومحمد عمارة وغيرهم؟
كلنا يا سيد نطلب الشهادة في سبيل فكر الحرية الآن، في هذا الزمن المالح التعيس، وفي مدن الملح القاحلة من الحرية والديمقراطية والكرامة، التي نعيش فيها؟
كلنا ينتظر الساعة التي يقطع فيها الإرهابيون السلفيون رؤوسنا جزا كالشياه ، كما سبق أن جز الوالي خالد القسري في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك رأس الجعد بن درهم، صباح عيد الأضحى، في أسفل منبر المسجد. أو الشواء في الفرن، كما شوى الخليفة المنصور ابن المقفع. أو

الذبح كما ذبح الملك الظاهر الأيوبي (ابن صلاح الدين الأيوبي) الفيلسوف الإشراقي السهروردي في حلب. أو التعليق شنقا على بوابة المدينة كما تم تعليق غيلان الدمشقي. أو الموت في الصحراء جوعا وعطشا كما مات أبو ذر الغفاري في "الربذة" قرب المدينة المنورة، حين سجنه الخليفة عثمان بن عفان.

كيف لنا أن نبني عصر النهضة، دون هذه الشهادة، يا سيد؟

كيف لفجر التنوير العربي أن يبزغ، دون دماء المفكرين الليبراليين فداء له، يا سيد؟

فلننظر إلى شهداء الفكر في أوروبا، الذين فجروا عصر التنوير الأوروبي ماذا فعلوا، يا سيد؟

العرب المتخلفون

يعيش العرب الآن في القرن الثامن عشر الذي عاشته أوروبا، ولكن بوجهه القبيح المظلم، وليس بوجهه الجميل المنير المشرق. فهذا القرن الذي كان عصر التنوير الأوروبي، لم يك طريقا ثقافيا مفروشا بالحرير والزهور، بل كان طريقا شاقا دفع فيه فلاسفته ومفكروه حياتهم ثمنا غاليا. ولا بد أن نعلم أن عدم استمرارية عصر السحرة والمشعوذين والدراويش وتكاياهم وزواياهم في أوروبا في القرن الثامن عشر (وهو العصر العربي الآن، حيث يصرف العرب مليارات الدولارات سنويا على السحر والشعوذة) وسيادة عصر العلم والعقل، جاء نتيجة للتضحية الكبرى والمقاومة العنيفة التي أبداها رجال الفكر والعقل في عصر النهضة.

التنوير وثمنه الغالي

لم تكن أنوار عصر النهضة كلها أنوارا بهية مرحبا بها.

ولم تكن طرقات ومعارج هذه النهضة مفروشة بالحرير وفرو السمور الذي كان يتدثر به شيوخ الإسلام في العهد العثماني، بل تخلل عصر النهضة هذه، دماء أريقت، ومجازر نصبت، وأبرياء قتلت، وفرسان فكر سحقت، وكل هؤلاء كانوا فداء لعصر العقل المنير.

صحيح، أن الكنيسة في القرن الثامن عشر، كفت يدها عن حرق المفكرين وشوائهم على السفود (السيخ) كما فعلت في الماضي مع جاليلو وسافونارلاو، إلا أنها لم تك متهاونة مع المفكرين والفلاسفة. فظلت تلاحقهم من حين لآخر (كما يفعل الأزهر الآن) وتقوم بحرق كتبهم ومصادرتها ومنع تداولها. فكانت كتب فولتير، وروسو، وديدرو، وهلفتيوس، ودولباخ وغيرهم، من أحرار الفكر في قائمة الكتب المحرمة التي لا يسمح بقراءتها إلا بإذن من البابا نفسه (ول ديورانت، قصة الحضارة، ج40، ص 170). ولم يقتصر الاعتداء على حرية الفكر من قبل الكنيسة والدولة، ولكن تعداه إلى المجتمع نفسه الذي كانت بعض فئاته تناصب حرية الفكر والمفكرين الأحرار العداء. ففي انجلترا اشتد الهجوم على العالم بريستلي (1733-1804) لتأييده الثورة الفرنسية. فأحرق الرعاع الانجليز بيته في برمنجهام، وكسروا مختبره، وظلوا يجوبون الشوارع ثلاثة أيام، وهم يقسمون أنهم سيقتلونه، ويقتلون الفلاسفة كافة، إلى درجة أن أهالي برمنجهام علقوا على أبواب بيوتهم خوفا ورعبا من الإرهابيين لافتة تقول: "لا يوجد لدينا فلاسفة" (ول ديورانت، قصة الحضارة، جزء 35، 91).

وأحرقت الكنيسة في روما العالم الإيطالي برونو على سيخ الشواء في العام 1600 عقابا له على أفكاره، التي كانت ضد تعاليم الكنيسة.

وحاكمت الكنيسة في روما العالم الإيطالي الفلكي جاليلو، وطلبت منه التخلي عن أفكاره وسجنته وعذبته إلى أن أصيب بالعمى. وسجن

الملك هنري الثامن المفكر والفيلسوف الانجليزي توماس مـور (1478-1535) صاحب الكتاب المشهور (المدينة الفاضلة Utopia)، ثم أعدمه وعلق رأسه فوق جسر لندن. وقتل الرعاع الفرنسيون الفيلسوف الفرنسي بيير راموس (1515-1572) في بيته رميا بالرصاص، ثم ألقوا بجثته من نافذة مكتبه بالدور الخامس في باريس، حيث جرها خصومه من الطلبة، وألقوا بها في نهر السين، ثم أخرجه فريق آخر من النهر، وقطعوه إربا إربا. ( ج. د. برنال، موجز العلم في التاريخ، ص90). وأعدمت محاكم التفتيش المئات من المثقفات. وأحرقت الكنيسة 13 رجلا وامرأة دفعة واحدة بتهمة الزندقة في مدينة مودينا الإيطالية، وهي التهمة الموجهة الآن لسيد القمني، والتي قرر على إثرها الاستسلام للأصوليين الإرهابيين للأسف الشديد، والسقوط في بئر الصمت والخوف، معلنا توبته عن الفكر الليبرالي وقيمه.

هل يريد الأصوليون حقا قتل القمني، ولماذا؟
هذا سؤال كان من المفروض أن يسأله الكتاب العرب، الذين تناولوا موضوع "القنبلة" التي فجرها القمني. وهي قنبلة دخان مسيلة للعواطف، ومثيرة للغرائز في رأيي، لا معنى لها، غير الإثارة فقط. وقد استطاع القمني أن يثير الغرائز، ويستدر العواطف العربية السهلة الإثارة والاستدرار. فرأينا وقرأنا كيف قامت القبائل العربية من كل حدب وصوب، تدافع عن "المفكر العظيم" و"قنبلة" الدخان الهائلة التي فجرها بيانه. وقام ما يطلق عليهم الشيخ أحمد صبحي منصور "قطاع طرق الإعلام العربي" بالتصفيق من جانب، وبالتصفير من جانب آخر، للتوبة، أو الردة القمنية. وكأن العرب ما زالوا حتى الآن بحاجة إلى مزيد من قنابل الدخان، لكي يعمى بصرهم وبصيرتهم أكثر فأكثر.

فهل أراد القمني من وراء هذه المسرحية -كما وصفها منتصر الزيات الخبير في شؤون الجماعات الإسلامية - استدرار العطف، وهو المريض المصاب بمرض خطير في رأسه، منذ عشر سنوات (يقول البعض بأنه مصاب بسرطان المخ)؟

خبراء الإرهاب يتحدثون

إن ظروف القمني المالية أصبحت صعبة للغاية. ووصم خبراء في شؤون الجماعات الإسلامية، تصريحات القمني بـ"الفبركة"، متهمين إياه بالسعي للارتزاق والتسول. وقال كمال حبيب القيادي السابق في "جماعة الجهاد" المصرية، إن ما ذكره القمني لا يعدو أن يكون "دجلا ونصبا ومحاولة للتسول والارتزاق من بعض الجهات القبطية والعلمانية في مصر التي تقدم له الدعم". ولفت إلى أنه لا يوجد تنظيم باسم "الجهاد" في مصر منذ 1988 ، حيث أضحى هذا التنظيم معروفا باسم "قاعدة الجهاد" بزعامة أيمن الظواهري، فيما أوقف تنظيم "الجهاد" عملياته منذ 1995 وقال حبيب، إن "القاعدة" لم تستهدف من قبل كاتبا، كما أنها لم تبعث تهديدات بواسطة البريد الالكتروني لمثقفين، وهذا ليس عمل "القاعدة". وقال منتصر الزيات الخبير في شؤون الجماعات الإسلامية، إن "جماعة الجهاد" لا يعرفها إلا سيد القمني وحده! وقلل الزيات من شأن تصريحات القمني موضحا، بأنه يسعى للفت الانتباه إليه. وقال: "القمني كاتب ساخر يستغل قدراته الفكاهية في الترويج، ولفت الانتباه". (العربية . نت، 2005/7/16).

ويقول أصدقاء القمني الذين عرفوه وخبروه في القاهرة منذ التسعينات، إنه كان في حياته يسعى لإثارة الدخان والغبار من حوله دائما. وقد نجح في هذه المرة الأخيرة في إثارة الدخان من حوله.

فالصحافة العربية والفضائيات العربية بدأت تتحدث عن "التوبة" أو "الردة" القمنية. وأصاب القمني ما كان يسعى إليه. علما بأن كل الليبراليين مرتدون. ولكنهم مرتدون عن أيديولوجية الإرهابيين، ودين الإرهابيين، وقيم الإرهابيين، وبصمت، ودون زوابع أو "قنابل" مدوية.

الإجابة عن السؤال الكبير

هل حقا يريد الأصوليون قتل القمني، ولماذا؟

ولماذا لم يحاولوا قتل من هو أخطر عليهم، وأحق بالقتل في رأيهم، وهو كاشفهم، وخابرهم، وكاشف أسرارهم، وعليم علومهم، ودارس تاريخهم، وهو الشيخ الليبرالي أحمد صبحي منصور مثلا، الذي يهاجم الأصولية الإرهابية من داخل الإسلام وليس من خارجه، ويمثل المسمار الغليظ في خاصرة الأصولية الإرهابية؟

لماذا لم يحاولوا قتل الشيخ خليل عبد الكريم صاحب الكتب التاريخية الفضائحية الإسلامية الذي لم يدع سترا على الصحابة وغير الصحابة إلا وهتكه. ومنع الأزهر معظم كتبه؟

إن خطورة أي مفكر ليبرالي على الحركات الأصولية الإرهابية، تكمن في مدى عداء المفكر لفكر ابن تيمية، أو فكر الوهابية، أو فكر أحمد ابن حنبل، والذي يشكل لب ولباب الفكر الأصولي الإرهابي الآن غير القابل للنقاش والنقد من وجهة نظر الجماعات الأصولية الإرهابية. ولذا، فإن هذه الجماعات تهاجم من خلال هذا الفكر المتطرف كل المؤسسات الوسطية الدينية المعتدلة، والدول التي تدعمها. والقمني لم يكن من منتقدي هذا الفكر فيما كتب وفيما قرأنا له، لأنه لم يكن ينتقد فكر الحركات الأصولية الإرهابية من داخل الإسلام كما يفعل الآن مثلا أحمد صبحي منصور، وجمال البنا، وغيرهما، وكما فعل خالد محمد

خالد، وخليل عبد الكريم، ومحمد شحرور وغيرهم، وإنما انتقده في بعض الأحيان من خارج الإسلام، حيث لا خطورة ولا ضرر.

ومن هنا، كان نقد القمني لفكر الأصوليين الإرهابيين من باب الكراهية لهم، وليس من باب إيجاد البديل من داخل الإسلام نفسه. كما أن كل ما قاله وما كتبه يوجب كراهية الأصوليين الإرهابيين له، ولكنه لا يوجب القتل.

الباحث المتخصص، الذي يقرأ كتب القمني: " موسى وآخر أيام تل العمارنة"، و"الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية"، و"النبي إبراهيم والتاريخ المجهول"، و "رب الزمان"، و "حروب دولة الرسول"، وأخيرا "شكرا ابن لادن"، يلاحظ بأن ثقافة القمني الإسلامية سطحية إلى حد كبير على عكس فرج فودة مثلا كما يلاحظ الباحث المتخصص، أن القمني لم يقدم من خلال كتبه ومقالاته فكرا يشكل خطرا على "القاعدة"، أو على أية جماعة دينية متطرفة، يستحق معه صاحبه أن يقتل، أو أن يهدد بالقتل.

فسائر طروحات القمني الفكرية، لا تستدعي أن يقتل دونها صاحبها. بل على العكس، فإن هجوم القمني على دول الخليج، كان يسعد "القاعدة" والجماعات الأصولية الأخرى. وإن هجومه على الإخوان المسلمين وعراكه مع سعد الدين إبراهيم، كان يسعد "القاعدة" أيضا والجماعات الأصولية الأخرى. وكما قلنا، فإن كتابات الإسلاميين التنويريين من أمثال أحمد صبحي منصور، وخليل عبد الكريم، وجمال البنا وغيرهم، أكثر خطورة على الحركات الأصولية الإرهابية من أفكار القمني، ولهذا كانوا وما زالوا مهددين حقيقة من قبل الجماعات الأصولية الإرهابية، إلا أنهم لم يثيروا حولهم غبارا أو دخانا ، ولم يلقوا "قنابل" مستدرة للعواطف، ومثيرة للغرائز كما فعل القمني.

لوم اللائمين

لقد انصب لوم اللائمين على من هاجموا ردة أو توبة القمني على الناحية الإنسانية في هذه المسرحية. بمعنى أن مرض الرجل، وإفلاسه المالي، وحالته النفسية الصعبة، ومسؤوليته تجاه عائلته وأطفاله، تبرر له هذه الردة أو هذه التوبة.

هذا صحيح.

ولكن القمني أيها السادة ليس بائعا جوالا، وليس صاحب مخبز أو بقالة، كما أنه ليس مزارعا عاملا ، أو من عامة الناس. إنه صاحب فكر. وهذا الفكر ليس ملكه لكي يتخلى عنه، ولكنه ملك لقرائه. إنه ملك لحقبة من التاريخ. وهذا الفكر ليس نقدا، ولا متاعا، ولا عقارا لكي يتنازل عنه القمني متى شاء، بعد أن صدقه المصدقون، وزفه الراقصون. والقمني يعلم تمام العلم، عندما بدأ يكتب، ويخط أول حرف من كتبه ومقالاته، بأن لا جزاء حسنا في العالم العربي لما سوف يكتب، شأنه شأن كل الليبراليين في العالم العربي. وأن جزاءه سيكون كجزاء من سبقوه، ومن عاصروه، من المفكرين الليبراليين.

* الدكتور حسن حنفي المفكر المصري، ورئيس قسم الفلسفة في جامعة القاهرة، من الأكاديميين الليبراليين المعروفين في مصر، والعالم العربي ، والغرب كذلك. وهو مؤسس ما يطلق عليه تيار "اليسار الإسلامي"، الذي يقترب كثيرا من فكر المعتزلة والعقل المعتزلي، الذي كان سائدا في القرن الثاني الهجري، وتحديدا من عام 150-131هـ في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك، وما بعده من الخلفاء الأمويين. ولذا، نراه يربط دائما بين الفكر الغربي الحداثي، وفكر المعتزلة الحداثي، الذي كان حداثيا قبل ثلاثة عشر قرنا، وما زال حداثيا إلى هذه اللحظة. فالحداثة ليست العصرنة، بقدر ما هي التجديد والانفتاح الفكري، في كل زمن ومكان. وفي مقال لحسن حنفي بهذا الخصوص (الكوارث الإنسانية مدعاة للتأمل) يقول فيه:

"الشر سوء في الفهم أو خطأ في الحكم، وليس في طبائع الأشياء. الشر وجهة نظر، وليس في الموضوع، في المعرفة وليس في الوجود. وأكبر مثالين علي ذلك ليبنتز في الفلسفة الغربية، والمعتزلة في الفلسفة الإسلامية. فعند ليبنتز، هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة، ولا يوجد أفضل منه. ولو وجد أفضل منه لخلقه الـلـه بالفعل. وكل شيء فيه يحدث

طبقا لقانون الانسجام والتآلف، الذي قام عليه الكون. فلا تناقض فيه. وعند المعتزلة كل ما في هذا العالم صلاح. ويتفاوت الصلاح بين الأقل صلاحا والأكثر صلاحا. فالشر هو صلاح أصغر في سبيل صلاح أكبر. الجراثيم لاكتشاف الدواء، والهزائم لمعرفة مقومات النصر، والموت طريق إلى إطالة الحياة. وهو معنى الآيـة {عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم. و الـلـه يعلم وأنتم لا تعلمون}. فالظلم في العالم جزء صغير من نظرية أكبر في العدل الشامل."

مساهمة حنفي الفكرية

وحسن حنفي صاحب أبحاث ومقالات كثيرة ومختلفة في الفكر العربي، والفكر الغربي ، والفلسفة الإسلامية، وإشكالات التراث والتجديد، والتراث والمعاصرة. وله كتب كثيرة ومهمة في الفكر العربي المعاصر منها: " التراث والتجديد"، و "قضايا معاصرة"، و "دراسات إسلامية"، و "في الفكر الغربي المعاصر"، وله رؤية فلسفية لخصها في كتابه "الدين والثورة في مصر". كما ترجم عدة كتب فكرية وفلسفية أهمها: "سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة" و "نماذج من الفلسفة المسيحية"، و "سارتر: تعالي الأنا موجود" وغيرها من الكتب التي لعبت دورا في تشكيل الفكر العربي المعاصر، ومهدت للحداثة في هذا الفكر.

فضل حنفي على الإسلام
في سبتمبر من عام 2006، كان حسن حنفي ضيفا على مكتبة الإسكندرية، وألقى محاضرة تنويرية، قال فيها ما يعتقده عن الإسلام والقرآن. وهي كلها لا تتعدى اجتهادات خاصة بمفكر، ورأيا لباحث،

ونظرة لفيلسوف إلى تراثنا. وهي اجتهادات وآراء ونظرات قال فيها كثير من مفكرينا العرب والمسلمين، وقال فيها كثير من المستشرقين القدامى والمحدثين. ولا جديد فيها يثير، أو يغضب، سيما وأن حسن حنفي يعد مفكرا إسلاميا عريقا ، وليس مفكرا كافرا أو ملحدا. ومن يقرأ كتب حسن حنفي ومقالاته، ويستمع إلى أحاديثه ومحاضراته، يوقن أشد اليقين بأن حنفي يقول، ليثبت الإسلام في القلوب المؤلفة، ويؤكد الإيمان في العقول المنحرفة. وأن ما يقوله من قلب الإسلام وليس من خارجه. وأن كلمة تخرج من مفكر وعاقل مسلم، هي لصالح الإسلام مهما فسرها المفسرون، وأولها المؤولون على أنها سوء نية، وهجوم معاد للإسلام.

هل تستعاد محنة "أبو زيد"؟

ويبدو أن من هجروا نصر أبو زيد من مصر وزوجته، بعد أن حاولوا تطليق زوجته منه، ومحاكمته، وسجنه بتهمة الردة والخروج من الملة، ولكنه فر بريشه إلى هولندا ، حيث يدرس هناك في جامعة ليدن العريقة، ويكتب كما يشاء، ويقول كما يشاء، طيرا حرا محلقا في آفاق الفكر الواسعة والرحبة، يريدون أن يكرروا هذه التجربة مع حسن حنفي، لتفريغ مصر من الفكر الليبرالي كلية
فتحرك الشيخ عبد الصبور شاهين في مصر، وتحرك معه شيوخ آخرون، لرفع دعوى حسبة ضد حسن حنفي، لكي يقتصوا منه، كما سبق واقتصوا من نصر حامد أبو زيد، ولتفرغ مصر من المفكرين المجددين، ولا يبقى فيها غير شيوخ الأزهر الذين يتبعون خطا واحدا في التفكير، ونمطا واحدا في التدبير، ولا يجددون ولا يبدعون، كما يحاول البعض أن يفعل في جامعة القاهرة ودار العلوم وغيرها من المعاهد العلمية الأخرى.

طويل اللسان وسيء البيان

هل يستحق حسن حنفي الجزاء الأكبر لكونه قال، بأن "القرآن حمال أوجه" أي أنه جامع لكل شيء، ويحتمل كل تفسير ممكن، كما سبق وقال علي بن أبي طالب. ولكن حسن حنفي (طويل اللسان وسيء البيان) قالها بعبارة أخرى حديثة، لكي يفهمها الغشماء الكثيرون من أهل هذا العصر الجاهل. فقال حسن حنفي - وربما خانه التعبير- بأن القرآن الكريم "سوبر ماركت"، تجد فيه كل شيء، ويصلح لكل شيء. فكانت هذه العبارة، هي التي أشعلت الحرائق في مصر، وفي أروقة الأزهر. وبدل أن نجد لحسن حنفي العذر فيما قال، قولناه بما لم يقل، وألبسناه ثيابا لم يرضها. وحكمنا عليه بأحكام جائرة. وكان لنا أن نفرق بين من قال هذا القول وقلبه مؤمن، وعقله هو عقل الإسلام، وبين من يقول مثل هذا، وهو غير مؤمن، وعقله لا يعرف الإسلام.

ليس مثله من يعاقب

وأنا أرى - بتواضع شديد - أن حسن حنفي يجب أن لا يعاقب ولا يحاسب ، على مثل هذا الكلام، ولا على أي كلام آخر يعتقد بأنه ضد الإسلام، وذلك لسبب بسيط جدا ، وهو أن حسن حنفي في دفاعه عن الإسلام في كتبه السابقة، وفي مقالاته، وفي محاضراته، وفي أحاديثه قد خدم الإسلام كما لم يخدمه أي شيخ من شيوخ الأزهر. فصوت حسن حنفي الإسلامي والعقلاني المسموع في أوروبا، وأمريكا، وجنوب شرق آسيا، أكبر أثرا بكثير من أصوات شيوخ الأزهر. وهو الذي لم يترك جانبا من جوانب عقلانية الإسلام، أو عقلانية الفكر العربي الليبرالي، إلا وسلط عليه الضوء في المحافل الغربية التي أعشت أعينها موجات الإرهاب الدموي والفكري، الذي مورس على المفكرين العرب والمسلمين.

فضل حسن حنفي على الإسلام، وعلى الفكر الإسلامي والعربي الليبرالي، فضل كبير. فضل العالم الكبير، والأستاذ الجليل، والباحث الجاد المجتهد، الذي يخطىء ويصيب. وهذا الفضل يتجلى في المحاور الفكرية المختلفة التي أثارها حسن حنفي في مسيرته الفكرية خلال سنوات طويلة، وهي التي تشفع له في "محاكم التفتيش"، التي تنصب له المشنقة، قبل أن يفكر في الهروب بريشه من مصر، كما هرب نصر أبو زيد، وإلا لقي حتفه المشهود. فماذا كان يقول حسن حنفي عن الإسلام كمفكر، وباحث، وأستاذ جيل؟

يقولون ما لا يفعلون

في مقال له بعنوان (الأقوال والأفعال) منتقدا معشر المسلمين، الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون عكس ما يقولون، ويحاولون الضحك على ذقون العالم بلسان من عسل، وسيف من خشب الإرهاب العتيق، كاشفا عورتهم، فاضحا نواياهم، مقابل المستشرقين الذين يحللون الواقع، ولا يأبهون بالنص، بقوله:

"الغرب لا يعرف حجة القول بل حجة العمل. ولا يصدق المثال، بل يرى الواقع. فمهما قيل عن عظمة الإسلام وعالميته، وإنسانيته، وحريته، وعدالته، والغرب يرى واقع المسلمين في الاتجاه المعاكس، فإنه لا يصدق الدعاة. فالواقع أبلغ من التمنيات. والرؤية أقوى من السماع طبقا للمثل الشهير (أسمع كلامك يعجبني، أشوف فعايلك أستعجب) ويعرف الغرب أيضا، حدود منهج الدفاع. فهو منهج انتقائي، يقوم على اختيار النصوص، التي في صالحه، دون نصوص أخرى مناقضة. فإذا تحدث الداعية عن {لا إكراه في الدين} قدم له المستشرق الغربي "آية

السيف". وهو منهج نصي، يعتمد على حجة السلطة وليس على حجة العقل. ويغفل تحليل العلل، وهي أساس الأحكام الشرعية. والمستشرق يحلل الواقع، ولا يأبه بالنص، ويرصد العلل، ويحيلها إلى جوهر الإسلام الثابت، وليس إلى عوامل التاريخ المتغيرة. وهو منهج تاريخي، يستدعي من الذاكرة اللحظات المضيئة في التاريخ، ويترك غيرها. فيأتي المستشرق الغربي، وينتقي لحظات أخرى في صفه، ليثبت هجومه. والتاريخ مملوء بالشيء ونقيضه، دون تمييز بين القاعدة والاستثناء. وهو منهج أخلاقي يضع ما ينبغي أن يكون، وليس منهجا اجتماعيا، يصف ما هو كائن. والمستشرق يصف الظواهر كما هي عليه، ويحللها، ولا شأن له بما ينبغي أن يكون. فهو لا ينتسب إلى الحضارة الإسلامية كمثال، ولكنه يدرسها كواقع. وبقدر ما يستعمل الداعية خطاب الوعظ الديني، يستعمل المستشرق التحليل الاجتماعي. وفي النهاية، تكون حجة الواقع أبلغ من حجة النص. ويكون التحليل العلمي أقوى من الوعظ الأخلاقي. ويضيع كل الوعظ الأخلاقي في القنوات الفضائية إلى الهواء، كما بدأ منه. ولا يبقى إلا العلم".

مشايخ السلطان

مثل هذا الكلام، جارح ومؤذ لرجال المؤسسة الدينية، واتهام صريح واضح لهؤلاء الرجال. وهو ما أوغر صدر هؤلاء الأشياخ، الذين تحمسوا لمحاكمة حسن حنفي، ليفعلوا به ما فعلوا بنصر أبو زيد. بل إن حسن حنفي، قال في هؤلاء الأشياخ كلاما أكثر إيلاما ، وأشد وقعا، وهو الكلام الذي جاء بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، ووضعت حسن حنفي في قفص الحساب والعقاب.

يقول حسن حنفي في مقاله (مشايخ السلطان)، منتقدا مشايخ

السلطان، الذين يفتحون القرآن الكريم وكتب الحديث النبوي، فينتقون منها ما يشاءون، وما يلائم طبق طبيخ ذلك اليوم، ومذاق ذلك السلطان:

"بعد قرارات مؤتمر الخرطوم بعد هزيمة يونيو (حزيران) 1967، واللاءات الثلاث: لا صلح، ولا مفاوضة، ولا اعتراف بإسرائيل، انبرى مشايخ السلطان بتبرير هذا بالفتاوى والنصوص الدينية: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل}، {وجاهدوا في الـلـه حق جهاده}، {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الـلـه على نصرهم لقدير}، {وقاتلوا الذين يقاتلوكم}، وما أكثر الآيات والأحاديث في هذا السياق. وبعد أن انقلبت الجمهورية الثانية على الجمهورية الأولى، وعقدت اتفاقيات كامب ديفيد في 1978، ومعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل في 1979 انبرى مشايخ السلطان، هم أنفسهم، بتبرير قرارات السلطان الجديد بآيات وأحاديث أخرى: {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها}، {أدخلوا في السلم كافة}. وأن سلام وشالوم من نفس الاشتقاق، وأن كلانا أولاد عم من نسل إبراهيم. وحدث نفس التحول علي الصعيد الداخلي من الاشتراكية والقومية وعدم الانحياز، وهو اختيار الجمهورية الأولى، إلى الرأسمالية والقطرية والانحياز إلى أمريكا وإسرائيل، وهو انقلاب الجمهورية الثانية، والذي مازال مستمرا في الجمهورية الثالثة والأخيرة في حقبة من تاريخ مصر المعاصر، في النصف الثاني من القرن العشرين. فأفتى مشايخ السلطان في الجمهورية الأولى، بأن الإسلام دين الاشتراكية، وجاءوا بالحديث النبوي: (الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار)، والقطاع العام من الإسلام كما مثله "الإقطاع"، وهو ما يقطعه الخلفاء للصالح العام كالمراعي للإبل، و (ليس منا من بات جوعان وجاره طاو) ، {والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم} .

ولما حدث الانقلاب في الجمهورية الثانية، انبرى مشايخ السلطان

لتبرير سياسة الانفتاح ونقد الشيوعية الملحدة، (من لا إيمان له لا أمان له)· والكسب الحر مشروع، والتجارة حلال في الأسواق، ومع الـلـه تجارة لن تبور· وكل ما أتى الإنسان هو رزق، حلالا أم حراما، اعتمادا على رأي بعض القدماء، والرفاهية حق المؤمنين {قل من حرم زينة الـلـه والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا}· والغرب مؤمن، والشرق كافر· والانحياز إلى الغرب المؤمن ضد الشرق الكافر خير وبركة، ونصرة للإسلام والمسلمين· وقد انبرى شيخ مشايخ السلطان بفتوى من نفس النوع لحث الناس علي الاشتراك في التصويت على تغيير المادة 67 من الدستور، وعدم مقاطعته، كما تريد المعارضة {ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه}·

السياف عبد الصبور شاهين

ومن أجل هذا الهجوم العنيف على أشياخ السلطان وخطابهم، وتملقهم، وتزويرهم للحقيقة، وكذبهم، يريد عبد الصبور شاهين وغيره من الأشياخ، قطع لسان حسن حنفي، وليس - في ظننا - من أجل ما قاله في مكتبة الإسكندرية·

فالحكاية ليست حكاية رمانة، ولكنها حكاية قلوب مليانة، كما يقولون·

فيستعد المتشددون من رجال الدين داخل الأزهر وخارجه، وعلى رأسهم الشيخ عبد الصبور شاهين إلى جر حسن حنفي إلى المحكمة بتهمة القذف بالإسلام في محاضرته في مكتبة الإسكندرية· وفي واقع الأمر، فإن المتشددين من رجال الدين في مصر، كانوا وما زالوا يتربصون بحسن حنفي منذ زمن طويل، ويحتفظون له بملف ضخم من التهم، وينتظرون القشة التي ستقصم ظهر البعير وهو حسن حنفي· وقد فازوا بها أخيرا، بما

قاله حنفي في مكتبة الإسكندرية، وهم يستعدون الآن للمذبحة الفكرية الجديدة بعد مذبحة نصر حامد أبو زيد.

تسامح السلف وتعصب الخلف

كل هذا يجري، بعد أن انتهى زمن الجدل الديني الإسلامي الحر الجميل. وأغلق باب الاجتهاد في عهد الخليفة أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله (1242-1258 م) الخليفة السابع والثلاثين، وآخر خلفاء بني العباس، والذي كان له 750 زوجة، وكان يوصف بالمقامر، على ذمة المؤرخ ابن الطقطقي. وهو الذي مات مقتولا على يد هولاكو، الذي فتح بغداد ودمرها. وتم إغلاق باب الاجتهاد، بأمر سياسي لدى أهل السنة والسلفية. ودخل المجتمع السني عصور التقليد والجمود، عندما أمر المستعصم بالله علماء الفقه في المدرسة المستنصرية، أن يتوقفوا عن تدريس أي فكر، خلاف أقوال الأئمة الأربعة. ورغم رفض البعض لهذا القرار قائلين: "نحن رجال وشيوخنا رجال"، إلا أن تاريخ الفكر الإسلامي، منذ ذلك الحين وحتى الآن، ساقط في هوة الحفظ والترديد، دون النقد أو التمحيص، وكأنما سقط عن المسلمين التكليف، كما يقول عبد الهادي عبد الرحمن (سلطة النص: قراءات في توظيف النص الديني، ص 129 وانتهى زمن الحوار مع أنفسنا. فكيف ننادي بضرورة الحوار مع الآخر؟ وبأي لسان نريد من ذواتنا أن نتحاور مع الآخر؟ وحيث لم تكن هذه سنة القدماء من مفكري الإسلام. بل كان طريقهم هو الحوار والنقاش والرد، كما فعل أئمة أهل السنة كابن تيمية في (الرد على المنطقيين)، و(نقض المنطق)، و(الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)، والرد علي الشيعة والقدرية. وكما فعل الغزالي في (الرد الجميل على من بدل التوراة والانجيل)، والباقلاني في (التمهيد في الرد على المعطلة

والجهمية)، وابن الراوندي في (الرد على ابن الراوندي الملحد). بل امتد التقليد إلى الشعراء في مناقضات الجرير والفرزدق. وأصبح الخلاف عند الأصوليين موضوع علم مستقل هو علم الخلافيات، وعلم التعارض والتراجيح. وانتهوا إلى أن الحق متعدد، وكل الآراء صائبة، (للمخطئ أجر وللمصيب أجران).

غضب على الفكر شرقا وغربا

يعترف حسن حنفي، بأن تاريخنا مملوء بالغضب: ذبح الجعد بن درهم، تقطع ابن المقفع، صلب الحلاج، قتل السهروردي، شنق سيد قطب ومحمود طه، قتل حسين مروة ومهدي عامل وفرج فودة وغيرهم من الشهداء، إلا أن الغاية ربما كانت سياسية خالصة أحيانا وليست فكرية. فقد كان الجعد بن درهم من أوائل المعتزلة الذين عارضوا الحكم الأموي، وابن المقفع من الذين طالبوا بمساواة العجم بالعرب، والحلاج لأنه شارك في وقاد ثورة القرامطة، والسهروردي لأن صلاح الدين كان يخشى على النضال ضد الصليبيين من محبة الصوفية التي قد تدفعهم إلى موالاة الأعداء.

ولم يقتصر هذا على تاريخ الفكر العربي. بل إن تاريخ الفكر الغربي مليء بمثل هؤلاء الضحايا. فقد سقط من الغرب شهداء الفكر الكثر. فقد أجبر سقراط على شرب السم لاتهامه بالسخرية من آلهة اليونان وإفساد أخلاق الشباب. وحكم على كثير من المعارضين للسيطرة الكنسية الرومانية في عصر الآباء على حرية الاعتقاد بالهرطقة والكفر. وحرق أموري البيني لأنه كان يقول بوحدة الوجود. واستشهد العديد من المفكرين الأحرار في عصر النهضة: توماس مور، لأنه تصور مدينة فاضلة خالية من الظلم والقهر، وجيوردانو برونو، لأنه دافع عن مركزية الشمس

ودوران الأرض حولها. وكانت المقصلة مصير كل المعارضين في الثورة الفرنسية في عصر الإرهاب، مثل ميرابو، ودانتون، وغيرهم. وطعن اسبينوزا بالسكين، لأنه أنكر العهد الخاص بين اللـه وبني اسرائيل.

أسباب حقد رجال الدين على حنفي

فلماذا كل هذا الحقد الديني الأعمى من قبل بعض رجالات المؤسسة الدينية المصرية والعربية على حسن حنفي، وهو المفكر الإسلامي، الذي نشر روح الإسلام السمح والعادل والعقلاني، في مختلف المنتديات الأكاديمية، وغير الأكاديمية الأوروبية، والأمريكية. وما زالت آراؤه وكتبه وأبحاثه تعتمد كأساس لفهم الإسلام الصحيح، بعيدا عن إسلام السياسة العربية المعاصرة؟

إن أفكار حسن حنفي عن الإسلام وليس عن المسلمين، لا ترضي الكثير من رجالات المؤسسات الدينية في مصر والعالم العربي. وتعتبرها هذه المؤسسات خطرا على الدين، وانتقاصا من دوره الثقافي والاجتماعي والتربوي. بل إن رجال المؤسسات الدينية السنية - على وجه الخصوص - الذين لديهم عقدة الخلافة الإسلامية والإمبراطورية الإسلامية، وما زالوا يترحمون على الخلافة الإسلامية التي انهارت في الاندلس، وفي بغداد على يد السلطان العثماني سليم الأول في 1517، وما زالوا حتى الآن، يلعنون كمال أتاتورك الذي أطاح بالخلافة الإسلامية العثمانية في 1924، وما زالوا يأملون من ابن لادن والظواهري، وقبل ذلك من الزرقاوي، وأبي حمزة المصري السجين في لندن، أن يقيموا لهم الخلافة الإسلامية العتيدة التي يأملون في العراق، أو في أفغانستان، أو حتى في لبنان وبريطانيا (نادى أبو حمزة المصري وعمر البكري برفع علم الخلافة الإسلامية فوق قصر باكنجهام) لو أمكن ذلك على طراز الأمارة الطالبانية، أو الخلافة

الإسلامية الإيرانية، المتمثلة بالنظام الخميني الحالي في إيران. فلا فرق بين الخليفة المطلق الصلاحيات وبين الملا عمر، أو بين المرشد الأعلى في إيران. فهو الخليفة، والخليفة هو. وحسن حنفي في يسار إسلامه، ضد هذا كله، وهو ضد أفكار كثيرة، تعتبرها معظم المؤسسات الدينية السنية العربية مقدسة ومحرمة، ولا يجوز الخوض فيها، أو الاقتراب منها، أو المساس بها.

الهجوم على فقهاء السلطان

درج حسن حنفي دائما، على مهاجمة فقهاء السلطان. ويقول عنهم، بأنهم هم الذين ينشئون خطاب التأليه الذي يعظم السلطان، كامل الأوصاف. فلا فرق عندهم بين صفات الـلـه، وصفات السلطان. وحسن حنفي، يبحث عن علماء الدين الأحرار في هذا العصر، فلا يجدهم. ويتساءل في مقاله (الطريق الثالث بين الحاكم والمحكوم):

أين هم رجال الدين الأحرار ؟

وهل يتحرك علماء الدين الأحرار، كما تحرك الأفغاني، وعبد الـلـه النديم، ومعه رواد النهضة الأوائل، فما زالت منزلتهم في أعين الناس كبيرة، رغم انتشار فقهاء السلطان؟

وهل يعود الدين كحركة تحرر عربية ثانية، بعد أن تولدت عنه حركة التحرر العربي الأولى، وبعد أن تم إقصاء الحركات الإسلامية بين الحركتين، في النصف الثاني من القرن العشرين؟

ومما أوغر صدر رجال الدين في مصر خصوصا على حسن حنفي وفكره، وجعلهم يتربصون به الدوائر، قوله، إن رجال الدين بشر في النهاية. وهم موظفون في الدولة، ويأتمرون بأمرها. يبررون للسلطان قراراته،

ويشرعون له أفعاله سلما أو حربا، اشتراكية أو رأسمالية. وتستعملها السلطة السياسية للسيطرة من خلالها على الرأي العام، وإضفاء الشرعية عليها، إذا ما نقصتها الشرعية، وأتت بانتخابات مزيفة، واتخذت قرارات، واتبعت سياسات ضد مصالح الشعوب، وقامت ضدها الهبات الشعبية. هنا، تتصدى السلطة الدينية لمطالب الناس بإطاعة أولي الأمر {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}.

الشرعية الدينية والشرعية السياسية

منذ زمن بعيد، والشرعية السياسية العربية - الإسلامية، تستمد شرعيتها من الشرعية الدينية. ولم تتخل الشرعية الدينية عن الشرعية السياسية، منذ عهد معاوية بن أبي سفيان حتى الآن. وكأن الشرعية الدينية كانت بمثابة عامود وسط في الخيمة السياسية العربية، إذا ما نزع، سقطت الخيمة السياسية على رؤوس أصحابها. وفي هذا يقول حسن حنفي في مقاله (الأواصر الأزلية بين الماضي والحاضر والمستقبل) إن الشرعية الدينية في الغالب هي أساس الشرعية السياسية، كما كان الحال في العصر الوسيط في الغرب، الإمبراطور البابا، والبابا الامبراطور، الكنيسة والدولة سلطة واحدة، وملكوت السماوات وملكوت الأرض في يد ممثل السماء على الأرض. وهكذا يحكم الأموات الأحياء. يحكمنا الموتى من القبور، أو المبعوثون من القبور. ويستمد الأحياء سلطانهم من الأموات. وقد كانت عبادة الأسلاف من مظاهر التدين عند بعض الشعوب.

الرجال هم الذين ينطقون وليس النص

ومما زاد في غضب رجال المؤسسة الدينية العربية، حديث حسن

حنفي عن الحضارة العربية - الإسلامية، وتعريفه لها بأنها حضارة نص، وليست حضارة عقل. ففي مقاله (ما الذي يمنع من حرية التفكير؟) يقول حسن حنفي، بأننا حضارة كتاب، ولسنا حضارة طبيعة. فمصدرنا الأول في المعرفة هو القرآن، أو الكتاب أو المصحف، تتلوه السنة المدونة، بعد روايتها شفاهيا. تتلوها نصوص المذاهب العقائدية والفقهية، وكتابات الأولين في الطبقات والحوليات. وهي ليست خاصة بالقرآن وحده، بل هي أيضا صحف إبراهيم، وموسى، ومزامير داود، وحكمة سليمان، والتوراة، والإنجيل، والألواح، والأسفار. وتقوم كلها بدور السلطة، سلطة النص الذي يطاع. فهو الذي يحدد تصورات العالم. وهو الذي يضع معايير السلوك. ويضم إليه الأمثال العامية. وهي نصوص شفاهية تقوم بالدور نفسه على نحو بعدي، من أجل فهم الوقائع وتبريرها، وإيجاد قوانين لحدوثها. وتقوم مقام النص في الفهم، وإن لم تقم مقامه في التشريـع.

وحسن حنفي، لا يضع اللوم في قصور حضارتنا على النص، أيا كان هذا النص. ولكنه يضع اللوم، كل اللوم على رجال الدين الذين ينطقون النص ويفسرونه ويؤولونه بما يتفق وأهواءهم ومصالحهم السياسية والمالية. فالنص كما يقول حسن حنفي، يقوم فقط بدور الافتراض الذي يمكن التحقق من صدقه في التجارب الإنسانية الفردية والجماعية. النص يقيد (فلا اجتهاد مع النص). والتأويل يحرر، فهناك اجتهاد في فهم النص. وسارت بيننا بعض الشائعات، أن السلف لم يتركوا للخلف شيئا. بل إن الخلف أضاعوا الصلوات، واتبعوا الشهوات. وهناك الفرقة الناجية الواحدة، هي فرقة الدولة الأموية، فرقة السلطان في مقابل الفرق الهالكة وهي فرق المعارضة. الأولى في الجنة والثانية في النار. ومن عصى الأمر وفارق الجماعـة فهو كافـر مرتد، يجب قتلـه.

اختلاف الأئمة رحمة

ويؤكد حسن حنفي، أن كل هذه الأدبيات التي استقرت في التاريخ، لها ما يعارضها في القرآن، والحديث، وأصول الفقه. فاختلاف الأئمة رحمة. والصواب متعدد. والكل راد، والكل مردود عليه. وقد خلق البشر متعددي المشارب، والمناهج، والمآرب، والألسنة، للتعارف، وللإثراء المتبادل. ولو شاء الـلـه لجعل الناس أمة واحدة، ولكنه جعلهم مختلفين.

فالاختلاف غاية الخلق.

ما زال الوقت مبكرا

وما زال في جعبة حسن حنفي الكثير من الأفكار، التي وضعته في يسار الإسلام، ضد معظم رجال الدين الذين هم في يمين الإسلام.

وما زال الوقت مبكرا جدا، لكي يكون لليسار الإسلامي بقيادة المفكر حسن حنفي مكان مرموق في الفكر العربي الإسلامي المعاصر، وتأثير فعال في الشارع العربي، الذي اختطفه اليمين الإسلامي، ومن هم دون حسن حنفي علما، وفكرا، وفلسفة، ومعرفة بالإسلام، من أمثال بن لادن، وأيمن الظواهري، وعمر البكري، وقائمة طويلة من مئات الأسماء، التي سطت على الإسلام، سطوة السارقين على أموال الآخرين.

* جمال البنا، شقيق مؤسس حركة الإخوان المسلمين جمال البنا، ولكنه هو القائل "لن أعيش في جلباب أخي". وهو من رجال الدين المسلمين الذين أحببناهم، وقدرناهم، واعتبرناهم من التنويريين الدينيين الجدد.

المفكر الليبرالي

كان موقف جمال البنا من حجاب المرأة شجاعا. وهو الذي اعتبر أن الحجاب فرض على الإسلام، ولم يفرضه الإسلام، وأنه لا يوجد نص قرآني بتغطية مكان معين من جسم المرأة، إلا فتحة الصدر. وحلل زواج المتعة، ودعم إمامة المرأة في الصلاة، وعارض ختان البنات. وكانت له مواقف لا تنسجم مع مواقف الإخوان المسلمين. وكان له موقف إيجابي من العلمانية التي قال فيها بأنها ليست ضد الدين، وأنه ضد أن يتدخل الدين في السياسة. وأن فكر القدماء وفقههم، لا يصلحان لعصرنا. وأن من يكفرون الكتاب والمبدعين مجانين. وأن منع الكتب جريمة لا تغتفر. وهو الذي كان من بين الكتاب الذين منع الأزهر كتبهم، ومنها كتابه "مسؤولية فشل الدولة الإسلامية في العصر الحديث". وهو مؤلف كتاب

"نحو فقه جديد"، الذي نادى بإعادة فتح باب الاجتهاد، وتنقية التراث، واستنباط أحكام فقهية جديدة عن النصوص القرآنية المقدسة، لكي يتواءم المسلمون مع عصرهم. وكانت له مواقف سياسية وآراء سياسية مشهود لها، منها قوله إن ثورة يوليو هي انقلاب عسكري "للأحذية العسكرية"، وليست ثورة. وإن كلام سيد قطب عن الحاكمية الإلهية كلام فارغ وحلم مستحيل. وإن ما يسميه المسلمون خلافة، كان ملكا عضوضا. وكانت كلها مواقف عقلانية تنويرية من منطلق ديني حداثي وتنويري، بعيدا عن إغراق الدين في الأساطير، والتعاويذ، والشعوذات، والخرافات، وأكاذيب فقهاء السلاطين.

فكر مبهر

هذه الآراء الحداثية العقلانية التنويرية جميعها، أبهرتنا بنورها، وجرأتها، وشجاعتها، ومنطقها العصري. وأصبح جمال البنا شيخنا، وإمامنا، نحن معشر الليبراليين. وكان منارتنا الدينية الهادية، والداعية، والمرشدة، في بحر الظلمات.

فخلفه وحده نصلي. وفتاواه وحدها ضالتنا، ومشكاتنا. وآراؤه في الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد، هي المنارة والعصارة. واغتاظ السلفيون والمتشددون المتخشبون من هذا الصوت الديني الجديد. ورحب الليبراليون بهذا الداعية التنويري، واحتفلوا به، وأطلقوا عليه مربي الأجيال، والمفكر التنويري، وشيخ الإسلام المجدد، وخليفة الشيخ محمد عبده، وقبس من روح أبي ذر الغفاري، والعالم القرآني. وكانوا كمن وجد ضالته في جمال البنا، في صحراء التيه العربية، سيما وأنه القائل في عام 2003، بأن القتال إلى جانب الأمريكيين في العراق، ضد الطاغية صدام حسين، أكثر ثوابا، وأفضل جهادا من القتال إلى جانب الطاغية

صدام حسين ضد الأمريكيين. وبمناسبة الذكرى الأولى لكارثة سبتمبر 2001؛ أي في سبتمبر 2002، كتب جمال البنا مقالا في جريدة "القاهرة" الأسبوعية، مجددا دعوته للإصلاح الديني في الإسلام. وأفردت له صحيفة "القاهرة"، صفحة كاملة، ليكتب حول الحاجة لحركة إصلاح ديني، مثل تلك التي حدثت في أوروبا، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، على يد "مارتن لوثر" و "جون كالفن"، مما يعني أن كارثة 11 سبتمبر كانت بفعل خلل في فهم الدين. وأن الذين ارتكبوا هذه المجزرة خطفوا الإسلام، وزوروه.

الانحراف 180 درجة

ولكن لم يمض على هذا المقال غير أربع سنوات، حتى قال جمال البنا في المناسبة نفسها، وفي الذكرى الخامسة لكارثة 11 سبتمبر، من أن الذين ارتكبوا كارثة 11 سبتمبر هم من "أشجع الشجعـان". وأن هجومهم الانتحاري على برجي نيويورك، وقتلهم حوالي ثلاثة آلاف من الأبرياء كان "أداء رائعا". وهو الكلام نفسه، الذي قاله بن لادن، حين وصف منفذي الكارثة، بأنهم "كوكبة من أبطال الإسلام". وأبدى جمال البنا، عظيم إعجابه بالانتحاريين الـ 91 الذين شنوا تلك الهجمات البشعة، كما صرح لصحيفة "المصري اليوم"، في 2006/9/10!

لوثة الإرهاب الديني

فما الذي حصل لعقل جمال البنا؟

وهل كان مقنعا طيلة هذه السنوات الأربع، وخلع قناعه الآن؟

هل أصابته لوثة الإرهاب الديني؟

وهل كان ذلك بسبب المال، أم التهديد بالقتل، أم بإغراء سياسي

معين، أم ماذا؟

أم أدركته عقد الذنب الدينية، التي أصابت من قبله مجموعة من المفكرين التنويريين المصريين، منهم طه حسين، الذي خضع لرأي رجال الدين والشارع الغوغائي، وحذف فصلا كاملا من كتابه العاصفة "في الشعر الجاهلي"، وغير عنوانه بعنوان جديد "في الأدب الجاهلي"· وكفر بعد ذلك عن ذنوبه الدينية، بأن كتب عدة كتب في تاريخ الإسلام، لم يقدم فيها شيئا جديدا ، عما هو معروف ومكشوف؟

أم هل أصبح جمال البنا، عنصرا في تنظيم "القاعدة"، عندما قال لجريدة "المصري اليوم" في الحديث الصحافي نفسه، من أن: "أحداث سبتمبر فتحت آفاقا جديدة، وأسلوبا جديدا ، يمكن به تصفية الحسابات القديمة"؟

فهل انضم جمال البنا، إلى أيمن الظواهري، ويوسف القرضاوي وفهمي هويدي، وأحمد عاكف، ومنتصر الزيات وغيرهم، من منظري "القاعدة" المباشرين وغير المباشرين؟

حلقة في سلسلة المفكرين المصريين المتراجعين

وهل أصبح جمال البنا المثال الآخر للردة في الفكر الديني المصري المعاصر، مثله مثل خالد محمد خالد، الذي فصل الدين عن الدولة في الخمسينات، ثم عاد وقال في الثمانينات بربط الدين بالدولة في كتابه (الدولة في الإسلام، 1981) ، وتخلى عن آرائه السابقة كافة، تحت تهديد الإخوان المسلمين، وبقية الجماعات الدينية في مصر؟

هل انقلب جمال البنا على الحركة الليبرالية العربية، وارتد عن كل ما قاله من آراء، تحت أول تهديد من الإرهابيين في مصر، بحيث فاجأنا بقوله في جريدة "المصري اليوم": إن الثورة الخمينية الداعية إلى ولاية

الفقيه هي "ثورة رائعة". مثله في ذلك مثل سيد القمني الذي أعلن التوبة، وتخليه عن أفكاره السابقة، والتوقف عن الكتابة. وما زال متوقفا؟

من كان يتصور أن ينقلب جمال البنا على يقيناته هذا الانقلاب الفجائي، ويعلن بأن مجموعة من شباب الخليج ومصر، الذين فجروا برجي نيويورك كانت "تتابع المشهد، وتشهد فصوله المأساوية فصلا فصلا، وترى بأم عينها الدول العربية تتساقط، وتستسلم لأمريكا. وتشهد الأوغاد الأمريكان يمرحون ويبرطعون في الأرض المقدسة. ففكر هؤلاء الشبان في طريقة لإعطاء أمريكا درسا بطريقة فريدة لم تسبق. وهداهم التفكير إلى خطة، ما كان يحلم بها أكبر المخرجين السينمائيين الأمريكيين، وأن يدمروا رمز الازدهار والخيلاء الأمريكية".

ليس أول المباركين للجرائم

لم يكن جمال البنا الشيخ العربي المسلم، أول من يبارك جريمة وكارثة ككارثة 11 سبتمبر. فقد باركها وامتدحها كثير من الأشياخ العرب المسلمين قبله، واعتبروها أول "الحملات الهلالية"، ثأرا للحملات الصليبية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. وامتلأت الصحف، والفضائيات، ومواقع الانترنت بـ "الفكر الهلالي" التكفيري، الذي ينادي بالجهاد الثأري، لكل ما حدث للمسلمين منذ 14 قرنا حتى الآن، مقابل "الفكر الصليبي" الذي ينادي بالتفكير بدلا من التكفير، وبتفجير الطاقات والمواهب، بدلا من تفجير الأجسام، وقتل الأرواح، وهدم المباني. ولم نكن لنعترض على مثل هذه الآراء المتشنجة، التي قال بها جمال البنا الآن، وغيره في الماضي. فلا حادثة تاريخية مهمة، إلا واختلفت فيها الآراء. ولكن المفاجأة، هي أن ينقلب جمال البنا على عقبيه، كما لم ينقلب أية داعية ديني آخر. فانقلب من داعية للتنوير إلى

آلة للتزوير، ومن فكر حداثي إلى طبل خرافي، ومن داعية حداثي إلى مهرج تاريخي، ومن فقيه تنويري إلى درويش من دراويش التكايا.

نقول لكم
يقول الشيخ محمد عبده: "لا دين في السياسة، ولا سياسة في الدين".
لهذا، ومن أجل هذا كله، نقول لكم:
افصلوا الدين عن السياسة، واحذروا من آراء رجال الدين في السياسة والاجتماع، مهما أظهروا من تنوير، وتفهم، وتقدم. فهم متقلبون، وانقلابيون مغامرون، لا يؤمن لهم جانب. وهم يغررون بنا. فمواقفهم، وآراؤهم ككثبان الرمال في الصحراء، تتغير كل يوم حسب اتجاه الرياح، وقوة هبوبها. وهم يستعملون النص الديني الواحد لليمين، واليسار، والوسط. ويطبخون بالنص الديني الواحد، سائر الأكلات العربية والغربية. فهم طهاة مهرة، يطبخون لك ما تشتهي من حديقة الإسلام المسروق والمخطوف، التي تنبت لهم كل ما يحتاجونه من خضروات، وبهارات.
ويظل كلامنا قائما ونافذا ولائقا بجمال البنا، ما لم ينكر جمال البنا صحة ما قاله من تصريحات في جريدة "المصري اليوم"، ويهتدي.

لا تعتذر عما كتبت!
كنت أحب وما زلت أحب شيخنا جمال البنا، وأقدره حق قدره، وأحترم منـزلته الكبيرة الدينية والفكرية. وكنت أتمنى، وكان يتمنى معي من أحبوه من الكتاب والمفكرين والقراء، أن لا يكون ما كتب في صحيفة "المصري اليوم" صحيحا. وأن يكون مدسوسا من قبل أعداء جمال البنا الكثر، الذين يضيقون بفتاويه الدينية والجريئة والمتحدية لمجموعة كثيرة من

أشياخ الدين، والتي تحتفل بها المرأة العربية أيما احتفال، ويحفظها الليبراليون عن ظهر قلب، ويجادلون بها خصومهم من أشياخ الدين المتشددين. ولكن أمنيتنا وأمنية محبي الشيخ البنا، في أن لا يكون صحيحا ما كتبه في مقاله المذكور، عن كارثة 11 سبتمبر قد خابت. فلم ينف الشيخ البنا أنه كتب هذه المقالة، أو يعتذر عن سوء فهمنا لمقالته - كما هي عادة السياسيين في النفي - رغم أننا نشرنا هذا الكلام، في أكثر من صحيفة ورقية، وفي أكثر من أربع صحف اليكترونية، وتناقلته مواقع كثيرة على الانترنت، لا حصر لها. ومن المؤكد أن شيخنا قد قرأه أيضا، أو أن أحدا من مريديه - وهم كثر - لفت نظره إليه. ويبدو أن الشيخ البنا مؤمن تماما بما قال في مقاله، من أن مجرمي كارثة 11 سبتمبر، "أشجع الشجعان"، وبأن الجريمة التي ارتكبوها، وقتلوا فيها ثلاثة آلاف من الأبرياء، كانت "أداء رائعا". وأن الشيخ البنا فخور بإعجابه بالانتحاريين الـ 19 الذين شنوا تلك الهجمات البشعة.

فمعذرة لكل محبي الشيخ البنا ومريديه، وكل من توقع أن يكون ما كتبه الشيخ البنا في مقالته تلك غير صحيح.

شهادة إرهابية

ولكن لو قلبنا الأمر على أكثر من وجه، لرأينا أنه من الواضح أن جمال البنا غير مؤمن إيمانا عقليا - وهو الشيخ العقلاني - بما قاله في مقالته السابقة الذكر. ولو كان مؤمنا حقا بما قال، لما صبر كل هذه السنوات الخمس، ليقول لنا في نهايتها، إن مجرمي 11 سبتمبر هم "أشجع الشجعان" وإن جريمتهم كانت "عملا رائعا".

فنحن لم نشهد، في تاريخ الفكر الديني المعاصر، ردة كهذه الردة، ولا تراجعا كهذا التراجع الحاد والكلي. سيما وأن الشيخ البنا، قد وصف

في تيار الفكر الديني، بأنه من "التيار الإسلامي الليبرالي" من خلال كتبه: (الحرية)، و(التعددية في المجتمع الإسلامي)، و (الإسلام دين وأمة وليس دينا ودولة) ، و(استراتيجية الدعوة الإسلامية) وغيرها، والتي كانت تركز على ليبرالية الإسلام وعقلانيته من خلال التالي:

- ربط الحداثة بالفكر الإسلامي.
- التوحيد الذي جاء به الإسلام يعني إطلاق التعددية بين الخلق، وليس الوحدانية السياسية أو الحزبية.
- الإسلام هو دين العلمانية ، ولا ربط بين الدين والدولة. ولكن هناك ربطا بين الدين والأمة.
- ينادي البنا بوقف تفاسير القرآن، وإلغاء ما سبقها من تفاسير . ذلك أن هذه التفاسير السياسية والأيديولوجية، قد أساءت كثيرا للإسلام. وأن هذه التفاسير ادعت على لسان القرآن والسنة ما ليس فيهما من معان، وأدخلت الكثير من الإسرائيليات والأحاديث الضعيفة والمنحولة.

صدى أصوات الكهوف

وفجأة ينقلب الشيخ البنا 180 درجة، ويصبح صدى لأصوات الكهوف في تورا بورا، ويردد ظلاميات وهذيان غربان "القاعدة"، التي تريد أن تعيد المسلمين إلى ما قبل القرون الوسطى المظلمة. فقوله بأن مجرمي 11 سبتمبر هم "أشجع الشجعان"، وأن كارثة 11 سبتمبر "أداء رائع"، ليس مجرد تلاعب بالألفاظ، ولا هو بالعلك السياسي، فشيخ كجمال البنا، لا يتلاعب بالألفاظ، ولا يعلك بالسياسة. وهو يعتبر نفسه مثقفا عضويا، مسؤولا عن كل كلمة يقولها. وإنما أقواله هذه ردة من إيمان البياض، إلى إيمان السواد.

ومن إيمان القرن الحادي والعشرين، إلى إيمان القرون الوسطى.

ومن إيمان فقهاء الرحمان، إلى إيمان فقهاء السلطان.
ومن إيمان إسلام القرآن، إلى إيمان الإسلام المخطوف.
ومن إيمان إسلام المحبة، إلى إيمان إسلام المطية.
فلماذا فعل جمال البنا كل هذا، عن قناعة تامة، كما يبدو لنا الآن، ولكنها قناعة من أجل هدف واحد، وهو هدف الشهرة والنجومية، الذي كان يسعى إليه جمال البنا، منذ بدء حياته إلى اليوم ، وعبر كتبه وفتاويه المثيرة، والمتميزة.

عقدة الأب

جمال البنا، هو ابن أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي. وأحمد البنا، كان ساعاتيا، يصلح الساعات، وتعلم هذه المهنة، أيام كان يدرس في الإسكندرية، في حلقات العلم الأزهرية في المعهد الديني الأزهري. ولكنه كان في الوقت ذاته محققا تراثيا، حقق عدة كتب، منها كتاب "الفتح الرباني لمسند الإمام أحمد بن حنبل"، ثم شرح كتابه هذا شرحا موسوعيا (24 جزءا) سماه "بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني". وله في الحديث النبوي كتب، منها كتاب "بدائع المنن في جمع وترتيب مسند الشافعي والسنن"، و "منحة المعبود في ترتيب مسند الطيالسي أبي داود ". وله مؤلفات لم تطبع منها، "إتحاف أهل السنة البررة بزبدة أحاديث الأصول العشرة". إذن، فقد كان الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي، علما في زمانه وشيخا له مكانته ومقداره الثقافي الديني الكبير (توفي 1958).
وكان جمال البنا، يسعى لأن يتفوق على والده في المجال الديني الثقافي نفسه، وهو سعي محمود. ولكن سعيه هذا كان قد وصل به إلى حد العقدة النفسية، وربما العقدة المرضية، كما يقول أحد عارفيه عن قرب، ومنهم الشيخ أحمد صبحي منصور.

فلو أننا اعتبرنا - فرضا - أن العقد النفسية الأولى لجمال البنا، كانت سمعة والده الشيخ أحمد البنا، فإن العقدة الأكثر حدة والأعمق أثرا، كانت عقدة شقيقة الأكبر حسن أحمد البنا، مؤسس حركة الإخوان المسلمين. فكان جمال البنا بكتبه وفتاويه المثيرة كالمفرقعات، يريد أن يتفوق في الشهرة والنجومية على شقيقه حسن البنا، الذي أصاب من الشهرة والنجومية منذ الأربعينات، وحتى الآن الشيء الكثير. بل إنه يعتبر بفضل حركة الإخوان المسلمين في مصر والعالم العربي والعالم الإسلامي والغرب عموما، محاذيا للصحابة والخلفاء الراشدين في الشهرة، والنجومية، والتبجيل. بل إن كثيرا من شباب الإخوان يعرفون جيدا من هو حسن البنا، ولا يعرفون الكثير من الصحابة. ولا خليفة أمويا أو عباسيا، ولا سلطان عثمانيا، ولا حاما فاطميا أو مملوكيا، يعيش في ذاكرة الأتباع والمناصرين والمريدين بالملايين من حركة الإخوان المسلمين كحسن البنا.

وحسن البنا لم يكن زعيما سياسيا، فقط يغتال اغتيالا سياسيا في عام 1949، ولم يكن فقط قائدا لحركة دينية سياسية كحركة الإخوان المسلمين، التي هي الآن أكبر حزب ديني سياسي في العالم، حيث يوجد لها فروع في أكثر من سبعين بلدا في العالم، وتقدر أموالها وأصولها المنقولة وغير المنقولة بمليارات الدولارات. ولكن حسن البنا، إضافة إلى ذلك كله، كان مفكرا دينيا كبيرا، ترك من الآثار الفكرية - الدينية - السياسية الشيء الكثير. ولم يكتب عن زعيم ومفكر ديني وسياسي في الشرق والغرب كم من الدراسات والأبحاث، كما كتب عن حسن البنا.

وقد شعر جمال البنا، بأن حسن البنا لم يترك له مكانا مهما تعلم واجتهد وأفلح. وأن المكانة الدينية والسياسية لحسن البنا، قد طغت على

مكانة ملوك أسرة محمد علي في مصر، وأنها طغت كذلك على بعض رجال الثورة المصرية فيما بعد. وما زالت هذه المكانة لحسن البنا إلى الآن، تزداد بريقا ووهجا وتجددا، كلما انتصرت حركة الإخوان المسلمين في قطر من الأقطار، وارتفع شأنها في مصر من الأمصار.

فماذا يفعل جمال البنا حيال هذا الهرم الكبير، لكي يتفوق، ويشتهر، ويبرز، ويصبح نجما كشقيقه، أو حتى يقترب من هذه النجومية الساطعة؟

أقصر الطرق إلى النجومية

لا غبار أن يكون أبي شيخا مشهورا كأحمد البنا. ولا غبار أن يكون شقيقي الأكبر زعيما دينيا وسياسيا كبيرا كحسن البنا. ولا غبار علي أن أسعى لأن أكون نجما ساطعا مثلهما، ولكن المهم أن لا يكون مثل هذين العاملين ، سببا في إحداث عقدة نفسية مرضية لي، أتخبط بها، بحيث أنني أكفر بما كنت أؤمن، وأؤمن بما كنت أكفر، وأتحول إلى مطرب ديني وفكري من مطربي السهرة العربية الصاخبة الحالية، وأقول ما يرضي الجمهور، ويزيد من شعبيتي الجماهيرية على حساب الحقيقة، لكي أسعد الجمهور، وأنال تصفيقه واستحسانه، مقابل التنازل عن يقيناتي وقناعاتي.

وجد جمال البنا، أن أسهل الطرق إلى الشهرة والنجومية، هي معارضة معظم ما قاله شقيقه حسن البنا ونقضه، وجاءت به جماعة الإخوان المسلمين. أي أن يقف معارضا لمعظم أفكار شقيقه، ولخطاب جماعة الإخوان المسلمين الديني، والسياسي، والاجتماعي. فجمال البنا رغم عمله المتواصل لمدة نصف قرن بين طبقة العمال، وجهوده الكبيرة في مجال العمل النقابي والعمالي، الذي ظل محور مشروعه الفكري، إلا أنه لم ينل من الشهرة والنجومية ما يريد ويأمل.

طريق البنا إلى النجومية الدينية

ماذا فعل جمال البنا للوصول إلى النجومية الدينية؟

لقد فعل، وقال التالي:

1- العمل في السياسة إلى جانب العمل كشيخ من شيوخ الأزهر. بمعنى عدم ترك السياسة للسياسيين، ومزج الرأي السياسي بالرأي الديني الشرعي. وهو عارض بذلك دعوته ودعوتنا بضرورة ابتعاد رجال الدين عن السياسة، وعدم خوضهم في المعارك السياسية، وفصل الدين عن السياسة. ونحن غضضنا النظر عن عمله بالسياسة، وهو الشيخ الأزهري، عندما شعرنا بأن مواقفه السياسية الليبرالية مما جرى في أفغانستان، ومما جرى في العراق على وجه الخصوص تخدم توجهنا، وتساند دعوتنا، وتؤيد مطالبنا، خاصة عندما قال: "إن الجهاد إلى جانب الحاكم الكافر العادل، فرض عين أكثر من الجهاد إلى جانب المسلم الظالم". وكان في ذلك تأييد واضح لخلع صدام حسين بالطريقة التي تمت بها، فجر التاسع من نيسان 2003

2- وقف جمال البنا مواقف سياسية واضحة وصريحة معارضة لمواقف الإخوان المسلمين. وبالتالي معارضا صريحا لشقيقه حسن البنا، فيما لو كان حيا بيننا الآن. فالإخوان المسلمون الذين أيدوا غزو صدام للكويت، والاعتداء على شرق السعودية، عارضه جمال البنا. وغزو أمريكا لأفغانستان والعراق الذي عارضه الإخوان المسلمون أيده جمال البنا. وكان جمال البنا على نقيض تام مع مواقف الإخوان المسلمين من عدة قضايا سياسية.

3- أصدر جمال البنا عدة فتاوى معارضة لفتاوى أخيه حسن البنا.

فحسن البنا قال بوجوب إقرار العدل للصحابة إلزاما، كما استقر المنهج عند أهل السنة والجماعة. وجمال يرى، أن الصحابة قد يكذبون

في الحديث.

وحسن يرى، أن الإجماع دليل من أدلة الأحكام المعتبرة عند أهل السنة والجماعة. وجمال يراه خرافة، لا يمكن أن تتحقق.

وحسن يؤمن بما اصطلح على تسميته بعلوم القرآن جملة وتفصيلا؛ وهي العلوم التي استقر علماء السلف على اعتمادها كقواعد وآليات لفهم النص القرآني. وجمال يرفض ذلك.

وحسن البنا قال بالحجاب في الإسلام. وجمال نفى أن يكون الحجاب من الإسلام.

وحسن اعتبر أن التدخين في رمضان يفسد الصيام. وجمال نفى أن يكون التدخين مفسدة للصيام، وأباح التدخين أثناء الصيام.

وحسن استنكر إمامة المرأة للمسلمين في الصلاة. وجمال أباح إمامة المرأة في الصلاة .

وحسن أبطل الزواج الشرعي، ما لم يوجد شهود وولي أمر. وجمال قال بصحة هذا الزواج بدون شهود، أو ولي أمر.

وحسن أجاز وقوع طلاق الرجل للمرأة منفردا بدون موافقة الزوجة. وجمال أنكر ذلك، ورفضه.

وعلينا أن نلاحظ أن لا شيخ في الإسلام قديما أو حديثا أفتى بما أفتى به جمال البنا، وقال بما قال جمال البنا، أو أيده في فتاويه، مما يدل على أنه لا أصول في الإسلام لفتاوى الشيخ جمال. وأن فتاويه عبارة عن اجتهاد شخصي، ومواقف شخصية معارضة، لا سند لها، ولا أساس، ولا برهان مقنعا.

وتلك واحدة من مظاهر فوضى الفتاوى المتضاربة، والتي أوقعتنا في مآزق وكوارث ومهالك، لا حدود لها.

* كم تساءلت بيني وبين نفسي عدة مرات، هذا السؤال الحائر؟
لماذا لم يقتل السلفيون العفيف الأخضر حتى الآن، ومن الذي يمنعهم من ذلك؟
لقد قتلوا في الماضي القريب الليبرالي فرج فودة، وقتلوا في لبنان المفكر حسين مروة، والمفكر مهدي عامل. وشنق حسن الترابي، المفكر السوداني محمود طه، بعد تنصيب جعفر النميري "أميرا للمؤمنين". وحاولوا اغتيال نجيب محفوظ. وهناك أسماء على قائمة طويلة لقتل عدد من الليبراليين في العالم العربي.
فلماذا لا يتبع الليبراليون المنهاج نفسه في محاورة السلفيين والتخلص منهم، باستعمال أدوات السكين، وكاتم الصوت، والمشانق؟
لماذا لم يقتل ليبرالي واحد في العالم العربي ذبابة سلفية واحدة، حتى الآن؟
إنه الجواب القاطع على إفلاس السلفية الفكري ولجوئها إلى سفك الدماء، بدلا من حوار العلماء.

مفكر يستحق الذبح
نعم، يستحق العفيف الأخضر الموت بسكين السلفيين، والذبح

ذبحا، والجزر جزرا - كما هي العادة عند السلفيين - ولا جزاء له عندهم إلا هذا الجزاء، الذي ناله من قبله صف طويل من المفكرين الليبراليين.

فلماذا يستأهل العفيف هذا المصير بيد السلفيين الأصوليين؟

إنه المفكر، الذي فضح المسكوت عنه.

وهو المفكر، الذي فضح تهافت خطابهم السلفي السياسي والديني والاجتماعي.

وهو المفكر، الذي وقف إلى جانب التفكير الواقعي العقلاني التاريخي.

وهو صاحب الفكر المعرفي المقارب للظاهرة الدينية.

وهو على رأس الدعاة إلى إصلاح التعليم الديني الظلامي.

وهو على رأس قائمة المفكرين الليبراليين الداعين إلى نزع سلاح المنظمات الإرهابية الانتحارية في العالم العربي، والعودة إلى موائد المفاوضات بين العرب والعرب، وبين الحكام والشعب، وبين العرب وأعدائهم.

لماذا يطلبون رأس الأخضر؟

يستحق العفيف الموت، لأنه يكتب منذ أكثر من عشر سنوات في الصحافة العربية عن الكوابيس العربية القاتلة.

فهو يدعو إلى إقامة المجتمع المدني. واهتمام العفيف الأخضر بالحديث عن المجتمع المدني والإلحاح عليه، ينبثق من خلال كون قيام المجتمع المدني هو المفتاح لقيام ديمقراطية سليمة، وقيام مجتمع الحريات المصانة، وانتشار الحداثة السياسية والفكرية والأدبية والفنية والاقتصادية في المجتمع الذي يسود فيه المجتمع المدني. كما أن قيام المجتمع المدني، يعني أن هناك دولة علمانية قائمة فصلت الدين عن السياسة، ومنعت

رجال الدين من الاشتغال بالسياسة، وإصدار الفتاوى السياسية التي لا قيمة سياسية لها، وغرضها التحريض وليس نقد الذات السياسية، وهو ما يقف ضده الأخضر.

السكين تليق به

يستحق العفيف الموت، لأنه ينادي بالحداثة السياسية. ويرى، أن الحداثة تبدو رهانا لكل مشروع مجتمعي جدير بهذا الاسم، بما هي انخراط في المجتمع الدولي المعاصر باقتصاده المعولم والمتدامج، وهيئاته الدولية، وقيمه الكونية التي لا يمر انتهاكها، دون عتاب فعلي، أو رمزي. فالحداثة اقتطعت لنفسها أجزاء بكاملها من السيادة القومية، التي كانت إلى عهد قريب من اختصاص الدولة والأمة الحصري.

ضد التيار

وعلى عكس معظم المفكرين العرب المعاصرين، يعتبر العفيف الأخضر، أن الحداثة يمكن استيرادها من الخارج، وينفي ما يقوله بعض المفكرين العرب المعاصرين كمحمد الجابري من أن الحداثة لا تستورد كسلعة من الغرب، ولا بد من صنعها من داخل تراثنا الإسلامي مستشهدا بما حصل في عصر النهضة الأوروبية، عندما استلهم مثقفوها الحداثة من داخل الثقافة الأوروبية، لا من خارجها. ويعتبر الأخضر أن هذه المقولة جهل فاضح، في تاريخ الحداثة الأوروبية وعصر النهضة بالذات، فالنهضويون الأوروبيون عادوا إلى الثقافة الإغريقية - الرومانية الوثنية الغريبة عنهم، والتي تختلف مبنى ومعنى عن الحضارة اليهودية - المسيحية التوحيدية.

ثمن الديمقراطية

يستحق العفيف الموت، لأنه ينادي بالديمقراطية. ويرى، أن تعريف تشرشل للديمقراطية، بأنها أقل الأنظمة سوءا، لم يهرم. فهي خير من الشورى، التي قال حقيقتها عمر بن الخطاب متحدثا عن بيعة أبي بكر بأنها كانت "فتنة وقى الـلـه شرها". والديمقراطية خير من التوتاليتارية الإسلامية في إيران، والسودان، وأفغانستان المجاهدية أو الطالبانية، وعراق صدام الدموي. وأن خير ما في الديمقراطية هو التداول - تداول النخب والأجيال - على الحكم. وشر ما في الاستبداد خاصة، في صيغه العربية الإسلامية، هو الديمومة. وأن زعماء الحركات الإسلامية التي تطالب بالتداول، لا يعزلهم من مناصبهم إلا الموت. فراشد الغنوشي مثلا رئيس لتنظيمه منذ أكثر من ثلاثين عاما، ومع ذلك يشتكي من قلة التداول على الحكم في بلاده. والتاريخ وعلم النفس والسيوسولوجيا السياسية، تعلمنا جميعها، أن طريقة تسيير تنظيم سياسي ما، هي ذاتها الطريقة التي ستسير بها الدولة إذا حكمها هذا التنظيم: من كرسي الحكم إلى القبر أو السجن، وحسن الترابي أنموذجا.

علمانية الأخضر القاتلة

يستحق العفيف الموت، لأنه يؤمن بالعلمانية كضلع رئيسي من أضلاع الفكر الليبرالي. ويعتبر العلمانية الرد الوافي على الأصولية الدينية، وعلى الكنيسة الأصولية، ومحاكم التفتيش. فالعلمانية تعني أن لا يبقى الفضاء العربي - الإسلامي استثناء فضائحيا من العالم، بما فيه أفريقيا التي اعتمدت العلمانية.
والعلمانية تعني ثانيا ، أن لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين.

وتعني ثالثا، فصل الدين عن البحث العلمي والإبداع الأدبي والفني. وكذلك الفصل بين الدين والمواطنة؛ أي بين المؤمن والمواطن، لنقل غير المسلم من مرتبة الذمي إلى منـزلة المواطن المتمتع بجميع حقوق المواطنة.

العولمة المحرمة

يستحق العفيف الموت، لأنه ينادي بانضمام العالم العربي إلى العولمة. والعولمة في رأي العفيف تكريس لحرية التبادل التجاري، وبانتقال الرساميل زادت المنافسة العالمية ضراوة، حاكمة على كل اقتصاد قومي بخوض المنافسة مع الشركات متعددة الجنسية. وهكذا وجدت الشركات المحلية نفسها أمام خيارات جدية. إما أن تحسن تنافسيتها، وإما أن تندمج في الشركات متعددة الجنسية، وإما أن تتحول بدورها إلى شركات متعددة الجنسية. وهي كلها خيارات بالغة التشعب والتعقيد. لكن لا بديل عنها غير الحمائية الاقتصادية الانتحارية، في عصر السوق العالمية المندمجة.

التعليم الديني المقدس

يستحق العفيف الموت، لأنه يدعو إلى إصلاح التعليم الديني الظلامي، ويرى أن مخاطر التعليم الديني الظلامي الحالي ، تكمن في التالي:

1- غسل أدمغة التلامذة والطلبة يوميا بالهوس بالماضي، وبالنرجسية الدينية، وبعداء المرأة، وغير المسلم، والعقل، والحداثة.

2- التطويع النفسي للتلميذ والطالب، ليتصرفا وفق ما ينتظره مروضهما منهما بتحويلهما إلى ببغاء يقول ما قيل له. وهذا متعارض مع دور التعليم كما تصوره فيلسوف الأنوار كوندورسيه CONDORCET،

والذي يهدف إلى تكوين شعب صعب الانقياد؛ أي تربى على التفكير بنفسه، والنقاش المتعارض، ومقارعة البرهان بالبرهان، والفكر النقدي الذي يسائل الأطروحات والمقترحات عن شرعيتها العقلانية.

3- يرعى التعليم الظلامي السائد التعصب، بما هو خوف هستيري من إدخال النسبية على الحقائق الدينية، وتشبث عصابي باليقين المطلق والمغلق، عن كل نقاش وتجريم وتكفير للرأي المخالف. فلا يوجد في نظر المتعصب إلا رأيان مانويان: أحدهما صحيح مطلقا، والآخر خاطئ مطلقا.

4- يربي التعليم الظلامي الأجيال الصاعدة على تكفير الفلسفة، التي لا تدرس في كثير من دول الجامعة العربية أصلا، ولا تكاد تدرس فعلا، كفلسفة تحترم العقل وقوانينه، ولا كعلم كلام، إلا في بلدين أو ثلاثة على الأكثر. كما يربي التعليم الظلامي الأجيال على تكفير العلوم الإنسانية ونظرية التطور التي قال عنها سيد قطب في "معالمه" "إنها معادية للدين عامة وللإسلام خاصة".

5- يحارب التعليم الظلامي العقل بالنقل، ويستغل كل الغرائز البدائية والعدوانية من غريزة الموت، إلى الخوف من الجديد، لتكفير الحداثة، وقيمها، وغرائز الحياة التي حررتها.

6- يكفر التعليم الظلامي القيم الإنسانية، متمثلة في حقوق الإنسان والمواطن. والمساواة بين الجنسين بالنسبة للتعليم الظلامي، تعني له إلغاء قوامة الرجل على المرأة. وحرية الاعتقاد تعني إلغاء عقوبة الردة. والحق في السلامة الجسدية يعني إلغاء العقوبات البدنية الشرعية.. إلخ.

يستحق العفيف الموت، لأنه يفضح أزمة الثقافة العربية. ويرى أن عوائق تقدم الثقافة العربية تكمن في التالي:
1- العامل السياسي، وهو افتقار الحكام إلى الشرعية المزدوجة: الشرعية الديمقراطية وشرعية التفاني في خدمة الصالح العام، التي تعطيهم الصدقة الضرورية لثقة جمهورهم فيهم، وتاليا الثقة بالنفس لمصارحة شعوبهم بالقرارات التي تلبي حاجتها الحقيقية، وإن كانت تتعارض مع مزاجها الآني.
2- العامل الثقافي، وهو أنه مازال النقد مرادفا في وعي النخبة للهجاء بما هو تسقط للمثالب، ونية مبيتة للتخذيل. وما زلنا بعيدين عن الفكر النقدي الذي يؤدي وظيفة المصفاة التي تمنع الشوائب الفكرية من التسلل إلى التفكير المنطقي. وغياب الفكر النقدي يفسر انتشار العوائق الذهنية المؤسسة لسوء التفكير والأهواء السياسية - الدينية المحفزة للعمليات والقرارات الانتحارية.
3- إعادة إنتاج ثقافة الانطواء الجهادية القروسطية في العصر الحديث، والتي رفعت شعارات: حداثة خاصة بنا، تراثنا سياج تفكيرنا، والجهاد سلاحنا لتحرير فلسطين. وسادت هذه الثقافة في الربع الأخير من القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين، لأن منتجي هذه الثقافة لم ينتقلوا من الفكر التبريري "الأصيل" إلى الفكر النقدي "الدخيل".
4- إن كون الثقافة العربية ثقافة انغلاق وعنف، ساوت بين رجل الشارع ورجل الفكر. فرجل الفكر بالنسبة لها كائن تقليدي لا يفكر بنفسه، ولذلك لا يتوانى عن وضع نفسه على "خط الجماهير"، ليفكر

بأهوائها السياسية، وأوهامها عن نفسها، وهذيانها الجماعي، كما كان يفكر شاعر القبيلة في غابر الزمان.

الانتحاريون والأهواء السياسية

يستحق العفيف الموت، لأنه يرى أن العمليات الانتحارية، لم تصنعها السياسة، وإنما الأهواء السياسية التي تفعل بالسياسة ما يفعله الجنون بالعقل. ويعتبر أن تاريخ السياسة العربية الفلسطينية، هو تاريخ الجمود الذهني للفكر السياسي العربي، الذي يتجلى في هوس الرفض، لكل حل وسط، تقترحه الأمم المتحدة، أو اسرائيل، أو أي زعيم عربي عقلاني. وهكذا رفضت السياسة إياها قرار التقسيم في 1947، وأعلنت الحرب على الدولة اليهودية، فكلف ذلك الفلسطيني 6000 كم مربع أضافتها إسرائيل إلى حصتها. ورفضت اقتراح بن غوريون في جنيف في عام 1949 عودة مائة ألف لاجىء، ورفضت سنة 1964 اقتراح بورقيبة قبول قرار التقسيم الدولي. من ناحية أخرى، ينبع نقد العفيف الأخضر للكفاح المسلح، من باب نقد الذات، وتصفية الحسابات مع أنفسنا، ومع تراثنا، ومع قوة قصورنا الذاتي، ومع كل ما يمنع سكان الفضاء العربي والإسلامي من الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة، ومن القدامة إلى الحداثة، ومن التأخر إلى التقدم، ومن ردود الفعل اليائسة لنرجسي جريح إلى التحليل والتفكير الموضوعي في الواقع الموضوعي، بدلا من ملاحقة الأوهام، والتهليل فرحا بشعاراتها المضللة. ففي المجتمعات الحديثة يكون الناس أدوارا اجتماعية، ودور المثقف ليس التحريض ولكن التحليل. وعلامة النضج في كل أمة، هو الانتقال من تمجيد الذات النرجسي الصبياني إلى نقد الذات.

الإيمان بالسلام

يستحق العفيف الموت، لأنه يؤمن بالسلام. فيستطيع مجتمع العبيد، أن يقيم الحروب، وربما أن ينتصر فيها في بعض الأحيان، ولكن السلام لا يقدر عليه غير مجتمع حر ومواطنين احرار. فالحرية والسلام لا يتجزآن. وبناة السلام، لا بد أن يكونوا أحرارا. فمجتمع العبيد هو الذي يقول لمواطنيه إن الحرب هي السلام، والحرية هي العبودية، والجهل هو القوة، كما قال جورج أورويل، في روايته الشهيرة "1984".

ويعتبر العفيف الأخضر، أن السلام هو القانون الاخلاقي والوضعي في سلوكنا والشرعية الدولية في مطالبنا. لكن ذلك حلم بعيد المنال ما لم يتشرب طرفا الصراع قيما مشتركة كونية تعريفا. قيم حقبتنا هي قيم حقوق الإنسان المدنية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية - الثقافية، فضلا عن القيم الديمقراطية المحايثة لها. والطريق إلى هذا كله لن يتم إلا بالتعليم والاعلام لإعادة صياغة وعي المواطن بهذه القيم الإنسانية التي هي العمود الفقري لثقافة السلام.

الأصولية والحداثة

يستحق العفيف الموت، لأنه يعتبر أن الأصولية من عوائق تقدم الحداثة في العالم العربي. وأن الأصولية الدينية تعتبر أن الحداثـة ضد التراث، وهادمـة له، ومفصولة عنه، ومتناقضـة معه. وهذا مفهوم خاطئ فالحداثة لا بد لها من أساس، وأساسها هو التراث الصالح كأساس مكين، والذي يقوى على حمل كيان فكري وحضاري كبير كالحداثة. إن من عوائق تقدم الحداثة في المجتمع العربي الفهم الخاطئ للتراث نفسه. فمعظمنا يفهم التراث على أنه فترة زمنية مقدسة ومحددة، وليس نصوصا قابلـة أو غير قابلـة للتنفذ في العصر الحديث. وعلينا أن نستعيد هذه

الفترة المقدسة دون نقاش ودون تمحيص ودون غربلة أو فرز، فلا نأخذ منها ما ييسر حياتنا ويدفعها إلى التقدم، ولا نترك منها ما يعيق هذه الحياة وسيرها إلى الأمام.

ما الذي أبقاه حيا حتى الآن؟
وبعد، ألا يستحق العفيف الأخضر من الأصوليين الذبح بالسكين، أو تعليق المشنقة له، أو قتله بكاتم الصوت على هذه الأفكار التي يبثها في العالم العربي اليوم؟
ولكم أن تتساءلوا جميعا :
ما الذي أبقى على العفيف الأخضر حيا حتى الآن، بعد أن منع من الكتابة في الصحافة العربية، والظهور في الفضائيات، وكتم على أنفاسه هذا الكتمان؟

* من سوء حظي، أنني تعرفت منذ زمن قريب على إبراهيم البليهي. لم ألتق هذا المفكر السعودي المستنير والمنير، ولكني قرأت جزءا كبيرا مما كتب، واستمعت إلى بعض مما قاله. وأنا أجزم، أن كثيرا من القراء العرب خارج السعودية، لم يعرفوه حتى الآن، ولم يقرأوه كذلك. بل إنني أجزم ايضا، أن كثيرا من المثقفين العرب لا يعرفون من هو إبراهيم البليهي، وماذا كتب، وماذا قال. وكان على البليهي لكي يعرفه العالم العربي حق المعرفة، ويقرأه حق القراءة، ويشتهر، أن يرحل إلى مصر، كما رحل معظم مثقفي ومفكري العالم العربي والإسلامي من قبل ومن بعد، وكما رحل مطربو وممثلو العالم العربي إلى مصر طلبا للشهرة، والصيت المدوي.

خصوبة نجد

ليس مستغربا على منطقة نجد، أن تكون أرضا خصبة تنبت المفكرين التنويريين في الماضي والحاضر. فقد سبق البليهي تنويريون مشهورون خرجوا من نجد، وما زال صداهم يتردد في العالم العربي، وما زالت آثارهم الفكرية والأدبية تتصدر قائمة الأعمال الثقافية التنويرية العربية، كعبد

الـلـه القصيمي، وتركي الحمد، وعبد الـلـه الغذامي وغيرهم. ولن يكون البليهي آخر هؤلاء التنويريين، الذين أنبتتهم نجد الخصبة بالعطاء الفكري والثقافي.

الظاهرة التنويرية

إبراهيم البليهي، ظاهرة فكرية تنويرية شديدة الأهمية. بل هو يظهر بيننا في هذا الزمان، وكأنه بأفكاره سابق لعصره. ونحن إذ نقرأه الآن، ننسى أننا نقرأ مفكرا يعيش بيننا في هذا العصر، الذي اشتد فيه الظلام، وارتفعت فيه أصوات الصدى، وضاقت الصدور بالرأي الآخر، وتاه العقل في متاهات التكفير والنفير. ونحن نقرأ البليهي الآن، نحسب أننا نقرأ مفكرا عاش بعد مائة سنة، أو أكثر من الآن، وأنه رأى ما لم نر، وسمع ما لم نسمع، وقرأ ما لم نقرأ. وأن هذا المفكر لم يكن ابن حاضرنا، ولكنه كان ابن مستقبلنا. ولذلك، فلو ترشح البليهي لانتخابات مجلس الشورى السعودي الآن، لسقط عدة مرات في هذه الانتخابات، ولما استطاع أن يصبح عضوا في هذا المجلس، كما كان، وذلك لمخالفة أفكاره وطروحاته لما هو قائم في المجتمع السعودي. ولما استطاعت غير فئة قليلة من المواطنين انتخابه. وذلك هو مكر الديمقراطيات في العالم الثالث خاصة.

من المحتمل والمؤمل، أن يترك لنا البليهي المفكر النشيط والمتوقد، عددا كبيرا من الكتب التنويرية المهمة، والتي ستكون علامة فارقة في الفكر العربي التنويري في السعودية، رغم أن ما كتبه البليهي حتى الآن، يسد نقصا كبيرا في الفكر العربي التنويري في المملكة. فكتبه: "بنية التخلف"، و "النبع الذي لا ينضب"، و "سيد قطب وتراثه الفكري والنقدي"، و "وأد مقومات الإبداع"، وبحوثه في "القيادة والانقياد"، و"العقل البشري"، و"عبقرية الاهتمام"، و "العلم ومهارة الأداء"، و "الكلال المهني"، كلها

تعتبر علامة فارقة ومميزة في التفكير العربي التنويري المعاصر.

"وأد مقومات الإبداع"

ينادي البليهي في كتابه "وأد مقومات الإبداع"، بالهدى والرشد. والهدى والرشد في مفهوم البليهي، ومن خلال هذا الكتاب، يتلخص في تنمية التفكير العلمي، وتشجيع التحليل بدلا من التلقين، والإبداع بدلا من الاتباع، والدراية بدلا من الرواية، والحوار بدلا من الإلزام بحد السيف، كما هو سائد الآن، من قبل الإرهابيين ضد التنويريين، واحترام الرأي الآخر. ويدعونا البليهي في هذا الكتاب، أن نكون في معترك الحياة العصرية، وأن لا ننعزل عن باقي شعوب هذا الكون، وننكفئ على أنفسنا، ونتحوصل، وننكمش على أنفسنا، وعلى ثقافتنا. فالثقافات لا تنمو ولا تبدع إلا بالتلاقح مع ثقافات الآخرين. والانعزال عن ثقافات العالم، يؤدي إلى الجمود والتحجر، وبالتالي إلى التخلف. وأننا ننجح في العيش بسلام مع الآخرين، حين نترك للآخرين قيمهم، أو نأخذ منها ما هو مفيد لنا، ونترك لهم ما لا يناسبنا، ونطلب منهم أن لا يتدخلوا في شؤوننا، ويتركونا لقيمنا وحدنا، ونحن وحدنا الذين سنكتشف مستقبلا ما نأخذه من قيمنا، وما يجب علينا أن نترك.

ومن الجوانب المهمة في هذه الكتاب، التأكيد على لغة الحوار بين الثقافات والحضارات على أساس من الاحترام المتبادل والندية. فالاحترام المتبادل هو الوسيلة المهمة لإقامة علاقات عميقة، ورسم المستقبل الإنساني المشترك بين والشعوب وإرساء قواعد التفاهم العميق. وينبهنا البليهي إلى ضرورة إدراك أهمية المستجدات الكونية الجديدة كالعولمة، والتي من شأنها أن تؤدي إلى إقامة روابط بين الأمم، أعمق وأمتن وأكبر مما كانت عليه في الماضي.

يعي ويدرك إبراهيم البليهي في كتابه هذا، بأن للعولمة جانبين: جانب سلبي، وجانب إيجابي. ومثلها في هذا مثل أي معطى إنساني آخر. فليست كل المعطيات الإنسانية إيجابية، وليست كلها سلبية. وعلاج سلبية العولمة يكون بفرض الاحترام المتبادل بين الثقافات، والتمسك بخصوصيات كل ثقافة، وعدم التنازل عن هذه الخصوصيات. فبقدر ما نتمسك بخصوصية ثقافتنا، ندع العالم يحترمنا، ويكتشف فينا الأصالة. وهذا لا يعني تجميد ثقافتنا وعدم تجديدها، بما يناسب روح العصر الذي نعيشه مع الآخرين.

ويؤكد البليهي من خلال كتابه هذا، أن مقومات الإبداع لا تتأتى إلا بحرية الإبداع، وإذا أرادت أمة أن تئد الإبداع، فما عليها إلا أن تلزم مبدعيها إلزاما قسريا، ولا تدع لهم حرية الالتزام.

وحرية الالتزام هي ما يؤكد عليه البليهي في عدة مناسبات، ومنها محاضرته التي ألقاها في أبو ظبي، عن محنة العقل العربي، تحت عنوان "بنية التخلف في العقل العربي". وفيها يعترف البليهي بشجاعة المفكر التنويري، بأن العقل العربي الحالي أكثر من متخلف. ويرى أن مفاتيح التقدم تتركز في التعامل مع العقل المنفتح، الذي له فاعلية وقابلية التشكيل بأشكال متنوعة، تستوعب المتغيرات، بعيدا عن السائد الذي تعودنا عليه. فلا يوجد كمال مطلق، أو معرفة مطلقة، بل الأمور تكون نسبية دائما.

لا نستحق وصف التخلف!

وحين يحلل البليهي واقعنا، يرى أننا لا نستحق وصف التخلف

فقط، لأن جهلنا مركب، ووضعنا سيئ للغاية. والطامة الكبرى، أننا لم ولن نعترف بهذا الوضع. وما زلنا نكابر. وأننا لم نبدأ بعد. وفيما الآخرون يمشون بسرعة الضوء، فنحن نتقهقر.
ويتحدث البليهي عن ثقافتنا، فيقول بجرأة، إن ثقافتنا هي ثقافة الأموات وليست ثقافة الأحياء، الذين يستحقون منا الاحترام والتشجيع لأنهم يضيفون الجديد، ويساهمون في التغيير والتطور والتجدد خدمة للإنسانية، بخلاف الأموات الذين انقطعوا عن الحياة، وأضحوا غير قادرين على العطاء والتفاني.

أحط من الحضيض!

ويتحدث البليهي عن الحاضر العربي المرير بصراحة وشجاعة المفكر التنويري، فيقول:
إن العرب والمسلمين يعيشون في وضع مزر، وبالغ السوء. وهم خارج التاريخ. بل هم يعرقلون حركة التاريخ. إننا مازلنا نعيش بعقل ما قبل التاريخ. ويؤكد بأن للعالم مفاتيحه، ويجب أن نحسن استخدامها. ويلتفت البليهي كمفكر تنويري إلى ضرورة إعمال النقد في حياتنا العامة؛ أي في الثقافة، والأخلاق، والفكر، والسياسة، والاجتماع، معتبرا أن الغرب تقدم عندما تخلص من تقديس المرجعيات، وعندما أعمل الفكر الفلسفي المبني على النقد في كل شؤون حياته. وهو الوقود الذي يحرك العقل الأوروبي. فكلما مال هذا العقل إلى الركود، جاء العقل النقدي يحركه. وهو ما يؤكده البليهي من جديد في بحثه (المسلمات الثقافية تعطل عقل الفرد والمجتمع)، حيث يعتبر أن واحدة من محن العقل العربي الكبيرة هي المسلمات الثقافية التي تعطل عقل الفرد والمجتمع.

خطر مسلمات الثقافة

لكل ثقافة مسلمات سابقة للعلم ومحددة لآثاره. وهي في الغالب ليست قائمة على معرفة ممحصة، اختبرها الوعي الفردي والجماعي، واقتنع بها ثم مارسها حتى صارت سلوكا تلقائيا لا شعوريا، وإنما هي مسلمات عفوية يتوارثها المجتمع عن أسلافه جيلا بعد جيل، ويتشربها الأفراد بشكل تلقائي. فهي لا تمر بالوعي ولا يغربلها العقل، وإنما هي انسياب تلقائي من اللاوعي الجمعي إلى اللاوعي الفردي. وقوامها التقليد، والمحاكاة، والوجدان، والتلقين، والحس المشترك. ويمتصها اللاوعي الفردي مباشرة من المجتمع. ويؤكد البليهي، أن المسلمات قيود ثقيلة، تكبل العقل، وتشل التفكير، وتستبقي الفرد والمجتمع في إطار التقليد والاجترار. فلا بد من القفز واختراق المتعارف عليه، وإخضاع المسلمات للمحاكمة والتدقيق، وعدم العودة إلى الوثوق النهائي، مهما كانت النتائج. وحتى ما يجري التوصل إليه بالبحث العلمي والاستقصاء الدقيق، ينبغي أن يظل موضوعا للنقد والمراجعة والتصحيح.

دور الفكر التنويري

يؤكد إبراهيم البليهي، أن التاريخ في الماضي وتجارب الشعوب في الحاضر، أثبتت أن للفكر التنويري الناقد دورا رئيسا في التقدم والازدهار. وأنه من غير ذلك، لا يمكن لأي مجتمع أن يتقدم أو يزدهر. فالأصل في المجتمعات، أنها تبقى أسيرة السائد من الأفكار، والأدوار، والسلوكيات. فلا يخرجها من هذا الدوران الأفقي سوى الأفكار الناقدة، ولا يحفزها على النهوض سوى المفكرين الذين يستوعبون مكونات ثقافة مجتمعاتهم، كما يستوعبون التغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة الإنسانية. فينهضون بدور التنوير، والحفز، وتقديم الرؤى، وإرشاد المسيرة.

المثقف العضوي

إن إبراهيم البليهي ظاهرة فكرية نادرة، وأهم ما في هذه الظاهرة، أنه مثقف عضوي. والمثقف العضوي كما وصفه الكاتب الإيطالي أنطونيو غرامشي في كتابه "كراسات السجن"، هو المثقف الذي لا يعيش في قفص ذهبي، أو في برج عاجي. وهو المثقف الذي لا يكتفي بأن تكون الكتب والكلمة المكتوبة - أينما وجدت - هي مادة عقله الوحيدة. ولكن المثقف العضوي هو المثقف الملتصق بقضايا مجتمعه، والذي ينزل من برجه العاجي إلى أرض الواقع، ليرى واقعه على حقيقته. وليس لدينا في الفكر العربي المعاصر، أو في الفكر العربي الكلاسيكي في كل عصوره من المفكرين من خبر الواقع وعاركه، كما خبره وعاركه إبراهيم البليهي. فهو عندما كان مسؤولا كبيرا في سلك الخدمة المدنية في شؤون البلديات، في الدمام وحائل والقصيم، كان مثال المسؤول الأمين النظيف الشريف. فحارب الفساد في الإدارات التي تسلم مسؤوليتها، كما لم يحاربه أي مسؤول آخر، سيما وأنه عمل في شؤون البلديات، حيث يكثر الفساد وينتشر هناك بشكل كبير. وهو الذي كان يحول الأراضي المسروقة من الدولة، بعد أن يستردها، إلى حدائق عامة للناس. فقد كان البليهي المصلح في الإدارة، والمصلح في الفكر أيضا. وهو النظيف في الفكر والنظيف في الإدارة أيضا. فكان يسكن في حائل، وهو رئيس بلديتها في منزل مستأجر، وهو الذي رفض كل المنح والهبات والعطايا والمطايا. وخرج من الخدمة العامة في البلديات نظيفا، نظافة نادرة في هذا الزمان.

دعوة للمثقفين

والبليهي من منطلق هذا السلوك الشخصي السوي والنظيف، هو الذي ينادي، بأن لا بد من أن ينـزل المثقفون إلى خطاب العامة، وأن

يتبسطوا لهم، وأن يقربوا لهم الأفكار. وهذا ما قام به. فلم يأت البليهي من بين بطون الكتب فقط، ولكنه جاء أيضا من بين كثبان رمال في نجد وما تخبئ من مسلمات ثقافية طالما تعرض لها، وطالب بإعمال العقل في كل هذه المسلمات، وبالنقد الذاتي حتى نستطيع الوصول إلى المعرفة الحقيقية، متمثلا بمقولة سقراط: "أنا أعرف أنني لا أعرف". وأن هذه المسلمات التراثية عبارة عن عروق الذهب في الصخور، تحتاج إلى علم ومعرفة حديثة في تعدينها، واستخراجها. وليس أي عابر طريق يستطيع استخراجها، والاستفادة منها، كما هو الحال الآن في العالم العربي تجاه المسلمات التراثية. وطرح البليهي هذا كله بحذر شديد، وذكاء، وتحت طبقة سميكة من المعرفة، وعلم عليم بظروف قومه ومجتمعهم وتحدياته. وقال هذا كله، في مجتمع محافظ يؤمن ايمانا أعمى بالمسلمات، والثوابت، بحيث أنه استطاع رغم هذه الأفكار الحداثية والليبرالية جدا، أن يحصل على ثقة أولي الأمر، ويصل إلى مجلس الشورى السعودي بالتعيين، كعضو فيه. وهو الذي لو ترشح لعضوية هذا المجلس عشرات المرات، لما فاز بهذه العضوية، لوقوف جل الناخبين ضد آرائه وطروحاته، كما سبق وذكرنا.

## تأسيس علم الجهل

كان هم البليهي الفكري والمعرفي منذ بداياته، لا يقل عن همه الإداري السابق. ومن هنا، فقد كان البليهي مفكرا متميزا من خلال كتبه المختلفة. وكان كتابه "تأسيس علم الجهل" من أهم هذه الكتب في رأيي، لأنه يؤسس لمعرفتنا بمكامن جهلنا، وأسباب هذا الجهل. ذلك أن البليهي يعتبر أن جهلنا مركب. ويعني بذلك أن جهل الإنسان لجهله واغتباطه بهذا الجهل اعتقادا منه بأنه الحق والصواب، هو أقوى استحكامات بنية

التخلف. فغبطة المجتمعات المتخلفة بثقافاتها، وتوهمها الكمال لذاتها، واقتناعها بأوهام الاكتفاء، قد حال بينها وبين أي تقدم. وإن هذه الغبطة الواهمة، هي القلعة الفولاذية التي تتحصن بها بنية التخلف، وبذلك توصل البليهي، إلى أن العقل البشري يصوغه الأسبق إليه. وأنه متى تحدد اتجاهه، ومنظومة قيمه، واهتماماته، وطرق تفكيره بالتنشئة المبكرة، فإن العلوم التي يتلقاها بعد ذلك في المدارس والجامعات تبقى طلاء خارجيا، لا تأثير له على البنية الذهنية والوجدانية، ولا على طريقة التفكير، ولا على تكوين الاتجاهات. وهنا لا بد من الاستدراك لمفهوم التخلف. فهذا المفهوم يوهم بأن المتخلف يسعى للخروج من حالة الركود، لكنه لم يلحق بعد. وهذا عكس الواقع. فهذه المجتمعات تدور في المكان نفسه، ولا تريد أن تتجاوزه، لذلك فإنها ستبقى حيث هي، ولن تلحق أبدا حتى تغير ذاتها. فالتخلف مرحلة متقدمة قياسا بحالة الدوران الثابت الذي لا يتجاوز مكانه. فوصف هذه المجتمعات بالتخلف يغطي حقيقة عجزها البنيوي.

رياح "الطوز"

وكان البليهي في هذا كله، راية العقل الواقعي في مهب الرياح الصفراء العاتية التي تحمل الكثير من الغبار ولا تحمل حتى القليل من المطر، وهي أشبه برياح "الطوز" التي تهب من الصحراء العربية.

وكان من أهم هذه الرياح:

1- المسلمات الثقافية المتوارثة والطارئة، التي تعطل العقل البشري تعطيلا شديدا، دون أن يفطن العقل لهذا التعطيل، فتستبقيه في حركة دائرية عميقة، سواء على مستوى الجماعات، والفئات، والطوائف، والمجتمعات، والشعوب، والأمم، أو على مستوى الأفراد.

2- ذوبان الفرد العربي في القبيلة، أو الطائفة، أو الدولة. حيث إن الفرد لم يستطع أن يتعرف إلى ذاته ويستردها إلا مع ذلك الإشعاع الفكري الفلسفي الباهر، الذي تلألأ في القرن الخامس قبل الميلاد، حيث أنتجت الفلسفة للمرة الأولى في التاريخ البشري قيما إنسانية عليا، ووضعت هذه القيم موضع التطبيق المشهود والممارسة الحية، فأصبح الإنسان الفرد في ذاته قيمة عليا، وبات هو بنفسه غاية قصوى، ولم يعد مجرد وسيلة لغيره.

3- الثقافة العربية التي تطمس فردية الإنسان، ولا تعترف له بحقوق. فهي تؤكد دائما واجباته، لكنها تغفل حقوقه إغفالا تاما. فمعضلتنا هي معضلة ثقافية في الدرجة الأولى، وحتى الخلل السياسي الشديد في العالم العربي ما هو إلا نتاج الخلل الثقافي. فلولا أن الثقافة تستسيغ هذا الخلل السياسي لما رضيت به، ولولا ذلك لما كانت دائما وخلال العصور القديمة والحديثة تسير خلفه لتمنحه المشروعية، وتروض له الناس. وخللنا الثقافي مزمن وموغل في القدم. لا بد من أن نقوم بحفريات واسعة وعميقة في ذاتنا الثقافية لنعرف كيف بدأ الخلل، وكيف تكون، وكيف استمر. كذلك، فإن معضلة العرب أنهم ما زالوا مأسورين برؤية ثقافية مغلقة. فالأمة بكل طاقاتها الهائلة وعددها الكبير، ترى أنها غير قادرة على أن تغير ذاتها، لذلك تنتظر دائما قائدا عادلا مستبدا، يحقق لها كل شيء، مع أن هذا القول ينطوي على تناقض شنيع، لأن العادل لا يمكن أن يكون مستبدا. إن انغلاق ثقافتنا أصابها العقم والإمحال، لأنها تدعي الكمال، لذلك لم نستفد من فتح المدارس والجامعات، ولا من تعميم التعليم. فلا جدوى من استيراد المعلومات والأفكار، ما لم تنفتح هذه الثقافة وتتغذى بالمنجزات الإنسانية الهائلة. أما إذا

بقيت مغلقة، فإن كل منجزات العلم والفكر تبقى طلاء خارج البنية الذهنية للإنسان العربي. والعرب والمسلمون في وضع بالغ السوء. وسبب هذا الوضع المزري هو عجز ثقافتهم أن تستوعب حضارة العصر، وأن تدرك نقائصها، ومزايا الثقافات الأخرى.

4- عدم اعتراف المجتمعات العربية للمثقفين والمبدعين بأي دور. بل تحاول هذه المجتمعات إقصاءهم ومنعهم من نشر أفكارهم. لذلك، ما زال المثقفون غير مؤثرين. فلا قيمة لأية أفكار إلا بالاستجابة لها من المجتمع. ولا مكانة لأي مفكر إلا إذا اقتنع الناس بأهمية دوره.

5- عيشنا في حالة نكوص ثقافي مريع. فالخلافات الفكرية على المستوى الشعبي، إلى وقت غير بعيد، كانت تحل بالمواجهة بين الفكرة والفكرة المضادة. أما الآن فتعالج بالقوة والإرهاب والملاحقة الاستئصالية، ليس من السلطة السياسية، كما كانت الحال سابقا، وإنما من الناس الذين يحاول المفكرون تخليصهم من خوانق الحياة، وإخراجهم من أنفاق التخلف. وهذه نهاية نكوصية فظيعة ومأساوية، لم تمر بها أمة أخرى . وهذا هو حصاد الانغلاق الثقافي، والاستبداد السياسي، وتنمية عاطفة الكره.

6- انتشار فكرة صراع الحضارات. وصراع الحضارات خرافة. وهو صراع جهالات في واقع الأمر. إن طبيعة الحضارات لا تؤدي إلى الصراع، وإنما النفوس الشريرة التي داخل الحضارات هي التي تخلق الصراع. بمعنى أن الحضارة الكنفوشية بالصين والحضارة الإسلامية، لا يمكن أن يكون هناك صراع بينهما، ولكن الصراع يولده من ينتمي إلى هذه الحضارات.

7- كبت الفكر وقهر الرأي. فالإسلام حق، لا يمكن أن يصيبه الضرر من فتح المجال لتعدد الآراء، وإنما الضرر كل الضرر على الإسلام، يأتي من كبت الفكر، وقهر الرأي، وبرمجة الناس على فهم واحد. أما

الاختلاف فهو حقيقة بشرية وتاريخية {ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم}. فالخوف من تعدد الآراء، والضيق بالأفكار، هو شيء طارئ على الحياة الإسلامية لأسباب كثيرة. والإسلام بمبادئه وتعاليمه ليس ضعيفا، فنخشى عليه. فهو أقوى وأرسخ من أن نخاف عليه من تعدد الآراء، أو من أن يجهر بعض الناس بأفكار لا تتفق معه، أو لا تتفق مع فهمنا له. وإذا توجسنا من حرية الرأي، فإننا بذلك نتهم الإسلام ضمنا، بأنه غير قادر على المواجهة. وهذا منتهى الظلم للإسلام، ومنتهى الجهل به.

كيف نستفيد من البليهي؟

إذن، نحن أمام مفكر صريح وجريء. وهو بالتالي مفكر تنويري ليبرالي؛ أي أننا أمام مادة علمية فكرية وطنية، تعلم ما بنا، وماذا نريد، وما هي طرق الخلاص مما نحن فيه. وأقل ما يجب أن نقوم به، هو أن ندرس جيدا ما يقوله البليهي في مدارسنا. لأن ما يقوله هو فكر المستقبل، وهو طريق المستقبل. ومن المؤكد أن الطلبة في المدارس والمعاهد والجامعات سوف يجدون في فكر البليهي ضالتهم، وما يبحثون عنه، وينير لهم طريقهم، ويصد عنهم نداءات طيور الظلام، التي تغريهم بتفجير الحياة فيهم والقضاء عليها، بدلا من تفجير طاقات هذه الحياة.

فكيف لنا أن نحرم نصوصنا المدرسية والجامعية، من هذا الفكر المنير. وبذلك نتهم الإسلام ضمنا، بأنه غير قادر على المواجهة. وهذا منتهى الظلم للإسلام، ومنتهى الجهل به، كما قال لنا البليهي قبل قليل.

فكيف لنا أن نحرم نصوصنا المدرسية والجامعية، من هذا الفكر المنير، بدلا من أن نحشو رؤوس الطلبة بالقش، سريع الاشتعال، والذي لا يصلح إلا علفا للأنعام؟!

* تعرضت الكاتبة والناقدة والأكاديمية الليبرالية التونسية رجاء بن سلامة في عام 2006 لحملة هوجاء مسعورة، في الصحافة التونسية، وفي الأوساط الأكاديمية، نتيجة لآرائها وكتبها، ومحاضراتها، وبحوثها المختلفة. وبلغ بالأصوليين المتشددين في تونس مثلا، حدا، أن فضلوا ما قالته المطربة التونسية المعروفة "لطيفة" عن حزب اللـه، عما قالته رجاء بن سلامة، كما كتبت أسماء القرقني في موقع "تونس نيوز" على الانترنت، في مقالها الذي اختتمته بقولها: "قارنوا أيها القراء بين كلام بن سلامة وكلام لطيفة، وستفهمون الفرق بين ثقافة المقاومة والعز، وثقافة الهزيمة والخراب."

وأسماء القرقني هذه، هي إحدى طالبات الدكتورة رجاء بن سلامة، والتي يحاول معها التيار الديني الأصولي التونسي، أن يجمع أكبر عدد من طالبات الدكتورة رجاء، لكي يشهدن ضدها، بأنها في محاضراتها تهاجم الإسلام، وتهاجم القرآن، لكي يصل الأمر بهم إلى تكفيرها، وإباحة دمها.

الموقف الليبرالي

وهنا نتوقف قليلا

إننا كليبراليين لا نحجب الرأي الآخر. ولا نمنع رأيا يقال ضدنا أو معنا. ولا نستعمل العنف، لكي نمنع الرأي الآخر المعارض لنا. ولا نبيح دما. ولا نخرج من الملة، كما سبق للشيخ ابراهيم الخولي أن أخرجني أنا شخصيا من الملة من على شاشة تليفزيون الجزيرة في عام 2005 ولا نكفر من يأتي باجتهاد جديد يخالف اجتهادنا ورأينا، في مسألة من المسائل، أو قضية من القضايا. ولا نستعمل الدين، أو أية أيديولوجية معينة، لكي نسفك من خلالها دماء الآخرين.

نحن قوم سلاحنا الكلمة، والكلمة فقط. ونتخاصم بالرأي والرأي الآخر، وليس بالسيوف، والسكاكين، والخناجر، والسيارات المفخخة. وإلا لما كنا دعاة حرية وديمقراطية.

اضطهاد الليبراليين

ونحن رأينا ونرى، أن لا فئة في تاريخ الثقافة والفكر السياسي العربي المعاصر شتمت، وسبت، وهزئت، واتهمت بشتى التهم البذيئة والرخيصة، كما حصل مع الليبراليين العرب من قبل الآخرين. فقد اتهمنا بأننا عملاء أمريكا، وطابور خامس، وحلفاء للمحافظين الجدد، وعملاء إسرائيل، وبأننا صهاينة في دمائنا وأفكارنا، ونعمل على إعادة الاستعمار للعالم العربي، وبأننا نناصر إسرائيل على الحق العربي، وبأننا مرتزقة، وبأننا سفهاء، وبأننا نأتمر بأمر البيت الأبيض، والأخضر والأصفر، وبأننا... الخ. ورغم هذا لم نقص لسان أحد من هؤلاء، ولم نهدر دم أحدهم.

ولكن أن تقود هذه الاتهامات إلى فتاوى بهدر دمائنا، فهذا ما لن نسكت عنه. ويجب أن نتصدى له بالكلمة وبالكلمة فقط، وليس بالسيف، أو السكين، أو الخنجر، أو السيارات المفخخة.

فنحن لا نساند، ولا ندافع هنا، عن رجاء بن سلامة، ضد من

يخالفونها الرأي، فهذا من حقهم، ونحن نؤمن بهذا الحق. ولكننا نساند رجاء بن سلامة وندافع عنها ضد من يدفعون ويحرضون - بمقالاتهم - فقهاء السلطان إلى إصدار فتوى لقتل رجاء بن سلامة، أو إهدار دمها، أو الاعتداء عليها، أو على غيرها، حتى ولو كان مخالفا لنا في الرأي والتوجه. فما زلنا ندافع حتى الآن عن سيد قطب، لأنه شنق بسبب آرائه، وهو الذي على نقيض تام منا.

تكفير رجاء بن سلامة

قالت أخبار تونس - ونرجو أن تكون غير صحيحة ولا وجود لها - بأن هناك فتوى دينية صدرت في تونس، أو ستصدر قريبا من أحدهم، تقول بأن رجاء بن سلامة كافرة، وبأنها قالت كفرا في محاضراتها بالجامعة. وجيء بمجموعة من طالباتها، ليشهدن بذلك، ومنهن الطالبة أسماء القرقني - كما ذكرنا - التي كتبت المقال السابق - أو كتب لها - في موقع "تونس نيوز"، بتاريخ 2006/9/8، والتي تقول فيه أيضا: "رغم معرفتي بآراء رجاء بن سلامة المعادية للحضارة العربية الإسلامية وللعروبة والإسلام، فإني لم أكن أتصور أن تكتب ما كتبت، وتتجرأ في التبشير بهزيمة المقاومة ونجاح إسرئيل."
والخطير هنا، هي هذه التهمة التي توجه علانية لرجاء بن سلامة، بأنها معادية للإسلام. وهي تهمة تكفيرية واضحة، وخطيرة، في زمن الإرهاب الفكري والجسدي، الذي يتحكم في العالم العربي الآن، ولا يتوانى أي فقيه من فقهاء السلطان في هذا الزمان الأغبر، من أن يستند عليها، لتكفير رجاء بن سلامة وغيرها، وبالتالي إهدار دمها وقتلها، لتكون أول شهيدة من شهداء الحق الليبرالي.

الفكر الليبرالي منفلت من كل عقال

وفي جريدة "الصباح" التونسية في 10 /2006/9 كتب محمد الرحموني مقالا آخر، قال فيه عن فكر رجاء بن سلامة وفكر "رابطة العقلانيين العرب"، الذي تتمثل فيه رجاء بن سلامة، وكوكبة كبيرة من المفكرين والمثقفين التونسيين الليبراليين: " إنه الفكر المطلق والمنطلق من كل عقال فكري أو أخلاقي يتجاهل التاريخ، ويتعامل مع الأمر بمنطق ملة الكفر واحدة."

ويتابع الرحموني مقاله، الذي يدفع به نحو تهمة التكفير لرجاء بن سلامة، ونحو تسويغ إصدار فتوى إهدار دمها طبقا لذلك، بقوله عن مواقف وفكر رجاء بن سلامة وزملائها من "رابطة العقلانيين العرب" في تونس: "صحيح أن هذه المواقف تنقصها الأخلاق والتوفيق، وتكشف عن فكر بلا ضوابط. ولكن الأخطر من ذلك هو ما لا تعلنه صراحة. فكل من يقول كلمة خير أو حق في الإسلام أو الإسلاميين، فوعيه بقري وعامي. لأنه ما زال في مرحلة العقل الهيولاني، الذي هو مجرد استعداد لإدراك البديهيات."

الليبراليون أدعياء العقلانية

وفي 2006/8/13 كتب الحبيب أبو الوليد، في جريدة "الوسط" التونسية مقالا بعنوان "ولم تتحقق نبوءة أدعياء العقلانية"، دافعا فيه نحو الفتوى التكفيرية المنتظرة، مضيفا المزيد من المسوغات "الشرعية" لإصدار هذه الفتوى، قال فيه:

"يكتب هؤلاء من موقع عدائهم للحركة الإسلامية، ودفاعا عن خيارهم في الانحياز إلى جانب الديكتاتورية، فيدعون أنهم وحدهم الذين

فقهوا ما تتطلبه المرحلة من رؤية متبصرة. وبالتالي فهم يسقطون في تبرير جرائم العدوان، وينتصرون للظالم بما ينسجم مع مواقفهم الجبانة، وتطلعاتهم الفاسدة. فهم يناصرون الاستبداد في إجرامه، ويقفون مع العدو ضد أهلهم."

فيكفي أن تكون عدوا للحركة الإسلامية ليهدر دمك، وتقتل. ويدفع الحبيب أبو الوليد بكلام آخر نحو المزيد من المسوغات الموجبة للقتل، فيقول عن رجاء بن سلامة، وزملائها:

"طالما راهنت في الماضي على أن الصحوة الإسلامية ليست إلا ظاهرة عابرة، ستزول بزوال أسبابها. وأنها ردة فعل وقتية على تيار الحداثة الجارف، وما إلى ذلك من أطروحات تبين أنها لا تستوعب حاضرا، ولا تستشرف مستقبلا. وهم يرفضون اليوم أن يصدقوا عنادا ومكابرة، أن كل حديث عن المقاومة والديمقراطية والحرية بعيدا عن مطالب الصحوة الإسلامية، وتطلعاتها، وفعالياتها هو باختصار شديد خروج عن الموضوع."

وفي نهاية المقال، يأتي حكم الحبيب أبو الوليد على "رابطة العقلانيين العرب" في تونس، بأنهم كفار لا يؤمنون بمبدأ، وهم مهزومون، ومستسلمون:

"مهزومون ومستسلمون، لا يفكرون في مقاومة، ولا يؤمنون بمبدأ، امتلأت بطونهم بالمال الحرام، وتمكنت منهم ثقافة الهزيمة، حتى لم تعد لديهم إشارة حياة ."

لا عقاب لقتلة الليبراليين!

ما قاله كل هؤلاء عن رجاء بن سلامة، وعن فكر الليبراليين ليس بالجديد. فقد سمعناه من الإخوان المسلمين كثيرا، طيلة ثمانين عاما

مضت، ومنذ تأسيس حركة الإخوان المسلمين في 1928 كذلك فقد سمعناه من جموع أشياخ "الصحوة" المتشددين في السعودية، ومن الجماعات الإسلاموية في معظم دول الخليج، وكذلك من الأحزاب الدينية السياسية، في مختلف أنحاء العالم العربي. فلا جديد في هذه الاتهامات.

ولكن الجديد هو أن هذه الاتهامات هي الاتهامات نفسها، التي سبقت مقتل فرج فودة، وشنق محمود طه في السودان، والاعتداء على حياة نجيب محفوظ، وتهديد سيد القمني بالقتل، إن لم يصمت نهائيا، ويتبرأ من كل ما قاله وكتبه في الماضي، وقد فعل كما قرأنا قبل قليل.

فلو أن الأمر ينتهي عند حد التهديد اللفظي فقط لهان الأمر. ولكن الكارثة أن يحمل بائع سمك، ساطوره كما فعل في مصر، ويقتل رجاء بن سلامة، كما قتل فرج فودة، وهو لا يعلم لماذا قتله. وجاء الشيخ محمد الغزالي القيادي في الإخوان المسلمين، والمؤلف لعشرات الكتب الدينية التي تعتبر مرجعا لا غنى عنه، يدافع عن القاتل أمام المحكمة، ويقول بأن ما لم يقدر السلطان على فعله - وهو تنفيذ حد الردة - قام هذا بقتل فرج فودة، ونفذ فيه "حد الردة" حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله. وعندما سأل قاضي المحكمة الشيخ الغزالي عن عقاب هذا القاتل، أجاب الشيخ الغزالي:

لا عقاب له، لأنه نفذ في القتيل "حد الردة"، الذي تقاعس الإمام (الحاكم) عن تنفيذه.

وعندئذ صرخ القاتل، بأعلى صوته فرحا:

"الآن أموت وضميري مرتاح".

سؤال
مثل هذه التعليقات، وهذا الكلام الخطير المليء بالتهم الزائفة، فيما لو قرأه أي شاب إرهابي أصولي متشدد، سيكون كافيا لأن يدفعه لقتل رجاء بن سلامة، وهو مرتاح الضمير كما قال قاتل فرج فودة. وحتى بدون صدور فتوى "شرعية" بقتلها. فهي تعليقات تفور دم الأصوليين ودعاة "الصحوة" وتلاميذهم، وتدفعهم لارتكاب جريمة، سوف يكون مثل هؤلاء الكتاب الذين كتبوا مثل هذه المقالات سببا في وقوعها. وسيكون دم رجاء - فيما لو سال - في رقابهم جميعا.
فهل تصبح رجاء بن سلامة شهيدة الحق الليبرالي؟
نأمل أن يسود العقل، في زمن اغتيال العقل.

## نجيب محفوظ
## عاش ومات في الجاهلية!

* مات نجيب محفوظ عام 2006 كما يموت كل الناس.

ولكن نجيب محفوظ عاش كما لم يعش كل الناس.

كان محفوظ إنسانا مجتهدا، ومخلصا، وأمينا في الأدب، والوظيفة الإدارية والسياسية، والصداقة.

لم تكن مهنته كروائي صادق وأمين، تنفصل عن شخصيته الاجتماعية كصديق وفي، وأمين.

ولم تكن مهنته كروائي صادق وأمين ، تنفصل عن مواقفه السياسية الصادقة والأمينة، وخاصة بعد ثورة 1952

ولم تكن شخصيات رواياته تحاول تزوير الحياة والواقع بكل مواقفها، وآرائها، ومسالكها. فكانت شخصيات رواياته هي جوانب حياة نجيب محفوظ المختلفة.

وكما كان محفوظ محافظا في اتجاهاته الأدبية، فقد كان كذلك محافظا في حياته الاجتماعية، وفي أسرته وصداقاته وعلاقاته الاجتماعية مع الآخرين. ولكنه في الوقت ذاته، لم يكن محافظا في مواقفه السياسية، ولم يكن متطرفا كذلك، بقدر ما كان سياسيا أديبا.

كاتب كل العصور

يقال إن نجيب محفوظ كان كاتب كل العصور، وكان أديب كل الأزمنة. فرغم أنه أديب له مواقف سياسية واضحة، إلا أنه لم يكن معارضا منبوذا في العصر الملكي، أو في العصر الناصري، أو في العصر الساداتي، أو في العصر المباركي.

كان أديب وكاتب وروائي، كل العصور التي عاشها.

ونال جوائز تقديرية من كل هذه العصور، رغم أنه كان معارضا للعصر الملكي، وللعصر الناصري بصفة خاصة. وهو الذي كان يجهر بآرائه، في انتقاد الديكتاتورية الناصرية انتقادا مريرا. وكانت رواياته بعد 1952 وبعد هزيمة 1967، تعبر عن هذه الآراء تعبيرا واضحا. ورغم هذا، فقد غفر له عبد الناصر هذه الآراء، وتلك المواقف. لقد سجن عبد الناصر معظم المفكرين والكتاب والروائيين المصريين من اليسار واليمين والوسط، وعذبهم وشنق بعضهم، ولكن نجيب محفوظ لم يعتقل ولم يسجن، ولم يحاسب عن آرائه ومواقفه.

ورغم نقد محفوظ المرير لديكتاتورية عبد الناصر وللتجربة الناصرية، في عدة روايات أبرزها "اللص والكلاب"، و"ميرامار"، و"ثرثرة فوق النيل"، و"الكرنك" ، إلا أن عبد الناصر اعتبر محفوظ أكبر من المحاسبة، وأكبر من العقاب، وأكبر من السجن. وأن من يستطيع أن يسجن رمسيس الثاني، ويحاسبه، ويعاقبه، يستطيع أن يسجن رمسيس الثالث عشر متمثلا بنجيب محفوظ، الذي جلب لمصر مجدا ثقافيا أكبر بكثير مما جلبه ملوك مصر القديمة من انتصارات عسكرية وسياسية، بدءا من رمسيس الأول وانتهاء برمسيس الثاني عشر. وغطى كثيرا على خيبات وفشل وانكسارات عهود ما بعد 1952، وما أصاب المجتمع المصري والشعب المصري بعد ذلك، من فقر، وجوع، وحرمان، واضطهاد، نتيجة لهذه العهود.

المثقف العضوي

نجيب محفوظ قدم لمصر وللعرب أعمالا مجيدة نادرة. ليس في الرواية فحسب، وليس في القصة القصيرة فحسب، وليس في كتابة المقال، وليس في أحاديثه ولقاءاته، ولكن في المواقف السياسية أيضا، كمثقف عضوي ملتصق بمجتمعه، وبقضاياه، ومشاكله.

فوقف ضد الديكتاتورية، وضد نظام الحزب الواحد، وسخط على العهود التي تحارب الديمقراطية والتعددية في مصر وفي العالم العربي، ودعا في كل رواياته للحرية والعدالة، واعتبر الديكتاتورية هي أسوأ ما في النظام السياسي، حتى ولو كان هذا النظام وطنيا ومخلصا، ويعمل لصالح المعذبين في الأرض. فالديكتاتورية سيئة، تمحي وتمحق باقي الحسنات التي يمكن أن يحققها النظام الديكتاتوري.

مثقف السلام

كذلك تجلت شجاعة محفوظ الليبرالية في وقوفه وتأييده لمبادرة السلام المصرية، ومعاهدة كامب ديفيد 1979، رغم النقد المرير والهجوم الغوغائي الذي وجه إليه وقتها. بل إن كل من كان يكتب عن فن نجيب محفوظ بعد هذا التاريخ، كان يعتبر من عملاء الاستعمار والصهيونية، وبأنه من مؤيدي "سلام الاستسلام". وعندما كتبت كتابي (مذهب للسيف ومذهب للحب) عن فن نجيب محفوظ الروائي عام 1985، اتهمت بالتهم نفسها. وما زالت هذه التهم تلاحقني حتى يومنا هذا.

وهكذا عاش نجيب محفوظ ومات في الجاهلية العربية.

العطاء والنكران

وكما لم يقدم مثقف مصري أو عربي لأمته من عطاءات ثقافية قيمة

كما قدم نجيب محفوظ لمصر وللعالم العربي، فإنه لم يسىء مجتمع، ولم تسىء ثقافة وأمة كما أساء المجتمع العربي والثقافة العربية لنجيب محفوظ في حياته.

ففي بداية حياته الأدبية وإلى ما بعد الخمسينات بقليل، لم يلتفت النقد الأدبي العربي إلى روايات محفوظ. بل إن "المثقفين الاشتراكيين" والنقاد الاشتراكيين المصريين كمحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس ولويس عوض وغيرهم والنقاد الإسلامويين كسيد فرج وغيره احتقروا محفوظ، ورواياته، وعدوها من بقايا الأدب البرجوازي النتن، ولم يقف إلى جانبه في هذه الفترة غير ناقدين: الأول يميني، وهو سيد قطب الذي بدأ حياته ناقدا أدبيا، وكتب كتابا في (النقد الأدبي) وانتهى مفكرا متطرفا إرهابيا دينيا سياسيا إلى حبل مشنقة عبد الناصر. وكان قطب قد أوصى بأن تكون رواية محفوظ (خان الخليلي) في كل بيت، لما فيها من فضائل الأخلاق. وكان الثاني أنور المعداوي، الناقد من المدرسة الواقعية، الذي كان يكتب مقالات عن (الواقعية في أدب نجيب محفوظ) وعاشق الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان، وحبيبها الذي لم يحظ بحبها والاقتران بها، ومات بحسرته وماتت هي بحسرتها كذلك. وكان المعداوي، هو الناقد المصري الوحيد الذي أنصف محفوظ منذ بداياته، وحتى رحيل المعداوي عام 1965

ولم يفطن النقد العربي المعاصر لعظمة فن نجيب محفوظ إلا بعد نيله جائزة نوبل عام 1988، وبعد أن تمت ترجمة بعض رواياته إلى مختلف اللغات العالمية، وبدأ التعريف به في الغرب. فبدأ سيل من كتب النقد الأدبي العربي يتدفق على المكتبة العربية. وبدأ طوفان ضخم من الرسائل الجامعية للماجستير والدكتوراه، يجتاح سوق الكتاب العربي.

وهكذا عاش نجيب محفوظ ومات في الجاهلية العربية.

الليبرالي الشجاع

لقد هاجمنا محفوظ وشتمناه، نحن الإسلامويين والقومجية والمتطرفين، ومسحنا به الأرض، عندما وقف محفوظ ذاك الموقف العقلاني الليبرالي الجريء والنادر من معاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية، وأعرب عن وجهة نظره الإنسانية والحضارية الشاملة تجاه هذه المعاهدة، والتي ملخصها، أن التفوق على اسرائيل لن يكون بالحرب التي لا نملك من أسلحتها ومن عدتها شيئا، ولكن تفوقنا على إسرائيل يكون بالعلم والتقدم، وتبني الحداثة، والحرية، والعدالة، والديمقراطية.

النصر العلمي والثقافي أولا

لقد أدرك المثقف العقلاني الواقعي، وصاحب المدرسة العقلانية، ليس في الرواية فحسب، ولكن في السياسة أيضا، أن الطريق العربي المسدود، لن تشقه الفتوحات العسكرية الخيالية والمغامرات الدينكوشوتية، ولكن تمهده العلوم العربية، والحداثة العربية.

لقد كان نجيب محفوظ يؤكد في رواياته وفي أحاديثه وفي مقالاته، أن النصر العربي العسكري على أية جبهة من الجبهات لن يتأتى إلا بالنصر العلمي والنصر الثقافي أولا، وبانتصار التقدم على الجهل والتخلف، وبالديمقراطية على الديكتاتورية، والعدالة على الظلم، والواقعية على التهورية، والنقد الذاتي على التبجيل والتقديس للذات.

وكان محفوظ بذلك بشيرا من بشراء الليبرالية العربية، ونذيرا من نذرائها، ورسولا مبكرا من رسلها. ولقد خسرت حركة الليبرالية العربية برحيله نورا من أنوارها الباهرة، وأبا من آبائها المؤسسين.

وهكذا عاش نجيب محفوظ ومات في الجاهلية العربية.

المكافأة

لقد كافأت مصر وكافأ العالم العربي نجيب محفوظ بمنع بعض رواياته. بل إن مدارس في بعض البلدان العربية حرمت قراءة رواياته، واعتبرتها رجسا من عمل الشيطان، وسحبتها من مكتباتها. وأصبحت كل رواية من روايات نجيب محفوظ بمثابة (تربة حشيش) في بعض الدول العربية. واعتبرته دول عربية أخرى عميلا اسرائيليا، وضابطا ثقافيا في الموساد. ومنعت دول عربية أخرى دخول وعرض الأفلام التي تصور رواياته، والكتب النقدية التي تتحدث عن أعماله الروائية. واتهمته معظم الدول العربية، بأنه منح جائزة نوبل ليس لفنه الروائي الرفيع، ولكن مكافأة له على تأييده لمعاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية. فأصبح محفوظ مقاطعا ومنبوذا، في معظم البلاد العربية، مثله مثل أي بضاعة اسرائيلية محرمة.

وعندما كان نجيب محفوظ قبل جائزة نوبل فقيرا، لم تتقدم حكومة مصرية أو دولة عربية بإهدائه بيتا حديثا، أو فرشا عصريا. ولم تخصص له راتبا إضافيا مريحا، رغم ما أضاف من ثقافة رفيعة لمصر وللأمة العربية. ولم يمد أحد من الأثرياء أو الأمراء يد العون له. وعندما طعنته الجماعات الإسلاموية في رقبته عام 1994، وكادت أن تذبحه بالسكين، وتجز رأسه جز الخراف، كما تفعل الآن في العراق، وتوقف على إثر ذلك محفوظ عن الكتابة، لم يتقدم أمير أو ثري للوقوف إلى جانبه في محنته. لم تهد له سيارة (كشخة)، ولم يعين له سائق، ولم يمنح إجازة في أحد المنتجعات الأوروبية، ولم يحسن إليه أي نوع من الإحسان، بينما كانت المجوهرات الثمينة والسيارات الفخمة (الكشخة)، والفيلل الجميلة في منتجعات العالم، والهدايا القيمة تقدم وتنهمر دون حساب، على الممثلين والممثلات، والمغنين والمغنيات، والراقصين والراقصات، من التافهين والتافهات.

وهكذا عاش نجيب محفوظ ومات في الجاهلية العربية.

قتلناه حيا

لقد حاولنا أن نقتل نجيب محفوظ عام 1994، وصادرنا كتبه قبل هذا التاريخ وبعده، ومنعنا الأفلام التي صورت رواياته وشخصياته، واضطهدنا نقاده ومقيميه، وأهملناه في صحافتنا وإعلامنا بعد عام 1980، بل واتهمه بعض الروائيين المصريين من زملائه كيوسف إدريس، بأنه نال جائزة نوبل لمهادنته لإسرائيل، وليس لقيمة أدبه وفنه الروائي، كما قال رجاء النقاش في كتابه (في حب نجيب محفوظ).

فلا تقولوا لي إنه أصاب من الدرس والنقد والتكريم ما لم يصبه أي مثقف عربي. فأنا أقول لك، بأن لا مثقف عربيا قدم بجد واجتهاد ومسؤولية وتواضع كبير، ما قدمه نجيب محفوظ للأدب وللثقافة العربية. والدليل هو اعتراف الغرب به أكثر من اعترافنا به، ومعرفة الغرب به أكثر من معرفتنا به، حين قدم له عام 1988 أكبر وأثمن جائزة في العالم.

ما زلنا نجهل من هو

ورغم هذا كله فنجيب محفوظ عند كثير من عامة العرب حتى الآن، هو نوع من الخضار يطبخ بالصلصة مع اللحم والرز، وذو طعم طيب، ويفضل أكله في العشاء في رمضان، بعد إفطار خفيف. وهو في بعض البلدان العربية ولدى عامة بعض الناس نوع من الفاكهة المصرية كالمنجة والجوافة والبلح الزغلول.

وطلبة المدارس في معظم أنحاء العالم العربي لا يعرفون من هو نجيب محفوظ، لأنه لم يكن ممثلا أو مطربا، ولأن لا مكتبات في المدارس، وإن وجدت مكتبات، فروايات نجيب محفوظ ممنوعة في هذه المكتبات كما هي

ممنوعة كتب طه حسين، وبنت الشاطئ، ونوال السعداوي وغيرها.
ولو كان نجيب محفوظ نجما من نجوم الغناء، أو نجما من نجوم السينما، أو نجما من نجوم السياسة في الفضائيات العربية، لخرج في جنازته في عام 2006 مئات الآلاف من البشر، في حي الحسين. أما وأنه كاتب روائي ودرويش متواضع من دراويش الثقافة، فلم يخرج بجنازته من مسجد الحسين بالقاهرة غير عشرات من (غلابة الحي وفقرائه، الذين عاش بينهم محفوظ، وكتب عنهم رواياته الخالدة. في حين خرجت الملايين في جنازة المطربين والمطربات، والممثلين والممثلات.
ولكن لا تحزنوا، فالتاريخ الثقافي والسياسي العربي والإنساني، سيكرس صفحات مضيئة وكثيرة لرمسيس الثالث عشر، الفاتح الكبير والعظيم في الثقافة العربية المعاصرة.
وهكذا عاش ومات محفوظ الفاتح الروائي الليبرالي، الداعي إلى الحرية والعدالة في الجاهلية العربية.

* لا شك في أن للغرب ومثقفيه وقياداته السياسية دورا في وقوع صدام حضاري بين الشرق والغرب - فيما لو حصل - كما تنبأ من قبل صموئيل هنتنجتون، واستنكر هذا التوقع وتلك الرؤيا إدوارد سعيد، الذي أطلق على هذا المسمى "صراع جهالات" وليس "صراع حضارات"، مستنكرا وقوع مثل هذا الصدام، خاصة بين المسلمين والغرب. حيث لا قوى متكافئة بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، التي غربت شمسها، منذ ما يزيد على خمسة قرون، ومنذ أن غزا العثمانيون العالم العربي عام 1517، وظلوا محتلين له حتى عام 1918 ورغم هذا، فإن مجموعة من الفقهاء وزعماء الجماعات والأحزاب الدينية السياسية، ما زالت تتحدى الغرب ليس عسكريا، أو ثقافيا، أو اقتصاديا، ولكن حضاريا، وتطالب كل يوم بالنـزال معه في ميدان الحضارة، وفي ميدان القيم الأخلاقية التي تخص المرأة والجنس، على وجه الخصوص. وترمي هذا الغرب بالمادية المطلقة، وبخلو مجتمعاته من القيم الروحية والأخلاقية، والتي هي قيم نسبية في كل أمة من الأمم، وفي كل عصر من العصور.

صورة الغرب في مرآة الأصولية

لقد صور بعض قادة الأحزاب الإسلامية ومفكريها، في النصف

الثاني من القرن العشرين الغرب، بأنه مادة بلا روح، وبأنه مادة بلا عواطف، وبأنه يعمل بلا لذة ولا متاع، وبأن الحياة فيه قاسية وجافة وخالية من التأمل الهادئ، وهو ما ينادي به الإسلام، الذي يجعل الحياة متوازنة بين الجد واللهو، ويعطي للجد نصيبه وللحياة نصيبها. وفي هـذا يقول سيد قطب مثلا: "أمريكا لا تعرف إلا العمل والكدح. ولا تؤمن إلا بالعمل والكدح. ولا تزن الأفكار والمعاني إلا بميزان العمل والكدح. ولا تعرف الرجال العباقرة إلا بمنظار العمل والكدح. وأمريكا لا تعرف الحياة إلا كدحا في العمل المادي وارتشافا للذة الحسية حتى الهمود. حتى التفكير يكاد يكون جهدا عضليا. وأن امريكا هي النبت الخبيث النكد للمادية الجاهلية" (صلاح الخالدي، أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب، ص 84، 94).

السؤال الكبير

والسؤال هنا هو:

- ما بال الفلسفات والنظريات والأفكار الجديدة في السياسة والاجتماع والاقتصاد والأدب والتاريخ وعلوم الإنسان والحيوان والطبيعـة، تخر كلها من الغرب الآن، وفي السابق، ويفوز بها أصحابها بأكبر الجوائز في العالم، وهي الفلسفات والنظريات التي تحتاج إلى تأمـل هادئ، وإعمال عقلاني، وجو روحاني؟

- ثم ما هو تفسير هذا الإقبال الكبير على أداء الطقوس الدينية، وبناء المزيد من المعابد للأديان الثلاثة في الغرب، وفي أمريكا على وجه الخصوص، وزيادة ساعات وعدد البرامج الدينيـة في التليفـزيون الأمريكي، وتدفق أموال التبرعات على الهيئات الدينية، بحيث أن أكبر نسبة من التبرعات الخيرية (14 بالمائة) التي يقـوم بها رجال

الأعمال تذهب لصالح الجمعيات الدينية في أمريكا، في حين أن الجمعيات العلمية والبحثية تحظى بنسبة تبرعات أقل من ذلك بكثير؟

- ثم ما هو تفسير اهتمام الجامعات الأمريكية بدراسات الأديان المقارنة، والتركيز على الدراسات الإسلامية في معظم الجامعات الأمريكية، ورصد الأموال الطائلة لهذه الأقسام، والتي هي أكبر من ميزانية سائر المعاهد الإسلامية في العالم العربي والإسلامي، وأقوى منها علميا وبحثيا، وتنتج في كل عام مئات الرسائل الجامعية في الماجستير والدكتوراه، وذات قيمة دينية وتاريخية علمية أكثر بكثير من آلاف الكتب الدينية والتاريخية التي تصدر في العالم العربي، والتي في معظمها اجترار للأفكار السابقة، وغرغرة بمعطيات سالفة.

- ثم ما هذا التناقض بين قول سيد قطب من أن أمريكا لا تعرف إلا الكدح والعمل، وأنها في الوقت ذاته لا تعرف اللذة والمتعة؟

فمن أجل ماذا إذن يعمل الإنسان، ويكدح؟

أليس من أجل أن يوفر أكبر مقدار ممكن لنفسه من اللذة والمتعة؟

وهل يوجد شعب على ظهر الأرض مستهلك للمتاع واللذات، كما هو عليه حال الشعب الأمريكي مثلا الآن، صاحب السيارات الفارهة، والبيوت الفخمة، والمأكل والمشرب والملبس الباذخ، كما يرى كل زائر إلى أمريكا، إلى الحد الذي وصف معه الشعب الأمريكي، بأنه شعب مستهلك من الدرجة الأولى لكل ملذات الحياة، وأقل شعوب العالم توفيرا واكتنازا للمال، وأكثر شعوب العالم إنفاقا في ملذات الحياة ومتعها. إن الأحزاب والجماعات الإسلامية لم تبق حجرا من حجارة الغرب إلا وكشفت عنه، وفضحته، وسفهته بشكل إعلامي خطابي حماسي، بعيدا عن العقل والحقيقة والمنطق. فهم لكي يسفهوا الشعب الأمريكي مثلا، ويحطوا من قدره، يقولون بأن أصل الأمريكيين "مجموعة من

المغامرين اللصوص القتلة والمغامرين من طلاب الثراء والمتعة والمتاع. وكل شخص من أولئك الأجداد إما أن يكون مجرما مغامرا، أو قد يجمع بين الصفتين الخبيثتين معا" (صلاح الخالدي، المصدر السابق، ص50).
والحقيقة التاريخية تقول، إنه صحيح أن قسما من المهاجرين الأوروبيين إلى أمريكا كانوا على هذا النحو، وتلك نصف الحقيقـة. والنصف الآخر من الحقيقة يقول، بأن قسما آخر من هؤلاء كانوا من العلماء والمخترعين وأساتذة الجامعـات الذين استطاعوا أن يبنوا خلال مائتي عام من التاريـخ الأمريكي أكبر وأقـوى وأعرق جهاز تعليم في العالم حتى الآن. وأن الجامعات الأمريكية الآن أصبحت مدرسة العالم، حيث ترى فيها طلبة من أنحاء العالم كافة، حتى غدا التعليم صناعة من الصناعات الأمريكية، وكاد أن يشكل قبل كارثة 11 سبتمبر 2001 حوالي أربعة بالمائة من الدخل القومي الأمريكي. كما أن النهضة العلمية والتقنية العالية والمتفوقة التي تتمتع بها أمريكا، هي من نتاج هؤلاء العلماء والخبراء الذين أنكر هجرتهم إلى أمريكا سيد قطب، والذي يعود ليقول عن أمريكا كلاما مخالفا لما قاله من قبل، على إثر زيارته لها في العام 1948 في بعثة علمية للتعرف على أساليب التربية الحديثة، بأنها "تلك المصانع التي لم تعرف لها الحضارة نظيرا، وتلك المعامل والمعاهد والمتاحف المبثوثة في كل مكان. عبقرية الإدارة والتنظيم التي تثير العجب والإعجاب. وذلك الرخاء السابغ كأحلام الجنة الموعودة. تلك اللذائذ الحرة المطلقة من كل قيد أو عرف" (صلاح الخالدي، المصدر السابق، ص97)

سؤال آخر

والسؤال مرة أخرى هو:

من الذي بنى كل هذا، هل هم المجرمون من المهاجرين وقطاع الطرق،

كما سبق ووصفهم قطب؟

إن قطب في عدائه الأعمى للغرب، واعتباره جوهر الصراع مع الغرب صراعا دينيا صليبيا، وليس صراعا اقتصاديا أو سياسيا، كما قال في كتابه "العدالة الاجتماعية في الإسلام" ، وتحريضه للمسلمين على معاداة الغرب ونبذه، لا يتوانى أن يترك تناقضا حتى يدخل في تناقض جديد، ومن هذه التناقضات قوله: "أخشى أن لا يكون هناك تناسب بين عظمة الحضارة المادية في أمريكا وعظمة الإنسان الذي ينشئ هذه الحضارة" (صلاح الخالدي، المصدر السابق، ص98). وقوله أيضا "إن الباحث في حياة الشعب الأمريكي ليقف في أول الأمر حائرا أمام ظاهرة عجيبة، وهي شعب يبلغ في عالم العلم والعمل قمة النمو والارتقاء بينما هو في عالم الشعور والسلوك البدائي، لم يفارق مدارج البشرية الأولى" (صلاح الخالدي، المصدر السابق، ص99).

من الذي يصنع الحضارة؟

والسؤال الآن هنا أيضا:

كيف يتأتى للحضارة العظيمة أن لا يكون وراءها إنسان عظيم؟

فمن الذي يصنع الحضارة العظيمة إذن؟

وهل الحضارة العظيمة تخلق من لا شيء، أو من العدم؟

إن الإنسان العظيم هو خالق الحضارة العظيمة.

ثم كيف يمكن لإنسان الغابة الأمريكي الذي لم يفارق مدارج البشرية الأولى - كما وصفه قطب هنا - أن يبلغ قمة النمو والارتقاء في العلم والعمل؟

وللعلم، فإن آراء قطب هذه كانت الثدي الدافئ المدرار، الذي رضعت منه معظم الجماعات الإسلامية في النصف الثاني من القرن

العشرين - وهي جماعات شبه أمية في الدين والسياسة في معظمها - وعلى رأسها جماعة الإخوان المسلمين وتنظيم "القاعدة"، وأخذت تدعو إليها في أدبياتها، وتستعملها في هجومها وصدامها مع الغرب ذي "الجاهلية المادية" - كما قال قطب - التي تجب محاربتها، وإعادتها إلى حظيرة الإسلام.

أوروبا والإسلام سفينتان لا تلتقيان!

يرى بعض المفكرين الإسلاميين من غير العرب، كالهندي أبي الحسن الندوي "أن أوروبا نهضت حين سقطت الأمة الإسلامية، وأنه لكي تنهض الأمة الإسلامية فلا بد من سقوط أوروبا" ( أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص179) . كما يرى مفكر باكستاني آخر كأبي الأعلى المودودي "أن أوروبا والإسلام عبارة عن سفينتين، كل منهما تتجه اتجاها مخالفا للآخر" (أبو الأعلى المودودي، نحن والحضارة الغربية، ص 24). ويردد الكتاب الإسلاميون من العرب هذا القول كذلك، وعلى رأسهم سيد قطب وزعماء الجماعات الإسلاميـة التي ظهرت في السبعينات من القرن العشرين. كذلك مازال أسامة بن لادن، وأيمن الظواهري، والزرقاوي - في حياته - يرددون هذا الكلام كالببغاوات من كهوف أفغانستان ومستنقعات العراق.

تجذر فكر الكراهية

ولعل هذه الأفكار ما زالت متجذرة حتى الآن في الأجيال التالية، ومنها جيل الشباب الآن، الذي أدت هذه الأفكار وغيرها من الأفكار إلى جنوحه إلى العنف وممارسة الإرهاب على النحو الذي نشاهده الآن، وكانت آخر مظاهره ما جرى في الشوارع العربية، ضد الدنمارك على إثر

نشر رسوم كاريكاتورية سخيفة، وغير ذات قيمة، منذ خمسة أشهر مضت. ولكنه الثأر الدفين في صدور التيارات الإسلامية ضد الغرب، منذ زمن طويل.

ماذا تريد الأصولية من الغرب؟

إن أبرز ما تطالب به الجماعات الإسلامية الغرب، وتلح عليه، هو اعتدال قيم الغرب الأخلاقية التي تلزمه وحده، ولا تلزم الآخرين الأخذ بها. فهم معجبون بكل ما في الغرب من صناعة، وثقافة، وتعليم، وعلم، وتقدم، ونظام، وضبط للشارع، والمكتب، والمدرسة، وخلاف ذلك. ولكنهم غير راضيين عن أخلاق هذا الغرب النابعة من تكوينه الاجتماعي والثقافي، وذات الخصوصية الخالصة. هذا من ناحية، ومن ناحية، فإن في الغرب من القيم الأخلاقية ما نحتاج إليه، ونفتقر إليه في العالم العربي، كقيم احترام العمل، واحترام المواعيد، واحترام سلوكيات الشارع العام، والصدق في القول، والأمانة في الشهادة، والعدالة في الأحكام، واحترام حقوق المرأة، وغير ذلك من القيم التي تنقصنا، ويسبب نقصانها في تخلفنا. والجماعات الإسلامية كعادتها تخلط بين القيم الأخلاقية والقيم الثقافية. ومن هنا نقرأهم يقولون: "إن نظرة الغرب إلى الحياة تجعل الأولوية للإنتاج والاستهلاك، لا للأخلاق وما يتصل بها من قيم إنسانية. ونظرة الغرب للإنسـان تجعل الأولوية للجسد وحاجاته الغريزية، لا للروح ومتطلباتها التي لا تقف عند حدود الجسد والتراب، بل تتجاوزها إلى عالم الحق والخير والجمال والاتصال بالمطلق" (راشد الغنوشي، طريقنا إلى الحضارة، ص24). وقد كان هذا المطلب، هو المطلب الأساسي للجماعات الإسلامية من الغرب لكي تتصالح معه. وهو العيب الأساسي الذي ترمي به الجماعات الإسلامية الغرب. في

حين أن هذه الأخلاقيات المادية الخالصة والخالية من الروح كلية - كما تدعي الجماعات الإسلامية منذ العام 1949 عندما كان سيد قطب في أمريكا في بعثة تعليمية، وكتب هذه الأفكار نفسها - هي مقولة خاطئة. فلا مجتمع إنسانيا يخلو من الروح. وإن المجتمع المادي الصرف لا يقوم، حتى في أعتى الدول المادية، وهي الدول الشيوعية السابقة. فقد كانت الكنيسة في الاتحاد السوفياتي السابق محاصرة رسميا، ولكن الدين كان في قلوب الناس. فما بالك أن لا حصار للكنيسة في الغرب، ولا حرب عليها الآن. وإن المجتمع المادي الصرف لم يوجد لا في الغرب، ولا في الشرق الأوروبي، وإنما وجد في أدبيات الجماعات الإسلامية، وفي خيالهم الواسع. فالدين ما زال في قلوب البشر عامة، وإن الإنسان متدين بطبعه، وعابد بطبعه، منذ الأزل، وإن لم يجد ما يعبده عبد نفسه!

غيض من فيض

هذا غيض من فيض لما تقوم به الجماعات الإسلامية وفقهاؤها، لتأجيج نار المواجهة والصدام مع الغرب، واستعمالها لأسلحة خشبية متآكلة في هذا الصراع المختلق والمبتدع، والقائم على فرضيات وهمية خادعة هي أقرب إلى أضغاث الأحلام منها إلى حقيقة الواقع على الأرض. ولم تدرك الجماعات والأحزاب الإسلامية بعد، بأن مستقبل العالم العربي مرتبط بمدى استعداده وتقبله للعيش بسلام، وليس بصدام مع الآخرين. فالحضارة هي قصة نجاح الإنسان ليعيش بوئام مع الآخرين. أما العداء للآخر فهي من سلوكيات المجتمعات البدائية.

هل قرأ ابن لادن شعر الحداثة قبل الكارثة؟

* مرت الذكرى الخامسة لكارثة الحادي عشر من سبتمبر 2001، التي استهدفت نيويورك بالدرجة الأولى. وهذه الكارثة كانت قد أشبعت بحثا وتحليلا سياسيا / دينيا بالدرجة الأولى، فلا جديد كثيرا يقال فيها. في حين أن التحاليل الاجتماعية والتربوية والتعليمية والاقتصادية، لم تحظ إلا بالاهتمام القليل جدا. وانتفت التحليلات التي ترد بعض أسباب هذه الكارثة إلى وجود عناصرها التدميرية، والشعور بالعداء والحقد والكراهية لمدن الغرب وقيمها، وخاصة مدينة نيويورك "عين الكارثة"، في اللاوعي الثقافي العربي، وفي لاوعي الشعراء العرب الحداثيين المهمين في الشعر العربي المعاصر خاصة، وليس فقط في لاوعي الإرهابيين، وقادتهم الذين قاموا بهذه الكارثة.

مشهد الكارثة في الشعر قبل الواقع

فمشهد تدمير نيويورك لم يكن غائبا عن ذاكرة شعراء الحداثة، كما لم يكن غائبا عن ذاكرة الجماعات الدينية الإرهابية، التي سبق واستهدفتها عام 1993، قبل نكبتها في 2001

فلماذا كانت نيويورك بالذات الهدف الأول، وتلتها مدن عريقة أخرى

كمدريد ولندن، فيما بعد؟
نيويورك بوابة العالم الجديد، مدينة الغرباء، غريمة الشعراء، صندوق مال العالم، المدينة التي تتفجر ذهبا وعلما وفنا، المدينة اللامعة المبرقة المبهرة، عاصمة نشر الكتاب في العالم، عاصمة الصحافة العالمية، عاصمة المسرح في العالم، عاصمة الأزياء، عاصمة الفقراء والأغنياء، المدينة الزجاجية، مدينة الجامعات العريقة، حاضنة الأمم المتحدة، المدينة التي ترى فيها الحياة في سرعتها القصوى.

المدينة الفاجرة
ولكن نيويورك هذه لم تكن هكذا في مخيال الشعراء العرب المحدثين، قبل الكارثة. بل كانت المدينة الفاجرة، ذات القلوب المحشوة اسفنجا كما وصفها الشاعر أدونيس، الذي قال عنها في 1971 قولا ربما قرأه أسامة بن لادن أيام كان شابا يافعا مندفعا (ولد 1958 حسب مجلة تايم)، وربما لم يقرأه. ولكن شعراء حداثيين كأدونيس، ومحمد الدميني، وعبد الوهاب البياتي، وسعدي يوسف، كانوا قد فجروا نيويورك ودمروها في مخيلتهم وشعرهم، قبل أن يفجرها ابن لادن على الواقع، ويحدث فيها تلك الكارثة الإنسانية الفظيعة.
فهل حقد الشعراء الحداثيون على نيويورك، وما ترمز إليه من قيم بشعة باعتقادهم، قبل أن يحقد عليها الإرهابيون ويفجروها؟

قبر من أجل نيويورك
في عام 1791، دعا أدونيس في قصيدته الجنائزية الطويلة (26 صفحة) "قبر من أجل نيويورك" إلى تدمير نيويورك شعرا، من خلال هذه الصور السوداء، قائلا:

حضارة بأربعة أرجل؛ كل جهة قتل وطريق إلى القتل
تمثال امرأة ترفع خرقة يسميها الحرية، ورق نسميه
التاريخ، وفي يد تخنق طفلة اسمها الأرض
نيويورك
جسد بلون الإسلفت. حول خاصرتها زنار رطب، وجهها
شباك مغلق
نيويورك
كسل يشبه العمل، عمل يشبه الكسل. القلوب محشوة
إسفنجا والأيدي منفوخة قصبا. ومن أكداس القذارة
وأقنعة الأمبيرستيت، يعلو التاريخ روائح تتدلى صفائح
صفائح:
ليس البصر أعمى بل الرأس،
ليس الكلام أجرد بل اللسان.
نيويورك
سوق العبيد من كل جنس.
بشر يحيون كالنباتات في الحدائق الزجاجية.
بائسون غير منظورين يتغلغلون كالغبار في نسيج الفضاء
ضحايا لولبية،
الشمس مأتم
والنهار طبل أسود.
نيويورك
امرأة من القش والسرير يتأرجح بين الفراغ والفراغ.
نيويورك
أيتها المرأة الجالسة في قوس الريح،

شكلا أبعد من الذرة،
نقطة تهرول في فضاء الأرقام،
فخذا في السماء وفخذا في الماء.
نيويورك
كل جدار فيك مقبرة.
كل نهار حفار أسود،
يحمل رغيفا أسود صحنا أسود
ويخطط بهما تاريخ البيت الأبيض.
نيويورك
رمل من البشر يتكاثف بروجا بروجا.
وجوه تنسج الأزمنة.
النفايات ولائم للأطفال،
الأطفال ولائم للجرذان.
نيويورك
مهرجان سلاسل وعصي، والشرطة جرثومة الزمن
طلقة واحدة، عشر حمامات.
العيون صناديق تتموج بثلج أحمر،
والزمن عكاز يعرج.
نيويورك
تمزجين الأطفال بالثلج وتصنعين كعكة العصر.
صوتك أكسيد، سم مما بعد الكيمياء،
واسمك الأرق والاختناق

شعراء سعوديون يشاركون

وكان بعض الشعراء الحداثيين من السعودية ، ينظرون إلى نيويورك قبل كارثة الحادي عشر من سبتمبر 2001 على هذا النحو من العداء والكراهية ووصفوها بأن لها قاموسا من سقيا الدمار، كما جاء في قصيدة محمد الدميني (كتابة نهارية عن ليل نيويورك):

نيويورك ابتعادك
كاقترابي منك.. أرض تنجب
الأنواء، ممحاة لطمس الفرق
بين الجهل والجهال،
مكتبة تبيع الحبر بالتخفيض
كي يتناقص الكتاب..
سيدة أبت وأنا طريق الجريمة
كالطرق
في قاموسك المصنوع من سقيا دمار
لم تكوني غصن "وايتمان"
ولكن كنت قبره
سادوم وعامورة القرن العشرين

وفي عام 1977 كتب الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي قصيدته "قداس جنائزي إلى نيويورك"، دعا فيها هو الآخر إلى تدمير نيويورك شعرا، من خلال أمنيته في أن تصبح نيويورك، كما غدت صباح 11 سبتمبر، كمدينتي سادوم وعامورة، الفاجرتين اللتين أمطرتا بالكبريت والنار في زمن لوط:

موسيقى تعلن عن "عامورة" في القرن العشرين
و"سادوم" المجهول المعلوم .

وفي عام 1991، قال الشاعر العراقي سعدي يوسف، مخاطبا أمريكا ناقما عليها، حسيرا وأسيفا في قصيدته America, America بعد حرب الخليج 1991، متأثرا بحجم الدمار الذي أصاب العراق ومدينته البصرة بشكل خاص في عملية (عاصفة الصحراء ):

خذي مسدس جيمس بوند الذهبي وأعطينا كركرة مارلين مونرو

خذي اللحية الأفغانية وأعطينا لحية والت ويتمان الملأى بالفراشات

خذي صدام حسين وأعطينا لينكولن !

ووالت وايتمان هو الشاعر والفيلسوف الأمريكي الليبرالي الأشهر، صاحب (أوراق العشب).

وهكذا بدت نيويورك في عيون الشعراء العرب الحداثيين في السبعينات وما بعدها من القرن العشرين، وكأنهم يصفونها بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001، بعد أن وقعت الكارثة الكبرى فيها.

فهل كان الشعراء العرب الحداثيون يتوقعون الكارثة الكبرى التي نزلت في نيويورك في العام 2001، وهم المتنبئون نبوءة الأحبار، والراءون للحجب وما وراء السحب رؤية الأنبياء، والمستطلعون الغيب استطلاع القديسين؟

تفتتي يا تماثيل الحرية

لقد توقع الشعراء العرب الحداثيون في السبعينات وما بعدها من القرن العشرين النازلة الكبرى التي نزلت بنيويورك في 2001، وكأنهم كانوا يرونها في السبعينات رؤية العين البصيرة والنظرة المنيرة، وصاحوا على لسان أدونيس في قصيدته (قبر من أجل نيويورك):

تفتتي يا تماثيل الحرية، أيتها المسامير المغروسة في الصدور

بحكمة تقلد حكمة الورد. الريح تهب ثانية من الشرق،

تقتلع الخيام وناطحات السحاب. وثمة جناحان يكتبان:
أبجدية ثانية تطلع في تضاريس الغرب،
هكذا أضرم لهبي.
هكذا أضرم لهبي،
نسكن في الصخب الأسود لتمتلئ رئاتنا بهواء التاريخ
نطلع في العيون السوداء المسيجة كالمقابر لنغلب الكسوف،
نسافر في الرأس الأسود لنواكب الشمس الآتية.

شعر في لاوعي ابن لادن

بالتأكيد، فإن ابن لادن لم يقرأ هؤلاء الشعراء في صباه وفي شبابه، وربما لم يسمع بهم. فقد كان غارقا في قراءة كتب سيد قطب وكراهيته للقيم الغربية، وحفظ دروس "الولاء والبراء"، وصفحات من "الحاكمية لله" التي نقلها قطب عن أبي الأعلى المودودي، وأحاديث ووسوسات شقيقه محمد قطب أيام كان أستاذا في جامعة الملك عبد العزيز بجده 1975، وكان ابن لادن طالبا فيها.
ولكن مشهد دمار نيويورك في 11 سبتمبر 2001 كان قائما في اللاوعي الجمعي العربي، وفي لاوعي الشارع العربي، وفي مخيال الشعراء العرب، وهو ما لم يدرس حتى الآن من قبل نقاد الأدب وباحثي التاريخ (السيوأدبي)، الذين عليهم أن يلتفتوا إلى هذه الظاهرة المهمة، وهي ظاهرة أننا أوقعنا كارثة 11 سبتمبر في الشعر العربي (ديوان العرب)، قبل أن نوقع هذه الكارثة على الأرض في 11 سبتمبر 2001 لقد كان مشهد هذه الكارثة في لاوعينا، كتابا ومثقفين وإرهابيين، من خلال هذه الكراهية، ومن خلال هذه الثقافة، ومن خلال هذا العداء، الذي نكنه للغرب منذ مطلع القرن العشرين، وبعد الحرب العالمية الأولى، وصدور وعد بلفور عام 1917، وما تلا ذلك من استعمار بريطاني وفرنسي وإيطالي

للعالم العربي، وما تلا ذلك من هيمنة أمريكية وسوفياتية، بعد الحرب العالمية الثانية.

لسنا وحدنا

لم نكن نحن الأمة الوحيدة التي لديها هذه الكراهية للغرب في لاوعيها، ولم يكن شعراؤنا هم وحدهم الذين نقموا على أمريكا هذه النقمة، وكرهوها هذه الكراهية. فقد سبق لشاعر إسبانيا العظيم غارسيا لوركا صاحب ديوان (شاعر في نيويورك) أن كره أمريكا، وكره نيويورك كرها شديدا. وسبق لشاعر ألمانيا وكاتبها المسرحي برتولد بريخت أن كره أمريكا، وكره نيويورك وغادرها احتجاجا على غياب العدالة منها. بل إن الممثل الشهير شارلي شابلن - وهو المواطن الأمريكي من أصل انجليزي - هاجر منها إلى سويسرا، وتنازل عن جنسيته الأمريكية، وأوصى أن يدفن بسويسرا احتجاجا على القيم الأمريكية الزائفة. وهزئ من تمثال الحرية في نيويورك، كما لم يهزأ به فنان من قبل. ولكن هؤلاء جميعا لم يكونوا سببا في كارثة فظيعة ككارثة 11 سبتمبر 2001
فهل كانت هذه الكارثة أبعد من أن تكون بتأثير مواقف الشعراء والمثقفين والفنانين من أمريكا ومن قيمها التي يعتبرها البعض زائفة؟
لا شك في ذلك.

الكارثة ليست بفعل الشعر

فالشعر لا يدمر مثل هذا الدمار، والفن لا يفعل هذا كذلك. وما حدث صباح 11 سبتمبر 2001، هو بالتأكيد ما قاله الفيلسوف الفرنسي المعاصر أندريه غلوكسمان من أن "قذارة القرن العشرين بأسره سقطت على منهاتهن كي تفتح القرن الحادي والعشرين".

## قضبان السياسة

السؤال الكبير، سؤال آخر، من الذي يصنع الحضارة؟ أوروبا والإسلام سفينتان لا تلتقيان، تجذر فكر الكراهية، ماذا تريد الأصولية من الغرب؟ غيض من فيض.

هل قرأ ابن لادن شعراء الحداثة قبل الكارثة؟ 226
ما الجديد؟ مشهد الكارثة في الشعر قبل الواقع، المدينة الفاجرة، قبر من أجل نيويورك، قصيدة أدونيس، شعراء سعوديون يشاركون، قصيدة محمد الدميني، سادوم وعامورة القرن العشرين، قصيدة عبد الوهاب البياتي، قصيدة سعدي يوسف، تفتتي يا تماثيل الحرية، شعر في لاوعي ابن لادن، لسنا وحدنا، الكارثة ليست بفعل الشعر.

في نقد الشعر:

1- فدوى تشتبك مع الشعر (دراسة في شعر فدوى طوقان) 1963

2- رغيف النار والحنطة (دراسة في الشعر العربي الحديث) 1986

3- الضوء واللعبة (دراسة في شعر نزار قباني) 1986

4- مجنون التراب (دراسة في شعر محمود درويش) 1987

5- نبت الصمت (دراسة في الشعر السعودي الحديث) 1992

6- قامات النخيل (دراسة في شعر سعدي يوسف) 1992

7- عاشق خزامى (حفريات الحب والحكمة في شعر خالد الفيصل) 2006

في نقد الرواية:

8- مذهب للسيف ومذهب للحب (دراسة في أدب نجيب محفوظ) 1985

9- فض ذاكرة امرأة (دراسة في أدب غادة السمان) 1990

10- مدار الصحراء (دراسة في أدب عبد الرحمن منيف) 1991

11- مباهج الحرية في الرواية العربية (دراسة لعشرة روائيين عرب) 1992

12-جماليات المكان في الرواية(دراسة في أدب غالب هلسا) 1994

13- الرواية الأردنية وموقعها من خارطة الرواية العربية، (مع آخرين) 1994

في نقد القصة القصيرة:

14- النهايات المفتوحة (دراسة في أدب انطون تشيكوف) 1963

15- المسافة بين السيف والعنق (دراسة في القصة السعودية) 1985

في نقد الموسيقا:

16- الأغاني في المغاني- جزآن (السيرة الفنية للشيخ إمام عيسى) 1988

في نقد الفن التشكيلي:

17- أكله الذئب (السيرة الفنية للرسام ناجي العلي) 1999

في نقد الثقافة:

18- الزمن المالح (أوراق في جدلية السياسة والثقافة العربية) 1986

19- الثقافة الثالثة (أوراق في التجربة الثقافية اليابانية) 1988

20- النهر شرقا (دراسة في الثقافة الأردنية المعاصرة) 1993

21- عصر التكايا والرعايا (المشهد الثقافي لبلاد الشام في العهد العثماني) 1999

22- هاملت عربي (مع آخرين) (أوراق في ذكرى مؤنس الرزاز) 2003

في نقد الفكر:

23- الرجم بالكلمات (دراسة لمجموعة من المفكرين العرب

المعاصرين) 1989

24- ثورة التراث (دراسة في فكر خالد محمد خالد) 1991

25- الفكر العربي في القرن العشرين 1950-2000، (ثلاثة أجزاء) 2001

26- الليبراليون الجدد (جدل فكري مع آخرين) 2005

27- محامي الشيطان (دراسة في فكر العفيف الأخضر) 2005

في نقد السياسة:

28- النار تمشي على الأرض (شهادات في الحياة العربية) 1985

29- قطار التسوية (دراسة لكافة مبادرات التسوية الفلسطينية) 1986

30- محاولة للخروج من اللون الأبيض (أوراق في السياسة العربية) 1986

31- وسادة الثلج (العرب والسياسة الأمريكية) 1987

32- السلطان (دليل السياسة لحفظ الرئاسة) 2000

33- الشارع العربي (دراسة سياسية تاريخية) 2003

34- صعود المجتمع العسكري العربي (مصر وبلاد الشام) 2003

35- زوايا حرجة في السياسة والثقافة 2004

36- الزلزال (أوراق في أحوال العراق) 2005

37- أسئلة الحمقى (في السياسة والإسلام السياسي) 2005

38- لماذا ؟ (أسئلة العرب مطلع الألفية الثالثة) 2006

39- ابن لادن والعقل العربي 2007

40- سجون بلا قضبان (يحدث في العالم العربي الآن) 2007

في نقد التاريخ:
41- المال والهلال (الموانع والدوافع الاقتصادية لظهور الإسلام) 2002
42- لو لم يظهر الإسلام ما حال العرب الآن ؟ 2002

في نقد التربية:
43- الطائر الخشبي (شهادات في سقوط التربية العربية) 1988

في نقد التنمية:
44 - لكي لا ينبت الشوك في أيدينا (شهادات في الحياة السعودية) 1984
45- سعودية الغد الممكن (بحث استشرافي تنموي) 1985
46- طلق الرمل (أوراق في التنمية والثقافة الخليجية) 1988

في ترجمة النقد:
47- سارتر المفكر العقلي الرومانسي، 1964
48- دراسات في المسرح الفرنسي، 1964



PRISONS WITH NO BARS




# سجون بلا قضبان

## يحدث في العالم العربيّ الآن

يتّضح ، في هذا الكتاب ، كم هي قاسية ومظلمة ومهلكة السجون الّتي نعيش فيها في العالم العربيّ ، والّتي نطلق عليها - جزافًا - أوطانًا ، وهو ما نسمعه ، جزئيًّا وعلى استحياء ، من بعض المسؤولين أحيانًا وعفويًا ، فحنيف حسن ، وزير التربية والتعليم الإماراتيّ ، يقول - بصراحة - لتلفزيون ( العربيّة ) ( ٢٠٠٧/١/١٨ ) ، بأنّ مدارس بلاده أصبحت « سجونًا منفرة » ؛ ولو كان لدى المسؤولين العرب الآخرين الشجاعة الكافية لاعترفوا بأنّ العالم العربيّ كلّه ، وليس مدارسه فقط ، قد أصبح سجونًا بلا قضبان ، من خلال قضبان السياسة الغليظة والمحكمة ، ومن خلال قضبان الإسلامويّين ، وظهور تأثير إسلام الفقهاء الّذين يكيلون بعدّة مكاييل وليس بمكيالين فقط ، خاصّة فيما يتعلّق بقضيّة مهمّة وشاغلة هي قضيّة الإرهاب ، ومن خلال سجون المثقّفين المعنويّة المتمثّلة بمحن المفكّرين الليبراليّين مع الفكر الدينيّ ، ومع الإرهاب الّذي هدّدهم بالقتل إذا لم يكفّوا عن التفكير والكتابة ...


ISBN 9953-36-986-0
9 789953 369860



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨
http://www.airpbooks.com